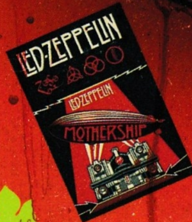
ميرنا المهدي



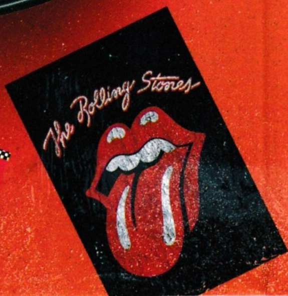


جاز و روك

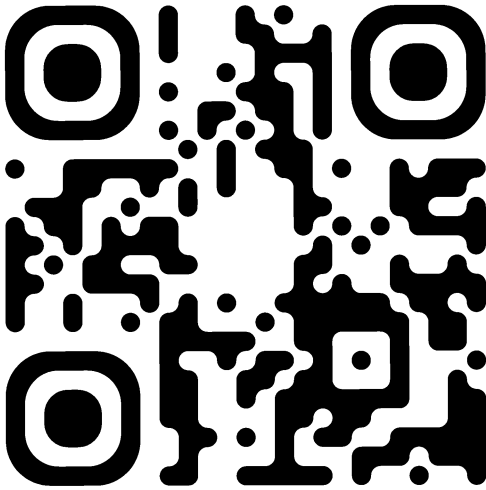
مكتبة











سجل في مكتبة
اضغط الصفحة
SCAN QR

چاز
و
روك

أعمال ميرنا المهدي

الصادرة عن دار الكرمة

قنبلة للاستخدام الشخصي

دليل جدتي لقتل الأوغاد

صديقي السيكوباتي

چاز وروك - قائمة أغاني السفاح المثالي

قضية ست الحُسن - تحقيقات نوح الألفي ١

قضية لُوز مُر - تحقيقات نوح الألفي ٢

قضية عنب الثعلب - تحقيقات نوح الألفي ٣

مكتبة
t.me/soramnqraa

ميرنا المهدي

چاز و روك

قائمة أغاني التفاح المثالي





alkarmabooks.com

facebook.com/alkarmabooks

x.com/alkarmabooks

instagram.com/alkarmabooks

هذا عمل أدبي خيالي. جميع الأسماء والشخصيات والأماكن والأحداث الواردة فيه هي من نسج خيال المؤلفة، أو مستخدمة بشكل فني خيالي، ويجب عدم تفسيرها على أنها حقيقية. وأي تشابه مع أحداث أو أماكن أو منظمات فعلية أو أشخاص، أحياء أو أموات، فهو من قبيل المصادفة.

المهدي، ميرنا.

چاز وروك / ميرنا المهدي - القاهرة: الكرمة للنشر، ٢٠٢٥.

٣٦٠ ص؛ ٢٠ سم.

تدمك: 9789779603261

١- القصص العربية.

أ - العنوان.

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٣٢٦٩٧ / ٢٠٢٤

٦٨١٠٩٧

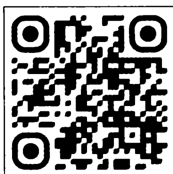
تصميم الغلاف: أحمد فرج

تنويه

هذه الرواية تتناول موضوعات، مثل: كرب ما بعد الصدمة، والعنف المنزلي، والإدمان، والاضطرابات العقلية والنفسية، واكتئاب ما بعد الولادة، مما يجعلها تحتوي على مشاهد قد تكون عنيفة للبعض، لذا لزم التوضيح.

للحصول على تجربة مُثلى للقراءة

يمكنك الاستماع إلى قائمة الأغاني المذكورة في هذا العمل من خلال مسح الكود الآتي:



رسالة

صديقي القارئ

أقدِّم إليك أحدث أعمالي وأقدمها.

أقدمها لأنها تحتوي على نسخة جديدة منقحة من أول نوفيلا كتبتها في لون الأدب البوليسي حين كنت في عامي الجامعي الأول، وهي نوفيلا ثلاثة عشر التي أقدمها إليك الآن تحت مسمى چاز.

وأدمجها لك مع ثاني نوفيلا لي وثالث رواياتي روك آند رول، التي لطالما وجدتها غير مكتملة في الصورة التي نُشرت عليها في عام ٢٠٢٠.

لأربع سنوات، أرقتني رغبة كتابة الجزء الثاني منها حتى أكمل خاتمتها بناءً على طلبكم، وأخيرًا أتيحت لي الفرصة أن أعيد نشرها مع دار الكرمة، وأعدلها كما تصورت وأتمها كما تمنيت.

وأحدثها، لأن هذا العمل سأبتدئ به سلسلة جديدة تحت عنوان «قائمة أغاني السفاح المثالي»، لأتمكن أخيرًا من الدمج بين أحب هوايتين إلى قلبي، الاستماع إلى الأغاني، ودراسة القتل.

ميرنا

القاهرة، ١٧ أغسطس ٢٠٢٤

القائمة الأولى

چاز

١

Fever(*)

القاهرة، ١٩٦٤

دفع حسين الألفي باب مطعم اللوتس، فانسابت من الداخل ضحكات النساء، ودردشة الصفوة، ودخان السجائر، ورائحة الكحول.

بمجرد أن دخل هذا الثلاثيني طويلُ القامة، كث الشارب، إلى المطعم، انتبه لصوت المطربة الشقراء التي تتوسط خشبة المسرح مع فرقة چاز مختلطة الجنسيات، يطرقعون أصابعهم على هذا اللحن البسيط، وهي تغني داخل دائرة الضوء أغنية «Fever».

لولا أن لتلك المطربة لكنة فرنسية تظهر بقوة عند نطق حرف الراء غينًا، لظن حسين أن بجي لي هي التي تُرفه الليلة عن صفوة المجتمع المصري.

خلع قبعته ومعطفه وناولهما لمضيف المطعم، ثم وقف عند

(*) «حمى»: أغنية چاز للمطربة بجي لي.

المدخل يتفقد الزبائن الجالسين على الطاولات المستديرة ذات الشراشف القطنية البيضاء الراقية، حتى وقع نظره على من أتى خصوصًا من أجلهما.

ابتسم ابتسامة تحمل نصرًا، يشوبه الكثير من الخبث، ثم سار إلى كواليس المسرح، وصولًا لممر تتبعثر فيه الغرف يمينًا ويسارًا.

وقف عند الغرفة المنشودة، ونقر بابها بخفة حتى أتاه صوت ساكنها يقول بمرح:

- تفضل عزيزي الطارق.

دخل الغرفة التي فاحت منها رائحة النبيذ الأحمر، مختلطة بالدخان المنبعث من غليون صديق طفولته إبراهيم سمعان.

كان رجلًا قصيرًا، صاحب صلعة لامعة، ووجنتين حمراوين، وعينين زرقاوين كالياقوت.

التفت نحو حسين بابتسامة مُرحِّبة، وقال وهو يزرر قميصه الأبيض الذي برزت منه كرشه السمينة:

- سيادة الضابط حسين الألفي بشحمه ولحمه في غرفتي، يا سعدي يا هنائي!

- ما زلت تعشق السخرية كعينيك، يا إبراهيم.

- وما زلت تُصر على ألا تزورني أكثر من مرة في السنة يا بابا نويل.

تعانق الصديقان وتبادلا التحية والسؤال عن الحال والزوجة والأولاد، حتى جذب إبراهيم مقعدًا لحسين.

جلسا، فأخرج حسين علبة سجائر «فلترا» أحمر، أشعل واحدة بالثقاب، بينما فتح صديقه زجاجة النبيذ، وقال:

- هذه الزيارة تستحق كأسَي «Sauvignon».
- إحسان لن تسمح لي بالدخول إلى البيت؛ إذا اشتمَّت مني رائحة الخمور مجددًا.
- هل أتت معك؟
- كلا، في الواقع لست هنا لأمضي السهرة. أريد خدمة منك.
- لك ما تريد يا صديقي، كيف لي أن أساعدك؟
- أما زلت تمارس خدع التنويم المغناطيسي؟

* * *

اختتمت المطربة الفرنسية الشقراء فقرة الچاز بأغنية لفرانك سيناترا، ثم حيت الجمهور هي وفرقتها، ونزلت عن المسرح لتنضم إلى طاولة أحد عشاقها.

حين ساد الصمت، ظهر صوت الزبائن باختلاط لهجاتهم واختلاف لكناتهم، كما يليق بمطعم راقٍ يتوسط القاهرة المتروبولية بحق.

ظل حديث الزبائن وضحكاتهم، وأصوات الشِّوَك والسكاكين، ورنة كؤوس الخمر وهي ترتطم ببعضها في نخب أصحابها، تسيطر على أجواء المطعم، حتى علت أضواء المسرح بغتة، فالتفت إليه الجميع.

اعتلى المسرح مقدم الفقرات بالتوكسيدو السوداء، تخلفه خلفية كبيرة لخطوط مستديرة بالأسود والأبيض تؤذي النظر، يقابلها كرسي قطيفة فخم يشبه عروش الملوك.

أمسك الميكروفون المستدير وصاح بأداء مسرحي لافت:

- سيداتي، آنساتي، سادتي. أتمنى أن تكونوا قد استمتعتم ببروجرام سهرة الليلة، وبصوت العصفورة الفرنسية الآنسة سيلين لاشيز.

صفق المقدم النحيف الأسمر، فقلده الزبائن بفتور لم يمنع المطربة الحسناء أن تقف عند طاولتها وتنحني لجمهورها بحماس.

انتهى التصفيق، فعادت سيلين للجلوس والمقدم يقول:

- والآن، يسرنا أن نقدم لكم فقرة مذهلة ينفرد بها مطعم اللوتس، مزيجًا من السِّحر والعلم والتشويق والغموض، فقرة التنويم المغناطيسي، مع مسيو إبراهيم سمعان.

فرد ذراعه صوب الخلفية الثابتة خلفه، فانفتحت رأسيًّا، وخرج منها إبراهيم بكامل حلته.

صفق الجميع بحرارة، فيما عدا زوجين يافعين يجلسان على طاولة تبعد عن خشبة المسرح وضجيجه.

كانا منشغلين بشيئين لا ثالث لهما: ارتشاف الشمبانيا، وتبادل نظرات العشق والهيام.

كانت الزوجة الشابة السمراء، ذات الشعر البني القصير، والعينين العسليتين، والأهداب الطويلة الكثيفة، منغمسة في تأمُّل ملامح زوجها الأشقر، ذي العينين الخضراوين، وهو يسكب لها المزيد من الشمبانيا، ويقطع لها اللحم إلى لقيمات ويطعمها إياها، يراقبها تأكل برقة، فيمدح حُسنها، ويثني على أناقة ثوبها الذهبي، وهو يمسك يدها أو يربت على كتفها، أو يختلس منها قُبلة كلما خفتت مصابيح المسرح بين الفقرة والأخرى، وكأنهما مراهقان.

كانت تعيش أعذب لحظات عمرها، مع مَن لم تقدر على أن تحب غيره منذ كانت صَبية بضفيرتين، حتى لفتت كلمات إبراهيم سمعان انتباهها:

- كم صوتًا يصرخ في رأسك؟

توقفت عن الأكل، وراقبته ينزل عن درجات المسرح، فيسير بين الطاولات وهو يجر سلك الميكروفون خلفه، ويكمل بالأداء الرزين ذاته:

- تلك الأصوات التي تحادثك ليلًا ونهارًا، تلك الأصوات التي تؤرق نومك وترهق يومك، متى كانت آخر مرة تمكنت فيها من إخراس تلك الأصوات المزعجة، وشعرت بالصفاء والسكينة؟ متى كانت آخر مرة شعرت فيها بأنه لا صوت يعلو على صوت نفسك الحقيقية؟

شُدِهَت مما يقوله، التفتت بجسدها كله وقد تعلقت عيناها به وحده، وأخذت تنصت لكل حرف يقوله، وإذ به يلتفت صوبها ويقول كأنه يحادثها:

- نفسك الحقيقية التي عذبَتها الحياة، ووأدها السعي وراء النجاح والشهرة والشهوة والحب.

وقف حسين خلف الكواليس يتابع الزوجة السمراء الشابة، وقد نجح إبراهيم في لفت جَم انتباهها إليه.

شق إبراهيم طريقه بسلاسة وهدوء نحو طاولتها وزوجها، مستأنفًا خطابه الذي جعل الحضور يؤْثِرون الاستماع إليه، عن الثرثرة مع بعضهم.

- التنويم المغناطيسي بريء من كل اتهامات السحر والدجل التي تُنسب إليه، إنه علاج وراحة، إجازة من الضجيج الذي ينغص علينا حياتنا.

وقف إبراهيم عند رأس طاولتها، ومد يده صوبها بابتسامة ساحرة، وهو يقول:

- مدام، أتسمحين أن تكوني شريكتي في هذه الرحلة؟

بقيت الزوجة في مكانها، تُحدق إلى إبراهيم في صمت، فقال زوجها بالنيابة عنها:

- أشكرك، نحن هنا لتناول العشاء فحسب.

لم يتقبل الرفض، بقي إبراهيم في مكانه يخترق روح الزوجة بنظراته الهادئة وابتسامته الساحرة، حتى ازدردت ريقها والتفتت لزوجها قائلة:

- دعني أجرب يا سليم، قد تكون تجربة ظريفة.

ابتسم سليم بحنان وربت على ظهرها قائلًا:

- لكِ ما تريدينه يا كيكي.

اتسعت ابتسامة إبراهيم وهو يسألها في الميكروفون:

- ما اسم سيدتي؟

- شويكار.

التفت إلى الجمهور وقال:

- تحية كبيرة لمدام شويكار.

صفق الحضور، وسار إبراهيم ممسكًا بيدها ليقودها صوب الكرسي الفخم الذي يتوسط المسرح.

شعرت بالتوتر، وودت أن تتراجع وتنزل عن المسرح، لماذا وافقت من الأساس على أن تنضم لهذا الغريب، وهي تعرف أنها تعاني من الرهاب الاجتماعي، وتكره التجمعات، وتمقت أن تُسلَّط عليها الأضواء، كيف وافقت على أن تصعد المسرح وتوجه إليها أنظار كل الحضور؟! إن الجميع يحدق صوبها الآن!

صعد دخان القلق إلى رأسها، وتكاثف ليخنقها بجُمل كراهية الذات وتحقير الشأن، حتى التقت عيناها بعينَي سليم.

كان جالسًا في مكانه، يسند ذقنه الدقيق برسغه، ويتأملها بابتسامة محبة، ويدفع إليها قبلة في الهواء، شعرت بها تسبح بين الجمهور لترسو على خدها وتثلج صدرها.

شهيق، زفير.

هدأت شويكار، وظلت تنظر إلى زوجها دونًا عن الجميع؛ حتى لا يتمكن منها القلق مرة أخرى، إلى أن وقف إبراهيم أمامها، فقطع التواصل بينها وبين سليم.

أرخى قبضته، فتدلت منها سلسلة تنتهي بساعة ذهبية مستديرة، وقال:

- أريدكِ أن تغمضي عينيكِ، وتفكري في أكثر مكان ترتاحين فيه.

أخذت نفسًا عميقًا وأغمضت عينيها، باحثة عن المكان الوحيد الذي شعرت فيه يومًا بالسكينة.

رأت نفسها جالسة في قاعة مظلمة، على كرسي أحمر مبطن بجوار سليم في سن المراهقة، حين اعتاد التظاهر بأنه يتمطى، ثم يفرد ذراعه ويضعها خلسة على كتفها، فتبتسم بخجل.

تدور ماكينة العرض، وتلقي شعاعها الساحر على الشاشة الكبيرة بالقاعة المظلمة، فتسمع شويكار تلك الموسيقى السينمائية الهادئة، وتعتدل في جلستها، وتلقي برأسها على كتف سليم مع بداية الفيلم.

- افتحي عينيكِ على مهل!

اخترق صوت إبراهيم ذلك المشهد الحميمي، ففتحت عينيها بتروٍّ ورأت الساعة بعقاربها متدلية أمامها.

- عينيكِ على الساعة!

حركت مقلتيها مع الساعة التي تأرجحت بروية يمينًا ويسارًا.

- لا تنصتي لغير صوتي.

تأرجحت عيناها يمينًا ويسارًا، تحولت عقارب الساعة إلى ثعابين تتلوى وتصدر فحيحًا.

- صفِّي عقلكِ!

تأرجحت عيناها يمينًا ويسارًا، تلونت الثعابين بالأسود، والتحم فمها بذيلها فصارت دوائر بيضاء وسوداء سريالية.

اتسعت حدقتاها، واختفت الوجوه والموجودات من حولها، صمتت الأصوات، وكأن ما في الكون غيرها وصوت إبراهيم.

- نامي!

سقط رأسها على صدرها، وأغلقت عينيها، وخفتت أنفاسها.

همس إبراهيم للجماهير:

- سيداتي وسادتي، أسألكم الهدوء التام.

ساد الصمت، وهيمن الترقب على القاعة، وحسين الألفي يتابع ما يدور عن كثب من خلف الستار.

همس إبراهيم لشويكار يسألها:

- مدام شويكار، أتسمعينني؟

أجابته من دون أن تفتح عينيها أو تحرك عضلة:

- نعم.

- هلَّا أخبرتِنا باسمكِ بالكامل؟

- شويكار جلال عبد الحي.

- مَن أحب الناس إلى قلبكِ يا مدام شويكار؟

- زوجي، سليم.

ابتسم سليم راضيًا، فنظر إبراهيم صوبه باسمًا، ثم تابع أسئلته:

- ومن أبغضهم؟

- أمي.

لاحظ سليم أن البعض علق همسًا على فظاظة إجابة زوجته، فانزعج وتأهب في جلسته.

- ألديكِ أي سر تريدين أن تشاركينا إياه الليلة يا مدام شويكار؟

- أنا حامل.

تقبَّل سليم الخبر بملامح مضطربة، فلم يخفِ اختلاج قسماته عن حسين، الذي أدرك أن ساعة الصفر تقترب.

قال إبراهيم:

- لا أقصد هذا السر، أخبريني عن سركِ الآخر.

- ولكني وعدتهن أنه سيظل سرًّا بيننا.

- من هن؟

- نساء المصبغة.

انتفض سليم من مقعده وهو يصيح في إبراهيم بحدة:

- يا أنت، توقف!

التفت إبراهيم نحو الستار، حيث يختبئ حسين، هزَّ له حسين رأسه ليستأنف ويتجاهل سليم، الذي ترك المائدة وسار يقطع الطريق صوب المسرح.

مالَ إبراهيم على شويكار وهمس في أذنها:

- اعترفي بجريمتكِ الآن!

- لقد قتلتُ أحد عشر شخصًا!

تجمد سليم في مكانه بمجرد أن نطقت شويكار بتلك الجملة.

شهق الزبائن ووضعوا أيديهم على أفواههم من الصدمة، بينما صفق حسين لصديقه وكأنه سجل الهدف الأهم في حياته.

من دون أن تفتح عينيها أو ترفع رأسها، قالت بسرعة هستيرية:

- دفنت صبري في المطبخ.

استفاق سليم من جموده، ركض صوب المسرح بين الطاولات التي ارتبك أصحابها، ولم يعودوا يفهمون إن كان هذا تمثيلًا وجزءًا من الفقرة، أم أنهم حقًّا يشهدون على اعتراف سفاحة دموية بجرائمها.

- بنيت فوقه حوضًا من الزهور الوردية.

خرج حسين من بين الستائر معترضًا طريق سليم قبل أن يصعد إلى المسرح، وقال:

- انتهى الأمر يا دكتور.

دفعه سليم بعنف، واخترق المسرح، ثم جثا على ركبتيه ممسكًا بكتفَي زوجته، وأخذ يهزها صائحًا:

- شويكار، استيقظي، توقفي عن الكلام!

اندفعت الكلمات من بين شفتيها المخدرتين:

- ثمانية رجال وامرأتان.. أذبتهم، أغرقتهم، دفنتهم في الصحراء، طهوتهم، أطعمتهم للخنازير.

وضع إبراهيم يده على كتف سليم وقال:

- سيدي، لا يجوز أن...

قاطعه سليم بلكمة ملاكم محترف أسقطت السمين أرضًا.

عاد إلى زوجته التي ظلت تهلوس من دون أن تستجيب لندائه، فما كان منه سوى أن يصفعها حتى تخرج من حالة التنويم العميق تلك.

انتفضت وفتحت عينيها على الفور، وأخذت تتأمل المشهد حولها.

الضابط حسين يقف أمام المسرح بنظرة ظافرة خبيثة، الزبائن يحدقون إليها برعب، إبراهيم ملقى على الأرض ينزف من أنفه، أفراد الأمن يقتحمون الصالة، وسليم يحدق إليها ذعرًا وقد برز العِرق الذي يتوسط جبينه البض المتعرق.

سألته بنبرة رقيقة ناعمة، وعينين مرتبكتين:

- ماذا حدث، أكانت فقرة بشعة؟

٢

Strangers In The Night(*)

اختار سليم أسطوانة عشوائية لفرانك سيناترا، وتركها تدور في الجرامافون بصوت عالٍ؛ حتى لا يسمع الجيران أو أي شخص يمر في الشارع ما هو على وشك أن يناقشه مع شويكار، التي تجلس على سريرهما.

سمعت صوت فرانك سيناترا وهو يغني أغنية «غرباء في الليل»، كانت بحَّته لديها قدرة سحرية على تهدئة توترها دائمًا، ولكن رؤيتها لسليم الآن وهو يمسك رأسه بهلع ويذرع الغرفة جيئة وذهابًا، أوصلت قلقها إلى ذروته:

- لا أدري كيف قلتُ هذا على المسرح، و...
- لا يهم كيف قلتِه يا كيكي، المهم لماذا قلتِه، أي قصة عجيبة تلك التي رويتِها؟
- آسفة.

(*) «غرباء في الليل»: أغنية جاز لفرانك سيناترا.

دفست وجهها بين كفيها وراحت تبكي، فزفر سليم وجثا على ركبتيه أمامها وهو يسألها بقلق أندى جبينه:

- هل ما قلتِه حقيقي؟

- توقف يا سليم!

- أحقًّا قتلتِ صبري؟

تأملتْ ورق الحائط ذا الورود الملونة والسقف المزخرف، ثم الأرضية ذات السجاد الفستقي، بنظرات تائهة إلى أن نظرت إلى زاوية فارغة من دون أن تجيبه.

أمسك يديها وقال:

- أنتِ مظلومة، وهذا الضابط الفاشل يود تلفيق التهمة لكِ؛ لأنه عجز عن حل القضية، أليس كذلك؟ لستِ متورطة في هذه الجريمة!

- توقف!

- فقط أخبريني الحقيقة يا شويكار، لن أتخلى عنكِ مهما كان الوضع.

- قلت لك توقف!

صمت أمام صياحها الحاد، وأخذ يراقبها وهي تغمض عينيها وتضغط على رأسها بألم شديد.

أحاط وجهها بكفيه يتحسس ملامحها البريئة ويقول:

- لن أتحمل خسارتكِ مرة أخرى يا كيكي.

فتحت عينيها، فهربت منها دموعها مجددًا، وقالت بصوت ضعيف يرتعش:

- أنا حامل، كنت أود أن أفاجئك بهذا الخبر في آخر السهرة، ولكن انظر ماذا حدث!

وضع كفه على بطنها بحنان، ولكنها أمسكت يده بعنف جعل أظفارها تخدش كفه، وقالت بصوت غليظ:

- هذا العالم ظالم، ظالم، ظالم، ظالم!

حاول أن يسحب يده من كفها وأظفارها، ولكنها أحكمت قبضتها وظلت تكرر بالطريقة الهستيرية نفسها كلمة ظالم!

حرر يده عنوة، ونهض مبتعدًا إلى الزاوية يراقب تحولاتها واضطرابها، حتى أمسكت عن الكلام وأخذت نفسًا عميقًا.

مسحت دموعها، ثم ابتسمت ابتسامة عذبة لا تليق بانهيارها العصبي، الذي قررت أن تنهيه فجأة كما بدأته فجأة وقالت:

- افتح الباب!

رنّ جرس الباب بغتة فزادت ريبته.

خرج ليفتح الباب الخشبي المُطعَّم بفيرفورجيه داكن، وإذا بالضابط حسين وعسكريين آخرَين على عتبة بيته.

قال بابتسامة باردة دائمًا أثارت حفيظة سليم:

- مساء الخير يا دكتور، نَادِ لنا على مدام شويكار إذا تكرمت، معنا أمر بالقبض عليها.

- أتحسب أن فقرة الدجل التي نفذتها الليلة، سيؤخذ بها في النيابة؟

- ما صار في المطعم لن يؤخذ به، ولكن لا شك أنهم سيأخذون بالجثة.

خفق قلب سليم، ولكنه حاول التمسك بزمام تعبيراته، فسأل حسين وهو يدفن خوفه في أعماقه:

- عن أي جثة تتحدث؟

- عن جثة صبري التي وجدناها في حوض زرع مطبخ زوجتك الرقيقة، المدام لم تكن تبالغ، لقد غرست حقًّا بذور زهور وردية في رأسه.

- أنت لا تدري عمَّ تتحدث، زوجتي لم...!

- لم تحول رأس طليقها إلى قصرية زرع؟

تمكن منه الفزع، فاقترب من حسين وقال والعرق يسري من رأسه وحتى أسفل عموده الفقري:

- مستحيل، هناك خطأ، لم تكن في وعيها! شويكار تعاني من عدة اضطرابات عقلية، لقد خرجت من المصحة منذ شهرين فقط، يمكنك أن تسأل الطبيب وجدي عبد الغفار، فإنه يتابع حالتها منذ المراهقة.

- لا شك أنها مختلة، أهناك شخص سوي يقتل أحد عشر إنسانًا في عامين، من دون حتى أن يخلف جثثهم وراءه؟

- شويكار ليست سفاحة، أعرفها كما أعرف نفسي يا باشا، و...

- لقد أُلغيت الباشوية منذ زمن يا دكتور، ستنادي المدام أم نعتقلها نحن بطريقتنا؟

حدجه سليم بنظرة يملأها المقت والمرارة، ولكنه استسلم، وعاد إلى الداخل تاركًا الباب مفتوحًا أمام حسين.

دخل إلى الغرفة فوجدها تعيد الأسطوانة حتى تنصت إلى الأغنية مرة أخرى من بدايتها.

وقفت بجوار الجرامافون بالابتسامة الهادئة ذاتها، التي لا تليق بالمأزق الذي أسقطت نفسها فيه.

أخرج منديله القماشي من جيب سترته الكحلية الأنيقة، وقال وهو يمسح عرق جبينه:

- حسين وجد جثة صبري.

هزت رأسها بهدوء واستندت إلى الطاولة بجوار الجرامافون، وهي تصفر على إيقاع الأغنية الرومانسية.

رفع إبرة الجرامافون حتى تنتبه إليه، وجذبها من ذراعها وضغط على كتفيها لتستفيق، ثم قال بهمس غاضب:

- قتلتِ صبري؟

رفعت كتفيها بلامبالاة، وهي تقول بنبرة مرحة:

- ربما فعلتها شوشو، القتل ليس تخصصي.

- ماذا عن الأحد عشر شخصًا الذين ذكرتِهم؟ هل سأفاجأ بأن تجدهم الشرطة هم أيضًا في بيتكِ؟

هزها بقسوة، فقالت بنبرة مدللة:

- أنت تؤلمني يا سليم.

ترك كتفيها، فبقيت في مكانها تراقب قلقه وتوتره وضيقه، وهو يعض على شفتيه، حتى سألها:

- أين باقي الجثث؟

- لِمَ يصعب عليك تصديق أنني لا أذكر أي شيء، تعلم حالي،

أفقد الوعي، تتولى إحداهن القيادة، ثم أفيق مرة أخرى من دون أن أدري ماذا فعلن في غيابي، لا يأخذن برأيي كثيرًا، يتركنني وحيدة مع الموسيقى والروايات في زاويتي المظلمة.

- إذن فهناك احتمالية أنكِ حقًّا متورطة في هذه المصيبة؟

- ربما.

اقتربت منه بدلال وأحاطت عنقه بذراعيها، ثم سألته:

- وإن كنتُ قاتلة، هل ستتخلى عن كيكي حبيبتك؟

لم يكن يبالغ، هو يعرف شويكار كما يعرف كفه، ويعلم أن التي تحادثه الآن بهذه النبرة الحالمة الرومانسية ليست زوجته.

تلك التي تعانقه وتقبله بشاعرية لا تناسب الكارثة التي أصابت زواجهما، ليست شويكار الرقيقة الحنونة المصابة بالرهاب الاجتماعي.

هرب من شفتيها الكرزيتين، وسألها بغضب لم تتمكن من إطفائه بقبلاتها:

- قتلتِهم؟

زاغت عيناها للحظة، ثم نظرت إليه بابتسامة مختلفة وسألته:

- ماذا كان سؤالك؟

- قتلتِهم؟

اقتربت منه حتى لامس أنفه الدقيق عنقها الناعم الذي تفوح منه رائحة الفانيلا، وهمست في أذنه بثقة:

- كلهم!

تركته وأخذت تدندن كلمات سيناترا في طريقها إلى المرحاض الملحق بالغرفة.

وقف مضطربًا يحاول استيعاب أبعاد المصيبة التي حلت عليهما، وإيجاد طريقة لإخراجهما منها.

بقي في مكانه يفكر حتى سمع صوت حسين في الخارج يستعجله، فاتجه إلى المرحاض، لأن بقاء شويكار في الداخل طال.

فتح الباب، فوجدها جالسة على طرف المغطس، يدها اليسرى متدلية بجوارها، بمعصم مجروح جرحًا غليظًا ينزف بغزارة، ملطخًا بلاط الحمام الأبيض البارد، وبيدها اليمنى موسى حلاقة زوجها الذي حاولت الانتحار به.

رفعت رأسها تنظر إليه، وقد خلعت قناع البرود والعهر، وعادت إلى طبيعتها القلقة المضطربة، وقالت لسليم:

- سأخرجك من المأزق الذي أسقطتك فيه.

٣

Someday You'll Be Sorry(*)

نفث سليم دخان سيجارته البلمونت بتوتر وهو يحدق بامتعاض إلى صورة عبد الناصر، المعلقة فوق رأس الضابط حسين الألفي.

أطفأ سيجارته بالمرمدة، وحسين ينتظر الكاتب الذي يجاوره ليحضر قلمه ومحبرته ودفتره، ليبدأ تسجيل المحضر كتابة.

قال سليم وهو يشعل سيجارة أخرى؛ عسى أن يحجم النيكوتين ذعره:

- أنت لا تملك دليلًا واحدًا ضد زوجتي.

- وجدنا الجثة في...

- هذا لا يعني أنها القاتلة.

- لماذا حاولت الانتحار إذن؟ أليس هذا في حد ذاته دليلًا ضدها؟

- قلت لك إنها تعاني من اضطرابات نفسية وعقلية، تحاول الانتحار كلما تعرضت للظلم، كما فعلت أنت ورجالك وصاحبك الخرتيت المخادع هذا!

(*) «يومًا ما ستأسفين»: أغنية جاز للفنان لويس أرمسترونج.

ابتسم لسليم ابتسامة سمجة مستفزة، ثم مد يده صوبه وقال:

- الدفتر، إذا تكرمت.

زفر سليم وأخرج من جيبه دفترًا صغيرًا، ألقى به في ازدراء على مكتب حسين، فقام بفتحه وتقليب صفحاته، ثم رنّ الجرس.

حضر العسكري، ناوله حسين الدفتر قائلًا:

- أرسله إلى خبير الخطوط.

أعطاه التحية وأخذ منه الدفتر وخرج.

شبك حسين أصابعه، وأسند مرفقيه على المكتب بعدما أشار إلى الكاتب أن يفتتح التحقيق، ثم التفت إلى سليم قائلًا:

- كنت صديقًا مقربًا من صبري، أليس كذلك؟

- لم يكن أكثر من زميل لي في تمارين الملاكمة.

- كيف تعرَّف على المدام؟

- لا فكرة لديَّ.

- لم تسألها؟ لم يُثر فضولك أنها تزوجت من صديقك المقرب قبلك؟

- لم يكن صديقي!

- حسنًا، متى أخبرَتك أنها قتلت طليقها، قبل زواجكما أم بعده؟

* * *

ديسمبر، ١٩٦١

كان يسمع كثيرًا عن لويس أرمسترونج، ولكن أولى الأغنيات التي

سمعها له كان اسمها «يومًا ما ستأسفين»، حين حضر له حفلًا بمسرح قصر النيل، وبمجرد أن أنصت إلى كلماتها، صارت أغنيته المفضلة.

وفي هذه الليلة الشتوية المطيرة، كان يقف قبالة مدفأة فيلَّته البرتقالية الفسيحة بالمعادي، المكونة من طابقين وعلية وقبو، كما كان يحلم دائمًا أن يكون تصميم بيته بحديقة تحيط بالبيت كله.

كان وحيدًا في بيت أحلامه الكبير، يسند رأسه إلى النافذة ويراقب خطوط المطر ترتعش على الزجاج البارد، ويكرر كلمات الأغنية بالإنجليزية:

يومًا ما ستأسفين

الطريقة التي عاملتِني بها كانت سيئة

أنا مَن علمكِ كل ما تعرفينه

ظل يكرر الكلمات ويراقب ضوء الفجر يجاهد ليبسط ضيَّه حتى رآها بثوبها الأحمر الأنيق، تركض تحت المطر صوب بيته.

ذهِلَ من هذا المشهد غير المتوقع، ولكنه لم يقف مكانه كثيرًا، أسرع ليفتح بابه فوجدها واقفة على عتبته، مبتلة كمن خرجت من الحمام بعد استحمام طويل، فزادها المطر سحرًا وتوهجًا.

دخلت البيت بجرأة من دون استئذان أو دعوة، ثم دفعت الباب خلفها وأسندت ظهرها إليه وهي تلهث بقوة، وكأنها نقلت الهرم الأكبر على كتفيها.

كان لديه مائة سؤال: لماذا أتت ركضًا إلى بيته في هذه الساعة؟ لماذا تلهث بهذه القوة؟ من أين أتت؟ ولماذا تبتسم له هكذا؟ لماذا

تنظر إليه بتلك الجرأة التي لم يعتدها منها؟ ولماذا تشب على أصابعها الآن حتى تطوله وتقبله؟

لم يسألها سؤالًا واحدًا، استسلم إلى شوقه إليها وبادلها القبلات، وتركها تدفعه بعنفوان صوب الحائط، وكادت أصابعها أن تتسلل نحو أزرار منامته، ولكنه جذب يديها الباردتين، وإذ بخنصره يلمس تلك الدبلة الذهبية في يدها اليسرى.

استفاق من تعويذة العشق التي ألقتها عليه ودفعها عنه.

نظرت إليه تستنكر رفضه لها، فحاولت أن تعانقه وتسحره مرة أخرى، ولكنه صدها بإصرار وقال:

- عودي إلى زوجكِ!

نظرت إلى خاتم الزواج الذي يقبض على بنصر يدها اليسرى.

- أهذا ما يعكر صفوك؟

حررت إصبعها من الخاتم، وألقته صوب المدفأة لتلتهمه النيران على مهل.

- وما معنى ذلك؟

- معنى ذلك أنني صرتُ ملكك وحدك.

فتحت سحابها كعاهرة متمرسة، وأسقطت ثوبها على الأرض لتكشف لسليم عن قوامها الممشوق الممتلئ بالكدمات، وسارت صوبه بغنج تعاود تقبيله، مدمِّرة حصونه الدفاعية بتكتيك استراتيجي عجز عن مقاومته.

استلقيا على سريره تحت الغطاء الدافئ، أشعل سليم سيجارة نفث دخانها محدقًا إلى السقف يتدبر خطيئته.

لم يكن شهواني الطبع، إن رُصت أمامه نساء العالم ما وقع في شباكهن وخاطر بسمعته كجراح محترم دمث الخلق.

ولكنها شويكار، كيكي الحبيبة! كيف ينفر من لمستها، أو يرفض قبلتها، أو يبتعد بنظره عن مفاتنها، وهي بالنسبة له التعريف الوحيد للنساء وللحب وللشهوة وللعشق؟!

نفث دخانه وقال:

- وماذا الآن؟ سأصير عشيقكِ الذي تخونين زوجكِ معه؟

ضحكت ضحكة رنانة، لم يسمعها منها من قبل، ثم قالت وهي تتمطى وتتثاءب:

- أنا لم أخن زوجي.

- ماذا تُسمين ما فعلناه للتو؟

- زنا وليس خيانة.

أخمد سيجارته في المرمدة المجاورة لطاولة فراشه، ثم التفت إليها يصيح فيها:

- منذ متى وأنتِ بهذا العهر يا شويكار؟

- منذ أن قتلت صبري؛ لذلك أخبرك أن ما فعلناه ليس خيانة له.

تثاءبت مرة أخرى، ووضعت رأسها على صدر سليم الرياضي، وأخذت تتمتم بصوت ناعس:

- المطبخ كان في حاجة إلى حوض زرع مبهج، فزرعت في رأسه الزهور، أكنت تعرف أن الجثث تزيد خصوبة التربة؟

دفع رأسها عن صدره وقال بحدة:

- أتستهزئين بي، أم أن روايات أجاثا كريستي أفقدتكِ عقلكِ؟

ضحكت ضحكة ناعسةً، ثم دفست رأسها بين الوسائد وقالت:

- أنت على حق، أجاثا كريستي أفقدتني عقلي.

أخذت ضحكاتها الرنانة الخليعة تخفت حتى غفت وسقطت فجأة في بؤرة نوم عميق.

استعجب نومها المباغت. ناداها فلم تجبه، هزها وكرر المناداة حتى فتحت عينيها واستيقظت:

- سليم؟

نظرت حولها في ذهول حتى اكتشفت فعلتهما، فانتفضت من الفراش كمن لدغتها حية، وقد راح عنها عهرها وفُجرها، وهي تلف نفسها بالملاءة وتقول:

- كيف سولت لك نفسك أن تفعل هذا؟!

نهض من الفراش وهو يحدق إليها بذهول، لا يدري إن كان هذا مقلبًا، أم أنها أغرته إلى الفراش تحت تأثير الخمر؛ لهذا لا تذكر شيئًا، ولكن أيزول مفعول الكحوليات في بضع دقائق؟

أخذت تتلفت حولها، تنتشل ثيابها والعار ينهشها وهي تبكي بحرقة، فقال سليم وهي ترتدي ثوبها على عجَل:

- لقد حاولت منعكِ، كانت فكرتكِ، أنتِ...

- أنا لا أذكر شيئًا.

وقفت تبكي بضعف وتيه، وتقول بصوت مرهق:

- لا أدري ماذا يحدث، لا أذكر كيف وصلتُ إلى هنا، كيف تركتُ البيت، لا أذكر، لستُ في وعيي.

- ماذا تقصدين بأنكِ لستِ في وعيكِ؟

لم تجبه، مسحت دموعها وانتشلت حذاءها من على الأرض واتجهت إلى باب الغرفة، ولكنه أمسك برسغها ليستوقفها، فدفعته باشمئزاز وهي تقول:

- إياك أن تلمسني، لقد انتهى الأمر، فلتنسَ اسمي وعنواني وكل ذكرى بيننا، لو صبري علم بما جرى، فسيدفننا أحياءً.

- ألم تقولي إنكِ قتلتِه؟

حدقت إلى الفراغ تفكر في تلك الجملة وكأنها تستعيد شريط حياتها كله، إلى أن قالت بحدة وهي ترفع سبابتها وتهدده:

- لا تحاول التواصل معي مجددًا.

فتحت الباب وخرجت لتترك سليم يتخبط بين شطَّي فكره.

* * *

قال سليم للضابط في ثقة مطلقة:

- لم تخبرني أنها قتلته؛ لأنها ببساطة لم تقتله.

تأفف حسين وأخذ يبحث عن شيء بأحد الملفات أمامه، حتى وجد ضالته وناولها لسليم.

كانت صورة فوتوغرافية للوحة، بها ثلاث عشرة سيدة، وجوههن بائسة ونظراتهن غاضبة، وأفواههن خِيطت كما يُخيط فم الميت بالمشرحة، وبأعينهن شعلة نيران متقدة، وهن يقفن متجاورات بأثواب بالية فوقها مرايل متسخة بالشحم، وخلفهن حائط عليه ثلاثة عشر بورتريهًا لوجوه أشخاص؛ عشرة رجال وامرأتان، والبورتريه الأخير خالٍ، مجرد مربع أبيض.

تأمل سليم الصورة، ثم قال لحسين بفتور:

- لا أفهم.
- دقِّق النظر في البورتريهات الثلاثة عشر خلف السيدات.

ركَّز فرأى وجه صبري عليه علامة إكس حمراء كبيرة، مثله مثل باقي البورتريهات، فيما عدا البورتريه الثاني عشر.

أخذ رشفة من كوب الماء الذي قدمه له الفرَّاش مع القهوة منذ أن دخل المكتب، ثم ازدرد ريقه، فوجد حسين انتصاره في جزء سليم.

- إنها صورة لوحة زيتية وجدناها معلقة في المطبخ فوق حوض الزرع، الذي دُفن فيه صبري. وجوه الأحد عشر شخصًا هؤلاء هي وجوه لأشخاص حقيقيين وليسوا من وحي رسام اللوحة. هؤلاء الأحد عشر مفقودون، لا أحد حي يرزق منهم سوى الوجه الثاني عشر.
- ممتاز، راقبوا صاحب هذا الوجه الحي لتتمكنوا من العثور على السفاح الحقيقي.
- أحييك على طريقة تهربك من السؤال.
- أنت لم تطرح عليَّ أي أسئلة.
- أليس واضحًا أنني أريدك أن تخبرني بكل ما تعرفه عن هذه اللوحة؟
- لا أعرف شيئًا عنها، أنت لم تجدها في بيتي أنا.
- ولكنك عشت في هذا البيت في بداية زواجكما. بالمناسبة، أجد هذا الأمر غريبًا، لماذا وافقت أن تعيش في بيت زوجتك، أقصد بيت طليقها؟!

أخذ سليم نفسًا عميقًا حتى لا يفقد أعصابه ويقبل على تصرف لن تُحمد عقباه، ثم قال:

- شويكار كانت تحب هذا المنزل، ولم أُرد مجادلتها حرصًا مني على حالتها النفسية، فوافقت أن أبقى معها فيه إلى أن طلبت هي بنفسها أن نهجره ونقيم في فيلَّتي بالمعادي.
- حسنًا، عودة إلى اللوحة، هل شويكار هي من رسمتها؟
- شويكار لا تجيد الرسم.
- صبري إذن؟
- قلتُ لك إن معرفتي به كانت سطحية.
- هل ذكرتْ لك شويكار أي شيء عن تلك اللوحة؟
- كل ما قالته إنها لوحة عن سيدات انضممن لحزب سري ضد الاحتلال الإنجليزي، واتخذن من مصبغة مهجورة مقرًّا لحزبهن، إحداهن تواطأت مع الإنجليز، فهجموا على المصبغة وحرقوها بمن فيها، وبقيت المصبغة مسكونة بأرواح السيدات المقاومات يطالبن بالقصاص من كل المتورطين في مقتلهن غدرًا.
- وأين تلك المصبغة؟
- قالت لي إنها كانت في المكان نفسه الذي أقيم عليه بيت صبري.
- لوحة مسكونة، هذا تفسيرك؟!
- تفسيرها هي. شويكار تعاني من هلاوس سمعية وبصرية كثيرة، قد تكون قصة اختلقها مرضها لها، تمامًا كما اختلق حكاية أنها قتلت صبري.

- دكتور سليم، هناك أمر يؤرقني منذ أن بدأتُ العمل على هذه القضية.

أشار حسين إلى الكاتب ألا يدون السؤال التالي، ثم قال:

- لماذا تزوجت امرأة مثلها؟ امرأة اختلالها لا يخفى على أحد، تتنقل بين المصحات وتعيش على الأقراص المهدئة، وتورطت ليس في جريمة واحدة، بل في إحدى عشرة، ألا تخاف أن تؤذيك؟

- زوجتي لا تعرف أذى، إنها أكثر النساء حنانًا وطيبة.

- وإن تأكدت من أنها هي القاتلة بالفعل، فهل ستظل تُدافع عنها بتلك الاستماتة؟

- بل سأجعلكم تلفون حبل المشنقة حول رقبتي أنا بدلًا منها، ألديك سؤال آخر يا سيد حسين؟

٤

Substitute(*)

تثاءب العسكري المكلَّف بحماية غرفة شويكار وتسجيل الداخل والخارج منها.

بعد محاولة انتحارها الفاشلة، أُودعت بالمشفى العسكري لتبقى تحت أنظار الشرطة إلى أن تستقر حالتها، ويتمكنوا من استئناف التحقيق معها.

كاد النوم أن يغلب العسكري وهو يقف على عتبة الغرفة الخارجية، ولكنه استنفر حين سمع وقع خطوات تقترب، فانتصب واقفًا يتلفت إلى يمينه حيث الصوت، ليجد الضابط حسين.

أدى له التحية العسكرية، بينما أمره حسين قائلًا:

- لا تسمح لأحد بالدخول.

- تحت أمرك يا سيدي!

(*) «بديلة»: أغنية چاز للمطربة لافيرن بيكر.

طرق الباب، فسمعها تسمح له بالدخول، دخل وأغلق باب الغرفة خلفه.

كانت وحيدة تجلس بثوب السهرة نفسه على فراشها وتستند إلى الحائط، تنظر إلى كف اليد التي ضُمد جرحها، وبيدها الأخرى تعدل خصلات شعرها وهي تدندن كلمات أغنية بدت مألوفة لدى حسين:

لستُ سوى بديلة

بديلة تلاعبك لعبة الحب

جرَّ الكرسي الوحيد بالغرفة من الزاوية، ووضعه بجوار الفراش حتى يلتقي وجهاهما، وبقي جالسًا يتأملها.

كانت جميلة، لا شك في ذلك، ليست في جمال زوجته إحسان طبعًا، ولكن - في نظره - لم تكن تملك من الحُسن والغواية ما يكفي لتعمي زوجها وتخبئ عنه حقيقتها إلى هذه الدرجة.

كيف لرجل أن يعاشر زوجته عامين كاملين من دون أن يلاحظ أنها ارتكبت إحدى عشرة جريمة قتل؟!

الإجابة هي إما أنه شريكها في تلك الجرائم، وإما أنه متزوج من حورية تعرف ألوان الإغراء وأصناف الغواية، حتى تجبره على الوصول لأعلى درجات الهيام، وتقبُّل حقيقة أنه اقترن لآخر العمر بسفاحة.

وضعت يدها أسفل الغطاء الأبيض، والتفتت إليه برقة بعد أن توقفت عن الغناء وابتسمت بدون داعٍ.

كانت ابتسامتها عذبة صافية، لا قلق ولا ارتباك فيها، ابتسامة دافئة لا تليق بمن نجت من الانتحار وصارت على بُعد خطوة من حبل المشنقة، ولهذا ارتبك حسين وأخرج سجائره.

عرض عليها واحدة، فرفضتها قائلة:

- كيكي لا تدخن.

- أهكذا تحافظين على صوتكِ العذب؟

- هل تحب موسيقى الچاز يا حضرة الضابط؟

أشعل سيجارته، ونفث دخانه على مهل خالقًا جوًّا بوليسيًّا دراميًّا وهو يجيبها:

- أفضل الرسم عن الموسيقى.

تحولت ابتسامتها الرقيقة إلى أخرى ماكرة، ثم أنزلت قدميها المطلية أظفارهما بالذهبي عن الفراش، واقتربت من حسين تسحب سيجارته من بين شفتيه من دون اعتراض منه.

أخذ يراقبها، تسحب الدخان، تكتمه للحظات باحترافية، ثم تخرجه من أنفها بمزاج وتقول:

- أنت ماكر يا سُنسُن.

- رفعتِ التكليف بيننا بتلك السرعة؟

- هذا يزعجك؟

رفع كتفيه بلامبالاة وهو يشعل سيجارة أخرى:

- إن كان هذا سيسرع اعترافكِ، فلا مانع لديَّ يا كيكي.

- أنا شوشو.

- حسنًا يا شوشو، أين باقي الجثث؟

ابتسمت ابتسامة باردة أخرى، ولكنه رأى القلق في نظراتها وهي تتأمله بهدوء، كلبؤة تقيِّم نقاط قوة فريستها، قبل أن تصيدها.

نفثت دخانها وقالت بنبرة مرحة مستعارة:

- ألا تملكون مذياعًا في هذا المشفى اللعين يسليني؟

- هل أُزعجكِ؟

- تزعجني محاولاتك الخبيثة للإيقاع بشويكار المسكينة التي لا حول لها ولا قوة.

- لا أظنكِ مسكينة.

- ظنك في محله.

قسمت ظهر السيجارة في المرمدة التي تجاور طاولة الفراش، وعادت للجلوس مرة أخرى، بينما قال حسين:

- نعود إلى الرسم؟

- شويكار تكرهه؛ لأنه كان السبب في ظهوره وظهورهن.

- هن؟ تقصدين سيدات المصبغة؟

- أتؤمن بالأرواح يا سُنسُن؟

- الشيء الوحيد الذي أومن به من دون أن أراه هو الله.

- ولكنني أرى أرواح الموتى.

- هنيئًا لكِ، والآن أود أن...

- أتعرف أن الليمون يجذبهم؟ يحبون مزازته.

- الموتى يحبون الليمون، يا لها من معلومة قيمة ما كنت لأتعلمها من دونكِ!

- ليس الموتى، أرواحهم، الفرق شاسع. يمكنني أن أعلمك

الكثير عن التخاطر والتواصل مع الموتى. كانت لنا جارة فرنسية علمتني التخاطر مع الموتى، كانت تدعو الجلسة «séance». أولًا يجب أن تريد روح الميت نفسها التواصل معك، ثم تحضر ليمونة تشقها إلى نصفين وتلقي التحية على...

- قلتِ هن، عرفنا أنكِ تقصدين سيدات المصبغة، و...
- أرواحهن!
- نعم نعم، أرواحهن. مَن تقصدين بظهوره هو؟
- لا تسألني عنه، اسأل شويكار حين تقابلها، الاسم وحده كفيل بأن يصيبها بنوبة ذعر.

تدبر جملتها العجيبة وراجع حواره معها كله، لم يعد يفهم إن كانت مدللة لدرجة أن لها لقبَي تدليل هما شوشو وكيكي، وهل تتحدث عن نفسها بضمير الغائب مثل يوليوس قيصر، أم أنها تحاول أن تربكه حتى يحيد عن هدفه؟!

قرر أن يحبط خطتها، ويتجاهل كل ما لن ينفعه في تحقيقه، فاستأنف تدخينه متحصنًا بأعلى درجات الثبات الانفعالي ليجاريها وهو يقول:

- ومتى يمكنني أن أقابل شويكار؟
- حين تحل تلك المشكلة التي أوقعت نفسها فيها.
- لِمَ لا تشرحين لي أبعاد تلك المشكلة، عسى أن أقدر على مساعدتها.
- لا تراوغني يا سُنسُن، مصلحتك أن تحبس شويكار ويُغلق ملف القضية.

- مصلحتي أن أجد الحقيقة، لو أردت أن أنتهي من الأمر من دون تحري الدقة ما كنتُ كرستُ عامين للعمل على تلك القضية.

- تريد الحقيقة؟ حسنًا، إليك الحقيقة، أنا...

شعر أنها كانت على وشك أن تلقي قنبلة مدوية في وجهه، ولكنها صمتت فجأة، كأن هناك من أخرسها.

وضعت يدها على فمها وكتمت أنفاسها، وبقيت في مكانها، عيناها تتأرجحان يمنة ويسرة في ذعر، وكأنها ترى شبحًا خفيًّا يدور حولها.

علا صدرها وهبط، ولهثت، رفعت يدها عن فمها وقد راح عنها جبروتها وثقتها.

نهضت عن الفراش وجثت على ركبتيها أمام حسين وهي تبكي وتقول له متوسلة:

- أنقذني!

أبعد دخان سيجارته عنها، ووضع يده على كفيها الباردتين المتعرقتين اللتين بسطتهما على صدره وهي تتوسله.

- ممن؟

- منها ومنه ومنهن، ومن نفسي.

- من تقصدين؟

- يُردن أن أنفذ مهمة أخيرة.

- سيدات المصبغة؟

شهقت وهمست إليه بحدة وذعر:

- لا تتحدث عنهن، سيقتلنك.

- هل يُردنكِ أن تقتلي شخصًا بعينه؟
- لقد أخذتموني من البيت، لم أتمكن من رؤية الوجه الجديد في اللوحة.
- البورتريهات الاثني عشر في خلفية لوحة سيدات المصبغة؟ ألم تري الوجه الثاني عشر؟
- كل وجه يظهر عند أوانه، في المرة الأولى التي ظهرت فيها اللوحة لم يكن بها سوى وجه واحد. أرواحهن تأتي، يرسمن لي الوجه الجديد، وحين يموت، يضعن علامة عليه، ويظهر الوجه الذي يليه.
- اللوحة ترسم نفسها بنفسها؟!
هزت رأسها مؤكدة على المعلومة، ثم قالت:
- لم أكن أعرف هوية الوجه الثاني عشر إلى أن أتيت هنا.
- دعيني أفهم حكايتكِ، أنتِ لا تقتلين إلا إذا أخذتِ الأوامر من هؤلاء السيدات من خلال اللوحة، أليس كذلك؟
- بلى.
- حسنًا، بما أنكِ بعيدة الآن عن اللوحة، فلن تقتلي أي شخص، أليس كذلك؟
- أنا بعيدة عن اللوحة، ولكنهن لسن بعيدات عني.
بسطت كفها اليسرى أمامه، فوجد في راحتها رسمة بقلم حبر أسود لوجه رجل ممتلئ الوجنتين، ضيق العينين، أحدب الأنف، أصلع الرأس.
تصاعدت أنفاسها وارتعشت أوصالها وهي تنظر حولها لزوايا

الغرفة، فرمى نظره إلى كل ما نظرت شويكار إليه، لم يكن هناك ما يدعو للقلق، فيما عدا أنها فجأة جذبته من رابطة عنقه وصاحت فيه:

- اقتلني!
- اهدئي!
- كنت أود أن أُنجب لسليم صبيًّا، ولكنهم لن يتركوني إلا بعد أن أقضي على البشرية جمعاء.
- لا يمكنكِ أن تؤذي أحدًا وأنتِ هنا.
- سيُهربني أنا وكيكي وشوشو، دائمًا ما يساعدنا على الهرب.
- سليم؟
- فريد، هو بداية اللعنة، فقط اقتلني وخلصني، لم أعد أحتمل المزيد من الذنب.

في غمضة عين دفعته بقوة مباغتة فسقط بالمقعد على ظهره، وقبل أن يحاول النهوض، كانت قد سحبت مرمدة السجائر من على الكومود ونزلت بها على رأسه، ففتحت حاجبه وسال دمه على عينه.

ضغط على جرحه، فاستغلت شويكار انشغاله بذلك وحاولت أن تسحب مسدسه الميري من جرابه.

انتبه لمحاولتها، فقبض على يدها ومنعها من ذلك، ولكنها كانت أشرس وأقوى مما توقع، ضربته مرة أخرى بالمرمدة وهي تصر على سرقة السلاح وتصرخ فيه:

- تريد الحقيقة؟ الحقيقة أننا لن نتوقف عن القتل، ولن نتوقف عن الفشل في الإمساك بنا طالما هما معنا.

دخل العسكري متأهبًا ببندقيته على إثر صوت الهرج الذي سمعه بالغرفة.

كانت شويكار سريعة سرعة خارقة، ألقت المرمدة صوب العسكري فأصابت عينه، ثم نهضت عن حسين وجذبت البندقية بخفة من العسكري المشغول بإصابته.

وجهت الفوهة إلى قلبها وهمَّت أن تضغط الزناد، ولكن حسين نهض في الوقت المناسب وحاول أن يشد مشط البندقية منها، ولكنه تأخر حيث كانت إصبعها على الزناد.

تأخر عن منعها من الضغط على الزناد، ولكنه لم يتأخر عن دفع البندقية قبل خروج الرصاصة منها؛ مما حوَّل مسارها، وبدلًا من أن تصيب قلب شويكار، أصابت راحتها اليسرى المرسوم عليها الوجه الثاني عشر.

٥

Mad About A Boy(*)

قطب الطبيب جرح حاجب حسين إثر ضرب شويكار له بالمرمدة. تأوه، فضحك صديقه الطبيب وهو يقول:

- تعيش وتأخذ غيرها يا حضرة الضابط، تلك الضئيلة تُلقنك هذا الدرس القاسي؟

- أتود أن ألقنك درسًا أقسى منه؟

ضحك وهو ينهي عمله، بينما يسأله حسين:

- أهناك مرض عقلي يجعل المرء خارق القوى؟

تدبر الطبيب سؤاله العجيب، ولكن باب العيادة رُكِل بعنف، وقطع تفكيره اقتحام سليم الغرفة مهتاجًا مسددًا لكمة مباغتة لحسين. تدخل الطبيب ليحول بينهما، فكاد سليم أن يضرب الطبيب هو الآخر، ولكن حسين استفاق سريعًا من لكمته وركل سليم بعنف.

(*) «مجنونة بصبي»: أغنية چاز شهيرة، غناها كثير من المطربين، أشهرها نسخة المطربة داينا واشنطن.

انقض عليه حسين ممسكًا به من تلابيبه وخبطه في الحائط عدة مرات وهو يصيح فيه:

- أتود أن تمضي ما بقي من عمرك في السجن؟

- شويكار فقدت كفها! لقد تسببت في إقبال زوجتي على الانتحار مرتين في اليوم نفسه.

- لستُ السبب، زوجتك ملبوسة!

- قلتُ لك أيها الجاهل إنها مريضة، اذهب للدكتور وجدي عبد الغفار وثقف نفسك!

تركه حسين وابتعد عنه خطوتين إلى الوراء، يمسح خط الدم السائل من شفته إثر لكمة سليم له، والآخر يلهث وينظم أنفاسه الغاضبة وهو ينظر إلى الضابط بعينين استحالت خضرتهما إلى شعلتين متقدتين من النيران وهو يقول:

- تلك الكف التي فقدتها زوجتي، ستدفع أنت ثمنها غاليًا.

هندم سليم نفسه ثم خرج من الغرفة وترك حسين يتدبر اقتراحه ويتجاهل تهديده.

* * *

زيارة الأطباء تقبض قلب حسين.

آخر ذكرى يحفظها ذهنه عن زيارته للطبيب، كانت منذ عشرين عامًا، حين نقل والده البكباشي فجرًا إلى المشفى إثر حادث سيارة مروع، كانت نتيجته وفاته، فتيَتم حسين قبل أن يتم عامه الخامس عشر.

على الرغم من أنه لم يكن في طريقه لهذا الطبيب من أجل استشارة طبية أو فحص لأحد أحبته، فإنه توتر، ربما لأنه لم يقابل في حياته

طبيبًا نفسيًّا، ولم تخطُ قدماه إلى مشفى للأمراض العقلية من قبل. لذلك، أخذ الاحتياطات اللازمة من أجل تلك الزيارة.

صف سيارته في أبعد مسافة عن المشفى، وحرص على أن يرتدي قبعة ويرفع ياقة معطفه الأسود، ليبدو مثل المحققين بالأفلام الهوليوودية في أثناء سيره أسفل المطر، حتى لا يتعرف عليه أحد معارفه أو أصدقائه إذا لمحوه مصادفة في أثناء دخوله لمشفى العباسية، فيظنوه جُنَّ من فرط تعامله مع المجرمين والقتلة.

لم ينتظر كثيرًا في غرفة الطبيب الخضراء، التي تنتشر على حوائطها شهادات طبية مشرِّفة في أطر ذهبية.

قابله الطبيب الكهل بابتسامة واسعة ووجنتين حمراوين ممتلئتين، وملامح جعلت حسين يخمن أنه ألباني الأصل.

بعد التحية والترحيب وطلب قهوة وماء لحسين، وفَهْم الطبيب للقضية وموقف مريضته منها، أخذ نفسًا عميقًا وقال:

- أنا المسؤول عن حالة السيدة شويكار منذ كانت مراهقة، لم تستقر حالتها قَطُّ، تتحسن مرة وتسوء عشرًا.
- أيمكنك أن تشرح لي مرضها بالضبط؟
- من دون الدخول في تفاصيل طبية معقدة، نستطيع الجزم بأنها تعاني من مرض شديد الندرة، أنا شخصيًّا لم أقابل طيلة مشواري الطبي سوى حالة واحدة مشابهة لحالتها، لا يوجد تشخيص رسمي للاضطراب الذي تعاني منه، ولكن يمكن أن نقول إنه نوع انفصالي من العصاب الهستيري، يجعلها تفقد هويتها وتُعيد تعرفها وفقًا لكل موقف، أي أنها ليست شخصًا

واحدًا، تارة تقول أنا شويكار، تارة أخرى تقول أنا شوشو، وتارة ثالثة تقول إنها كيكي.

- أليست مجرد اختصارات مختلفة لاسمها على سبيل الدلع؟

- هذا ما يحسبه العاقل، ولكن بالنسبة لشويكار، فهن ثلاث نساء، بثلاث شخصيات مختلفة.

- أليس من الممكن أنها تفتعل هذا كله؟ مجرد فرقعة كبيرة تشتتنا عن جرائمها؟

- كنت لأوافقك إن كانت تلك الحالة أصابتها حديثًا، ولكنها مصابة بهذه الهلاوس والوساوس منذ كانت في الخامسة عشرة من عمرها، وليس منذ أن ارتكبت تلك الجرائم منذ عامين كما تزعم.

- أزعم، ألا تظن أنها مجرمة؟!

- أنا رجل علم، والعلم لا يعرف الظنون.

- إذن أفدني بعلمك، هذا المرض الذي لا تعرف له اسمًا، قد يجعل المرء عنيفًا؟ مجرمًا؟

- لا مرض يرتبط بالجرم، إنها وصمة ظالمة، الغرب الآن يعملون على...

- أرجوك يا دكتور وجدي، لستُ طالبًا عندك في الكلية، أريد إجابات واضحة، وفقًا لرأيك الطبي المبني على متابعة حالة شويكار، منذ ما يربو على عشرة أعوام. هل من الممكن أن تقتل؟

- لا يمكنني الجزم بذلك.

- هل روت لك عن قتلها لصبري؟

- ما كانت شوشو لتسمح لها بالحديث؛ فهي تسيطر على جانبها المظلم.
- إذن تعترف بأن لها جانبًا مظلمًا!
- أوَليسَ لك جانب مثله؟ نحن أقمار يا حضرة الضابط، لكل منا بَدرُه ومُحاقه.
- تحياتي لفلسفتك العميقة، هل يمكن أن نعود لمقتل أحد عشر شخصًا إذا تكرمت؟

لم يستلطف الطبيب الفيلسوف سخرية الضابط الجاف من فلسفته، فرمقه بضيق ثم ابتلع غيظه وقال:

- شويكار كانت تروي لي عن الجانب القلق والخائف والنادم من حياتها، تلك الشخصية قليلة الظهور؛ لأن شوشو تسيطر عليها، ونادرًا ما تتمكن شويكار من التغلب عليها، والظهور لطلب النجدة والمساعدة. شوشو هي الجانب الشهواني والمندفع والجريء من شويكار، هي عكس شويكار في كل شيء، وأما كيكي؛ فهي جانبها المتفائل الرومانسي، الذي يحب موسيقى الچاز والرسم والأطفال والفن.
- وما سبب هذا المرض العجيب إذا افترضنا أنه حقيقي؟
- لقد جُبت العالم، وزرتُ المصحات شرقًا وغربًا لدراسة تلك الحالة العجيبة، اطلعت على المصادر الـ....
- يا عزيزي مجهودك العلمي المضني على رأسي، أرجوك أن تختصر.

حدجه بالنظرة اللاذعة ثانية، فتقبلها حسين بابتسامة باردة.

آثر وجدي ألا يثير عداوة الضابط، فقال باقتضاب:

- السبب صدمة في الطفولة، تجعل المرء بشخصيته الحالية عاجزًا عن الدفاع عن نفسه، فيكون الأمر أشبه بسقوط مزهرية على الأرض، تتشرذم، وتصير كل قطعة منها منفصلة عن الأخرى، ولكنها تكملها في النهاية؛ هذا ما حدث لهوية شويكار، انقسمت إلى ثلاث يعملن على حماية مجموعهن من الأذى.

- وكيف نعيد تلك القِطَع المنفصلة لتصبح مزهرية واحدة؟

- هنا تكمن المعضلة، فحتى إن جمعنا الأجزاء وألصقناها بالغراء، بالأدوية والعلاج السلوكي، فستبقى شقوقها وشروخها بارزة وعُرضة للكسر مرة أخرى تحت أبسط ضغط.

- إذن لا علاج لهذا المرض؟

- أقول لك لا نعرف اسمًا لهذه الحالة، أتظننا وجدنا لها علاجًا!

- معقول! والآن أخبرني، أي ضربة أصابت شويكار في طفولتها حتى تتشرذم هويتها هكذا؟

- أتدعوني للخروج عن القانون يا حضرة الضابط؟ القانون رقم ١٩٨ لسنة ١٩٥٦، يُلزمني بالحفاظ على سرية مرضاي، أنا طبيب نفسي محترف يا حضرة الضابط.

- وهل أنا بائع فجل يا حضرة الدكتور؟

- أرجو أن تبقي على تحضُّر الحوار بيننا.

- حسنًا.

أخرج حسين سيجارة وأشعلها بهدوء وهو يسترجع كل كلمة قانونية شرحتها له زوجته الأفوكاتو إحسان، بخصوص قانون تنظيم

مهنة العلاج النفسي، الذي استفسر عنه منها قبل أن يذهب لزيارة وجدي عبد الغفار.

قال براديكالية متعجرفة:

- دعني أزيدك علمًا بالقانون يا دكتور، أنا أستجوبك رسميًّا، لأن مريضتك متورطة في قضية قتل قيد التحقيق، أي أنك لا تحنث بميثاق السرية بينكما. إن كنت تود أن تزورنا بالقسم ليأخذ التحقيق طابعًا أكثر رسمية، فيا مرحبًا.

تجمد في مكانه يفكر فيما قاله حسين حتى تنهد وقال:

- أعلم ذلك، ولكن مرضاي لن يقتنعوا بتلك الحجة، إن عرفوا أنني أفشيت أسرار أحدهم، فستتأذى سمعتي، و...

- سمعتك ستتأذى أكثر إذا حبستك بتهمة عدم التعاون مع السلطات، أليس كذلك؟

لم يحبذ تهديد حسين الواضح له، فنفَّس عن ذلك بالتأفف وإخراج غليونه من درج مكتبه.

أشعل الغليون، ثم قال:

- سأخبرك بما أعرفه، ولكن دعني أحذرك، فأنا أعرف تلك القصة لأن شويكار وشوشو وكيكي حكينها لي، وهن لا يحكين لي سوى ما يردنني أن أعرفه فحسب.

* * *

يناير، ١٩٥٢

بمجرد أن مات والد شويكار، فاحت سمعة أمها السيدة كريمان محفوظ ابنة العرضحالجي.

تكلم الحي كله عن أرملة الشهيد، التي يدخل دارها رجل ويخرج غيره، إلى أن ابتسم لها الحظ واستطاعت أن تجذب رفيقًا من رفاق الملك، الذين يجتمعون معه في كلوب محمد علي للعب القمار.

سقط هذا العشيق الكهل في حُسن الأرملة كريمان وشبابها، فاتخذها عشيقة وابتاع لها أوتوموبيلًا وشقة في الدور الأرضي، ببناية أنيقة في الزمالك، يتردد عليها صباح كل خميس.

لهذا، كانت شويكار ابنة الأربعة عشر عامًا تخرج مع دخول عشيق أمها إلى البيت طيلة إجازة منتصف العام، تأخذ معها رواية من روايات أجاثا كريستي وتجلس على السلم كهرة ضالة لا منزل لها.

بعكس المتوقع، لم تكن شويكار تسب وتلعن اضطرارها للخروج من بيتها والمكوث على السلم البارد، بل كانت تنتظر تلك اللحظة كي ترى سليم؛ لأن الساعة الثالثة عصرًا من كل خميس كانت هي ميعاد خروجه من شقته التي تقابلها، والنزول على السلم كي يذهب إلى تمرين الملاكمة في نادي الجزيرة.

في ميعاده المضبوط بالثانية، خرج سليم ابن السبعة عشر عامًا، مرتديًا قميصه القطني وسرواله القصير، حاملًا حقيبة رياضية، حتى لفتت انتباهه كما تفعل في كل مرة.

أحب سَمارها الرائق، عينيها العسليتين، الشامة فوق شفتها الكرزية، وجديلتيها المتدليتين على كتفيها المكتنزتين، وأكلها للجيلاتي بالفانيلا صيفًا وشتاءً.

في كل مرة، يفكر في شيء يقوله، ولكنه لا يجد سوى الكلمتين نفسيهما:

- نهارك سعيد.

ليس صفيقًا ليختتم الجملة بـ«يا جميل»، أو «يا حلو»؛ لهذا كان يكتفي بإلحاق تحيته بابتسامة محبة ونظرة ناعسة. ولكنها هذه المرة كانت تسد السلم بسبب جلوسها عليه بالعرض، تستند إلى الحائط، وساقاها مفرودتان على السلمة الأولى، ورأسها مدفوس في رواية تتصدر غلافها ورقة كوتشينة عليها رقم ثلاثة عشر ووراءها مسدس، وكُتب عنوانها الإنجليزي بالدم «ثلاثة عشر لغزًا».

كانت مستغرقة في القراءة، لدرجة أنها لم تنتبه لوقوف سليم الذي حجب عنها بطول قامته نور العصر المتسلل من شباك العمارة.

اضطر أن يصطنع سعالًا حتى يلفت انتباهها من دون أن يفزعها، ولكنه فشل على أي حال، لقد انتفضت وأسقطت الكتاب من يدها.

بمجرد أن رأته، وسيمًا مبتسمًا نافر العضلات بارز العروق، ضيُّ الشمس يضرب عينيه فتزدادان خضرة وسحرًا، ويتحول شعره الأشقر إلى خيوط من الذهب الناعم، تحول فزعها إلى إعجاب وخجل.

لمت ساقيها بتوتر فسقطت الرواية من حجرها إلى السلم، فقالت:

- آسفة!

تجهل لِمَ تعتذر من الأساس، ولكنه رهابها الاجتماعي الذي يشوش على ردود أفعالها.

نزل سليم سلمتين لينتشل الرواية التي أسقطتها، وتأمل غلافها وهو يقول لها:

- لا داعي للاعتذار يا آنسة، أنتم الجيران الجدد، أليس كذلك؟

ارتبكت مرة أخرى، وجاهدت حتى تنطق وتقول بلى، ولكنها فقدت صوتها، وإذ بها تهز رأسها بأكثر الابتسامات بلاهة.

ابتسامة وهزة رأس، هذا كل ما أراده سليم حتى يسمح لنفسه بالجلوس معها على السلم. مكتبة سُر مَن قرأ

جاورها، تاركًا بينهما مساحة كأي ولد نبيل، ثم سألها:

- أهي رواية جيدة؟

بمجرد أن تكلم عن الكتب، انفكت عقدة لسانها وانطلقت تقول:

- إنها مجموعة قصصية مذهلة، المحقق الرئيسي هنا ليس هيركول بوارو، بل الآنسة ماربل، أفضل ألغاز بوارو، ولكن حبكة هذا الكتاب باهرة، تبدأ بدعوة من السير هنري كليثرنج إلى حفل عَشاء، فتخترع الآنسة ماربل لعبة تقوم من خلالها بـ....

أمسكت عن الكلام للحظة، وظلت تنظر إليه وهو يتأملها بابتسامة فاتنة أبرزت غمازتيه.

سألها:

- تقوم من خلالها بماذا، لِمَ توقفتِ عن الكلام؟

- لا أريد إزعاجك بثرثرتي، لا أحد يهتم بقصص الجريمة غيري.

- ليس بعد اليوم، يبدو أن محبي قصص الجريمة زادوا واحدًا بفضلكِ.

تلامست أصابعهما وهو يمد يده ليعيد إليها روايتها، فاقشعر بدنها الضئيل وخجلت خجلًا يليق بمراهقة بريئة.

- سأعرج على مكتبة ريدرز كورنر بعد التمرين، وأشتري نسخة من تلك الرواية، أنقرأها معًا؟

- أنت تحب القراءة؟

- أفضِّل السينما، ولكن ما رأيكِ أن تشاركيني الأفلام، وأنا أشاركِكِ الكتب؟

هزت رأسها موافقة، فابتسم ظافرًا راضيًا عن نفسه، واقترب منها وهو يمد يده صوبها ليصافحها ويقول:

- اسمي سليم رشدي.

- شويكار.

في تلك اللحظة فُتح الباب ليخرج منه الثري ذو الأنف الأبطش، وكريمان تقف خلفه برداء نومها الشفاف ذي الريش. وقفت تودع عشيقها في كامل أناقتها، بشعر أسود قصير، وحمرة شفاه داكنة، وحاجبين رفيعين مقوسين، وكحل يزين عينيها الياقوتيتين، وعطر فج يملأ البناية من سطحها لبهوها، وفي فمها مبسمها الذهبي الذي تدخن من خلاله سجائرها.

انتبهت لوقوف سليم عند طرف السلم، بجوار شويكار، فرمقتهما بغضب وانتظرت حتى نزل عشيقها.

تأملت سليم من رأسه حتى أخمصي قدميه، ثم قالت تمصمص شفتيها:

- ألست ابن العقربة التركية التي تغتابني مع الجيران؟

تمنت شويكار لو انشقت الأرض وبلعتها، قبل أن ترى تعبيرات الغضب تكتسح ملامح سليم الدقيقة هكذا.

رأته يضغط على فكه، ويكور قبضته؛ حتى يتحكم في غضبه، إلى أن التفت إلى شويكار وقال بفتور:

- فرصة سعيدة.

ثم نزل السلم وأكمل طريق خروجه.

ظلت شويكار تحدق في أمها بغضب من دون أن تنبس ببنت شفة، فشهقت الأم بسوقية وقالت:

- ستلتقطين لي صورة يا ابنة جلال؟

نهضت شويكار عن السلم، وركضت إلى الشقة الموحشة التي تعج بالأنتيكات والتحف، وتخلو من الرقي والشرف.

هربت إلى غرفتها، دفست وجهها بين الوسائد وأخذت تبكي.

في لحظات الضعف تلك يظهر لها، يخرج من لوحته ويجلس بجوارها، يربت على كتفها ويوسوس لها، ولكنها تهربت منه، وضعت وسادة فوق رأسها، وسدت أذنيها؛ حتى لا تسمعه وهو يحرضها على الانتقام من أمها التي تفسد كل ما هو جميل.

* * *

كعادة كريمان كل جمعة، خرجت إلى كابينة التجميل التي تعلو مقر باتا في شارع عماد الدين، كي تقوم لوسي الأرمنية بتجميل أظفارها وعمل ما يلزم من مانيكير وباديكير.

بقيت شويكار بمفردها في المطبخ، تأكل الجيلاتي الذي اشترته من البائع الجائل على الكورنيش، وسارت تأكله على مهل حتى وصلت بيتها وجلست تنهي الصفحات الأخيرة من الرواية.

كانت ستتوقف عن القراءة وتنتظر حتى يشتري سليم الرواية،

ويقرأها، إلى أن يقف عند الصفحة نفسها التي وقفت عندها ثم يستأنفا القراءة معًا، ولكن بعد فجاجة أمها بالأمس، فقدت الأمل في أي تواصل جديد مع هذا التركي الوسيم.

أنهت الرواية، وما كادت أن تنهض لتعيدها إلى مكتبتها حتى رن جرس الباب.

فتحت الباب لتجد أن الطارق فتاة شقراء قصيرة، ملامحها مألوفة وتكبرها ربما بعامين أو ثلاثة.

قالت الفتاة بابتسامة واسعة، كشفت عن غمازتين مرحتين بخديها:

- سعيدة! أنتِ شويكار، أليس كذلك؟

- بلى.

- أنا جارتكِ هيدي، شقيقة سليم.

انفرجت أسارير شويكار وهي تقول فاتحةً باب الشقة عن آخره:

- أهلًا أهلًا، تفضلي.

- لا أريد أن أزعجكِ، ولكن سليم حدثني عنكِ بالأمس.

- عني أنا؟

- نعم، قال إنكِ تحبين القراءة، فقلتُ أستغل هذه الصدفة السعيدة وآخذكِ معي لشراء بعض الكتب، هل الوقت يناسبكِ؟

- أي وقت هو وقت مناسب لشراء الكتب.

تعلمتْ من هيدي نوعًا خاصًّا من السياحة كانت تجهله، ألا وهو سياحة المكتبات.

أخذتها إلى وسط البلد لمكتبة ليفر دو فرانس؛ المتخصصة في الكتب الفرنسية فقط، فإذ بصاحب المكتبة يُحييها ويعرض عليها

كتبًا جنَّبها لها، ويناولها كتبًا أخرى طلبتها منه منذ فترة، فاشتراها لها خصيصًا من فرنسا.

ابتاعت خمسة كتب فرنسية، ثم ذهبت إلى مكتبة لينيت آند لاندروك لتتفقد أحدث الكتب الألمانية التي وصلت مصر، فاكتفت بشراء كتاب واحد لجوته.

بعد ذلك سارتا إلى مكتبة مينجوتسي، عزمت صاحبة المكتبة الإيطالية على هيدي بالقهوة، ولكنها رفضت، وأخبرتها أنها على عجلة من أمرها، فاشترت منها المجلات الإيطالية ثم ودَّعتها وخرجت.

سألتها شويكار:

- أتُجيدين الإيطالية أيضًا؟

- كلا، ولكني أجيد مشاهدة الموضة في مجلاتهم، حتى آخذها للخيَّاطة تفصل لي فساتين كفساتين إيسا ميراندا.

تضاءلت ثقة شويكار بنفسها كقارئةٍ مطلعة ومثقفة أمام ثقافة هيدي.

ظنت أن ما يميزها قد ضاع وهيدي تحدثها عن كُتاب وشعراء ومثقفين لم تسمع شويكار عنهم من قبل.

ظلت على هذه الحالة، تنهل من معلومات وثقافة هيدي، حتى وصلتا إلى شارع عبد الخالق ثروت باشا، حيث مكتبة ريدرز كورنر، التي تتراصُّ شتى الكتب الإنجليزية بمختلف فئاتها في فاترينتها.

وقفتا مشدوهتين بين كتب التاريخ والفلسفة والروايات، حتى دخلتا إلى المكتبة ذات الطرقات المستطيلة الطويلة، التي تتراص

الكتب على أرففها ذات اليمين وذات اليسار، وصولًا إلى سلم أصفر حلزوني ضيق يربط بين طابقيها.

استقبلهما السيد ميكائليان صاحب المكتبة، بوجهه البض ووجنتيه الحمراوين، ونظارته المستديرة وبدلته السوداء الأنيقة المقلمة طوليًّا، وتركهما تَغرقان بين الكتب حتى أعد لهما كوبين من الليمون.

ارتوتا بهذا المشروب المنعش، الذي خفف عنهما إجهاد المشي في شوارع وسط البلد، ثم استأنفتا الغوص بين نوادر الكتب، حتى لمحت هيدي شابًّا يكبرها بعام أو اثنين يقف خارج المكتبة عند الزجاج.

كان طويلًا ونحيفًا، صاحب بشرة قمحية، وأنف بارز، وشعر أسود أملس، وسوالف طويلة، ولحية خفيفة.

بمجرد أن التقت أعينهما، لوح إليها بشوق فلوحت إليه بلهفة، وقالت لشويكار:

- سأخرج لأتفقد متجر الورود المجاور للمكتبة، خذي وقتكِ في تصفح الكتب، سأنتظركِ بالخارج.

أخذت شويكار تتابعها وهي تتجه نحو الشاب النحيف ذي القميص الأبيض، وتراه يمسك يدها ويقبل راحتها باشتياق، ثم شبك أصابعه بأصابعها وهو يهمس إليها بكلمات جعلتها تبتسم خجلًا.

اقتربت شويكار لتشاهدهما عن كثب، فلمحته يمسك بوردة حمراء صغيرة ويضعها خلف أذنها، فضحكت، ثم أخذا يتحدثان.

كان يتكلم فتسمعه، تضحك فيبتسم، يلمسها فتحمر خجلًا، كانا متناغمين بشكل غريب.

ظلت تتابعهما، حتى رآها الشاب وهمس إلى هيدي، فالتفتت إليها. دفست شويكار رأسها في ذاك الكتاب المقلوب، الذي أمسكته سريعًا حتى لا يلاحظا أنها تراقبهما.

دخلت هيدي وقالت لمن تتظاهر بأنها منشغلة بالقراءة:

- شويكار، تعالي حتى أعرفكِ على سيران.

جذبتها من ذراعها وخرجتا من المكتبة، حتى وقفتا أمام سيران، وعرفته عليها، فمد يده ليصافحها قائلًا:

- فرصة سعيدة يا آنسة شويكار.

- تشرفتُ بك.

نظر سيران إلى هيدي مرة أخرى، وقال وهو يُرجع شعرها المتطاير على وجهها إلى خلف أذنها:

- حسنًا، سأرحل الآن، أراكِ غدًا؟

- أجل، سيروم يم كَايز.

وضع يدها بين راحتيه، وقال هائمًا في حُسنها:

- سيروم يم كَايز، هوكيس.

ظلت هيدي تراقبه بحنان، وكأنها اشتاقت إليه بمجرد أن ترك يدها، وبقيت على تلك الحالة الحالمة حتى سألتها شويكار بفضول:

- هذا كلام بالتركية؟

- بل بالأرمنية، يقول لي أحبكِ يا حبيبتي.

قالتها بسعادة ومحبة شرحت صدر شويكار على الرومانسية، فسألتها:

- خطيبكِ أرمني؟

- خطيبي؟! أقول لكِ إنه أرمني وأنا أمي تركية متشددة، من رابع المستحيلات أن تجتمع العائلتان.

- أهناك مشكلة بين الأرمن والأتراك؟

- أوه عزيزتي! أنتِ في حاجة إلى قراءة الكثير عن التاريخ، سأُعِيركِ بعضًا من كتبي عن المذابح، إنني أخبئها تحت مرتبتي، فلو رأتها أمي لفعلت بي ما هو ألعن مما فعله حزب الاتحاد والترقي في الأرمن.

- أهذا يعني أنكِ وهو لن تتزوجا أبدًا؟

- ومَن قال هذا؟

- قلتِ يستحيل أن تجتمع العائلتان.

- هذا لا يعني أنني وهو لن نجتمع.

وقفت شويكار منبهرة بعزيمة وإصرار هيدي، بينما تتأمل الثانية الكتب التي يرصها السيد ميكائليان بحماس، ثم تفقدت الوقت في ساعتها وقالت:

- عظيم، ما زال لدينا متسع من الوقت!

- لنفعل ماذا؟

- لنقابل سليم.

* * *

دخلتا النادي وسارتا تحت ظلال الأشجار المتعانقة يستمتعان برائحة نضرة أوراقها، حتى وصلتا إلى ملعب الملاكمة.

وقف سليم على حلبة المصارعة يرتدي سروالًا قصيرًا من النايلون، ويَلكم زميله الذي في مثل عمره باحترافية.

كان زميله أطول وأضخم منه، ولديه شعر أسود لامع كممثلي السينما، وعينان رماديتان كحيلتان.

لمح سليم هيدي وشويكار تقتربان من الحلبة، فتشتت تركيزه، مما مكن زميله من تسديد لكمة قاضية إليه أسقطته أرضًا، فعلق المدرب:

- أحسنت يا صبري!

خلع صبري قفازيه، ومد يده ليساعد سليم على النهوض وهو يقول:

- تعيش وتأخذ غيرها يا صديقي!

نهض سليم وهو يضحك:

- مردودة لك أيها الخبيث.

خلع سليم قفازيه وهو يمازح صبري ويتوعده، حتى افترقا فور نزولهما عن الحلبة، ذهب سليم لأخته ولشويكار، ووقف صبري بالزاوية يشرب الماء ويلملم أشياءه في حقيبته وهو يراقبهم.

وقف سليم يلهث وهو يمسح عرقه بمنشفته، ويقول لشويكار:

- شويكار، يا لها من مفاجأة غير متوقعة، أنتِ وهيدي صرتما صديقتين؟!

ضحكت هيدي ضحكة ساخرة من ركاكة أداء شقيقها التمثيلي، الذي أمضى ليلة كاملة يتوسل إليها حتى تتعرف على شويكار وتدعوها لشراء الكتب، ثم تأتي بها إلى النادي مقابل أن يغسل الصحون مكانها لآخر الإجازة.

رمقها سليم بحدة حتى لا تفسد خطته بضحكتها المستهزئة، فقالت:

- نعم، صرنا صديقتين، انتهى تمرينك؟
- نعم.
- عظيم، هلا أخذتنا في نزهة على الكورنيش، واشتريت لنا بعض الجيلاتي؟
- بالتأكيد. إن كانت شويكار لا تمانع أن تمضي معنا المزيد من الوقت.

راقب خجلها وعجزها عن الرد، صحيح أنها لم تقل شيئًا، ولكنه رأى الحماس لتمضية الوقت معه في عينيها.

طال تحديقهما لبعضهما، فنظرت هيدي إلى كلٍّ منهما على حدة وهي تحاول كتم ضحكاتها الساخرة من النسخة الرومانسية الحمقاء من شقيقها البكري، وقالت:

- السكوت علامة الرضا، سننتظرك بالحديقة حتى تغير ثيابك.

اتجه الشابان إلى غرفة تغيير الملابس ليستحم كلٌّ منهما، وأخذ سليم يدندن في غرفة تغيير الملابس ببالٍ رائق، بينما وقف صبري أمام المرآة يهذب شعره الكثيف بالمشط وهو يرى انعكاس سليم في المرآة يزرر قميصه.

قال صبري:

- يبدو أن مفعول قطعة الكراميل ذات الضفيرتين قوي عليك.
- ماذا تقول يا أحمق؟
- تغني لأم كلثوم، وأتيت معك بأرقى قمصانك، إذن هو موعد غرامي.
- وليكن!

- من أين اصطدت هذا الغزال الشارد؟

- تحشم يا صبري، ليست مثل فتيات الشارع اللاتي تعرفهن!

- أتقدر أنت على مرافقة فتاة واحدة من فتياتي اللاتي تنعتهن بفتيات الشارع يا فالح؟!

التفت سليم وألقى قفاز ملاكمته صوب صبري عابثًا ممازحًا، فضحك الثاني وهو يتلقف القفاز قبل أن يصيبه، ويراقب زميله يتعطر ويقول له:

- دعني وشأني يا ذئب النساء يا وضيع.

- على راحتك يا روميو، ولكن إن احتجت أي نصيحة مع الجنس اللطيف، فأنا في الخدمة كالعادة.

* * *

تلك التمشية على الكورنيش في أثناء أكلهما لجيلاتي الفانيلا في عز البرد، كانت بداية نزهات طويلة متتابعة.

لقد صدق في وعده، شاركها الأفلام فشاركته الروايات.

أصبح الخميس هو يوم لقائهما على السلم للقراءة، منذ دخول عشيق كريمان، وحتى يفرغ منها ويخرج.

والجمعة، هو ميعاد ذهابهما إلى شارع عماد الدين لمشاهدة أحد الأفلام الأوروبية.

يأخذها إلى قاعة السينما، يبتاع لها الفشار، يترجم لها ما لا تفهمه من الأفلام الفرنسية والألمانية، ويحاولان معًا تخيل قصة الأفلام الإيطالية أو الإسبانية التي لا يفهمان لغتها.

لم يتخلفا عن الأفلام المصرية، شاهدا أفلام ماري كويني ومديحة

يسري ومحمد فوزي، وانبهرا باستعراضات كيتي وتحية كاريوكا ونعيمة عاكف وسامية جمال.

تذْكر شويكار بالتفصيل متى كانت المرة الأولى التي أمسك فيها يدها، حين أفزعها مشهد قتل زوج البطلة لمديرها طعنًا بالسكين، في فيلم «امرأة من نار»، فوضع يدها بين كفيه ليهدئها، ولم يتركها من وقتها.

تذْكر أنه لف ذراعه حول كتفيها للمرة الأولى وهما يشاهدان فيلمًا فرنسيًّا بطولة مارتين كارول.

تذْكر هذا اليوم الربيعي بتفاصيله؛ لأنه يحمل إليها الكثير من المرارة.

بعد نهاية الفيلم، خرجا من قاعة السينما ذات الرائحة العطرة وتمشيا على الرصيف.

كان سليم يقتدي بأناقة شكري سرحان ووسامته، منذ أن شاهدا معًا فيلم «أفراح»، فكان يشمر كمَّي قميصه النصف كُم، ويضع الكثير من الفازلين على شعره الأشقر، ويترك خصلة كثيفة مبرومة تتدلى على جبينه.

كانا يتناقشان في تفاصيل الفيلم، وكأنهما ناقدان صغيران، حتى قالت شويكار:

- ذكرني ما كان اسم البطلة مجددًا.

- مارتين كارول.

- كاميليا أجمل منها.

- وأنتِ أجمل من كلتيهما.

ابتسمت خجلًا، وأشاحت بنظرها بعيدًا، فتأمل حياءها بافتتان حتى وصلا إلى بنايتهما متشابكي اليدين.

همت شويكار أن تودعه قبل أن تدخل إلى شقتها، ولكن سليم ضغط على كفها ورفض أن تنسل من بين أصابعه، وقال:

- شويكار، لقد أتممتُ عامي الثامن عشر، صرتُ رجلًا كما يقول أبي.

- أنت في عيني أفضل الرجال.

- حقًّا؟ هل لي مكانة مميزة عندكِ دونًا عن باقي الشباب؟

- أهذا أمر يحتاج إلى سؤال يا سليم؟

ابتسم، ولكن لم يهدأ توتره، شعرتْ ببرودة يده وبأن نبضه يتسارع في معصمه، وهو يقول:

- في هذه الحالة، فأنا أومن بأن الرجل الحق لا يهاب البوح بما في قلبه، وأنا قلبي يحبكِ يا شويكار ويتمنى أن يجاور قلبكِ حتى يتوقف نبضانا. لقد جعلتِ مني روميو العاشق الذي أصابه الوجد فصورتكِ لازمت كل خيالاتي وأفكاري، لدرجة أنني أخطئ في مناداة أختي، وأناديها باسمكِ لأنكِ تلازمين عقلي وفؤادي، فهلا أثلجتِ صدري وأخبرِتني إن كنتِ تشاركيني الشعور نفسه.

كانت ستقول له نعم وألف نعم، ولكن صوت فتح شراعة الباب الزجاجية جعلها تبلع كل كلمات العشق التي كانت ستنطق بها.

سمعا صوتًا نسائيًّا غليظًا يصيح بلكنة تركية صارمة:

- سليم، يا ولد!

انتفضت شويكار وسحبت يديها من كفَّي سليم، وقد خفق فؤادها، لا من الحب والحماس كما كان منذ ثانية، بل من الخجل والذعر.

كانت هذه المرة الأولى التي ترى فيها شويكار السيدة درية الأناضولي، صاحبة نظارة النظر كعب كوباية، والشامة العملاقة على طرف أنفها البارز، وخطوط الحزن بين حاجبيها الأشقرين الكثين، وشعرها المعقوص لأعلى بصرامة.

فتحت ذات الوجه العابس والمزاج العكر الباب، وخرجت مسرعة صوب سليم تقول:

- ماذا تفعل مع هذه؟!

انزعج سليم من نبرة التحقير التي نطقت بها والدته «هذه»، وهي تشير إلى شويكار من فوق إلى تحت، فقال:

- من فضلكِ يا آنَّا، أنا وشويكار سوف...

- لا يوجد أنا وشويكار، لقد أمرتك ألا تقابل ابنة سيدة سيئة السمعة كتلك!

- آنَّا!

تلقت شويكار الجملة كصفعة حادة ومباغتة، فبكت وهمَّت أن تركض صوب شقتها، ولكن كريمان سبقت ابنتها.

فتحت باب شقتها بقميص نومها الفاضح وصاحت بأعلى صوتها:

- أنا سيدة سيئة السمعة يا ابنة المرضعة والسفرجي، يا خادمة القصور يا ماسحة البلاط، يا غاسلة الصحون يا كانسة السجاد من تحت أحذية أسيادك!

- اخرسي، واحفظِي أدبك وأنتِ تتحدثين مع درية خانوم!

- خانوم! قولي هذا لمن لا يعرف أصلكِ يا درية يا أناضولي، أنتِ وأهلك دخلتم قصر التين حفاة وخرجتم منه بفضيحة، ثم تقولين لابنتي إنني سيئة السمعة يا نتنة السمعة!

امتعضت أذنا سليم من سوقية كريمان، وغلت الدماء في عروقه حتى احمرت شحمتاه، وبرزت عروق عينيه وكأنه سيتحول إلى وحش سيلتهم كبد كريمان.

همَّ أن يرد مدافعًا عن سمعة أمه، ولكنها جذبته من ذراعه لتمنعه من التدخل، ثم قالت لكريمان بحدة:

- لن أنزل لمستواكِ يا وضيعة!

بصقت درية أرضًا، ثم دخلت إلى شقتها وهي تدفع سليم أمامها.

صفقت بابها بقوة، ثم أسرعت إلى حجرتها وأوصدتها بالمفتاح، ورفضت الاستماع إلى اعتذار ابنها وتوسلاته لتفتح له حتى يطمئن عليها، آثرت أن تبقى وحيدة تبكي الليل بطوله.

كذلك كانت حال شويكار، بقيت تبكي بالقرب من النافذة، وكلها ثقة بأن أمها أفقدتها حبيبها إلى الأبد.

بقيت على تلك الحالة حتى سمعت صوت محرك، فمدت عنقها من النافذة ورأت أوتوموبيلًا متواضعًا يقف بآخر الشارع، فينزل منه صاحبه ويقترب من البناية.

بعد الكثير من التدقيق، أدركت أن هذا سيران، يقف عند باب الخدم ويتلفت حوله حتى وجد ضالته.

خرجت هيدي من مخرج الخدم تحمل حقيبتَي سفر كبيرتين، حملهما عنها، فعلقت يدها بذراعه ثم أسرعا خطاهما حتى الأوتوموبيل.

ألقى الحقائب على الأريكة الخلفية، ثم ركبا معًا وانطلقا بأقصى سرعة.

* * *

غفت درية من فرط البكاء في مكانها على الكرسي المقابل لفراشها بالغرفة، ولم تستيقظ إلا على أذان الفجر.

خرجت، مرت بالصالة، واتجهت إلى المرحاض لتتوضأ، ولكن استوقفتها ورقة كبيرة ملقاة على الطاولة.

ثبتت نظارتها السميكة على أرنبة أنفها الضخم لتقرأ ما خُطَّ بحماس باللغة التركية:

عذرًا يا آنَّا، حاولت إقناعكِ ولكنكِ أبيتِ أن تنصتي إليَّ!

كان أمامي حلان، أطيعكِ فأُجن، أو أطيع قلبي فيُجن منطقكِ.

اخترتُ قلبي، فأنا مجنونة بهذا الفتى الذي لن تقبله عقليتكِ الكافرة بالحب.

سامحيني

هيدي

٦

Little Boy(*)

زفر حسين حين طال صمت الطبيب وجدي، بعد أن طلب القهوة وارتشفها ببطء سلحفاة مسنة مصابة بالشلل.

قال حسين وهو يشعل سيجارته الخامسة:

- أين صدمة الطفولة يا دكتور؟

- أوه، نعم! صدمة الطفولة، لقد أخذني الحديث، حسنًا، سنعود بالزمن ثلاثة أعوام كي تفهم أصل المشكلة.

- احكي يا شهر زاد!

* * *

توفي والد شويكار قبل عيد ميلادها التاسع بيوم.

مات شهيدًا مع أبطال حرب النكبة في فلسطين، وكانت خاتمته طاهرة كقلبه، مات في أثناء تأدية صلاة الجمعة حين هجم الصهاينة

(*) «فتى صغير»: أغنية چاز لفرقة ذا كريستالز.

على مسجد الدراويش بقرية الدوايمة، وأطلقوا الرصاص على كل مَن في بيت الله، فمات والد شويكار ساجدًا.

ولكن، قبل أن يموت ببضعة أسابيع، دخل إلى غرفتها وهو يحمل لوحة عجيبة وضعها أمامها.

كانت لوحة لصبي يرتدي قميصًا أسود وسروالًا قصيرًا، له عينان فارغتان لا حدقة ولا مقلة فيهما، تقف بجواره دمية في مثل طوله، عيناها زرقاوان فاتحتان، وشعرها أحمر وهاج، ترتدي ثوبًا أسود مُرقعًا، تستند إلى زجاج يعكس ما خلفه من ظلام دامس.

حدقت شويكار الصغيرة إلى اللوحة، ووالدها يقول:

- ما رأيكِ فيها يا كيكي، لقد وجدتها ملقاة خلف المقهى، ما رأيكِ في هذه العروسة اللطيفة، ألا تشبه دميتكِ المفضلة؟

- بلى، هل يمكن أن أحتفظ بها؟

- بالتأكيد يا حبيبتي.

علق لها اللوحة على الحائط المقابل لسريرها، وظلت شويكار تحدق إليها كل ليلة حتى تغفو.

ولكن في الليلة التي عرفت فيها خبر استشهاد أبيها، ظلت تبكي بمفردها، فوالدتها تلقت الخبر وخرجت إلى أقرب حانة، ككل ليلة منذ أن ترك جلال بيته وخرج يحارب.

بقيت اليتيمة الصغيرة تذرف دموعها الحارقة بلا انقطاع، وهي على فراشها تحدق صوب اللوحة التي كانت آخر ما أهداها أبوها، إلى أن لمحت شيئًا: الصبي صاحب العينين البيضاوين باللوحة يتحرك.

حرك جفنيه، أصابعه، يديه ثم ذراعيه، قدميه ثم ساقيه، بُعِثَ!

أخرج قدميه من اللوحة ووثب يجر خلفه دميته الصهباء، فارتعدت شويكار.

أطلقت صرخة استنجاد، ولكنها تعلم أنها وحيدة في هذا البيت الموحش، ولا فائدة من صرخاتها التي لن يسمعها أحد.

أحكمت قبضتها على الغطاء في هلع وهي تراقب الصبي يقترب أكثر فأكثر، حتى وقف عند طرف سريرها، صعد الصغير على فراشها وجلس بجوارها، فظلا يحدقان ببعضهما إلى أن مدَّ يده وربت على كتفها بحنان لا يتناسب مع هيئته المرعبة.

كان فريد هو أول ما سقط من مزهرية شويكار المتشرذمة، رفيق هادئ يربت على كتفها، ويقلل توترها ومخاوفها، وقد كان أليفًا أغلب الوقت، إلى أن انتقلت شويكار إلى الزمالك وأصرت أن تنقل معها لوحة فريد وتعلقها أمام فراشها أيضًا.

شهد فريد على وصول شويكار إلى المراهقة، وتمضية لياليها تكتب في مذكراتها بخطها الرديء عن حبها لسليم، حتى لم يعد يتحرك من لوحته ولا يجلس بجوارها على السرير هو ودميته؛ لأن شويكار صار لها ونيس غيره.

ولكن بعد مشاجرة درية وكريمان على السلم، عادت شويكار إلى وحدتها، لا خليل ولا أنيس لها غير فريد.

يجلس بجوارها على السفرة وهي تتغدى بمفردها؛ لأن أمها تقضي الليل بين كلوب محمد علي وشقق صديقاتها اللاتي قلبنها لصالات قمار سرية، وتمضي النهار كله نائمة، تترك شويكار تنظف وتطهو لتُطعِم نفسها وأمها.

لذلك لا يقاسمها اللقمة غير فريد ودميته، ثم يلعن معها ساعة وصول عشيق أمها، ويسير معها وهي تحمل كتبها، ويخرج معها من البناية.

لم تعد تقرأ على السلم، حتى لا تلتقي بدرية ولو مصادفة فتُسمعها كلمة تسمم بها بدنها وتهين كرامتها.

سار فريد معها تحت شمس ظهيرة صيفية حارة خانقة، يجر دميته الضخمة خلفه على الأرض، حتى وصلا إلى مكتبة السيد ميكائليان.

دخلت وجلست على السلم الحلزوني، تشرب عصير الليمون البارد، وتتصفح الروايات الجديدة، حتى تختار ما ستشتريه، إلى أن انتبهت إلى أزيز باب المكتبة يُفتح.

التفتت عن يمينها حين التقط أنفها عطرًا جعل ضربات قلبها تتسارع.

كان سليم يقف عند الباب، متفاجئًا بوجود شويكار، فقد مضى شهر من دون أن يتبادلا ولو حتى التحية.

بقيت تنظر إليه بشجن، حتى شعرت أنها ستبكي من القهر، فقال لها فريد:

- اخرجي!

أخذت بنصيحته، تركت كتبها واتجهت صوب الباب لتهرب من سليم.

ابتعدت بضع خطوات عن المكتبة ودموعها تفر منها، ولكن سليم لحقها وأخذ يناديها.

تجاهلته، لم تُرد مواجهته، ولكنه جذبها من مرفقها برفق قائلًا:

- انتظري، أتهربين مني؟!
- أنت الذي تجاهلتني شهرًا بعد أن أهانتني أمك!
- وأملكِ أهانت أمي.
- أهذا يبرر تهربك من رؤيتي؟ هل قررت أن تنفذ أوامر أمك وتتوقف عن مقابلة فتاة أمها سيئة السمعة كما تقول؟!
- أنتِ لا تفهمين شيئًا، أنا لم أخرج من البيت منذ شهر لأننا في مأزق؛ هيدي هربت مع هذا اللعين سيران.

أدركت حماقتها.

حين رأت هيدي تخرج في الليل مع سيران، ظنت بكل براءة أنهما سيسافران إلى الإسكندرية معًا لقضاء أيام الصيف على سبيل تغيير الجو، لم تتوقع أنها هربت من أهلها.

هذا فسر رؤيتها ذات ليلة لوالد سليم وهو يدخل البناية، ثم سماعها له وهو يصيح في درية غاضبًا.

قال سليم:

- لقد أسقطتنا في الوحل.
- ولكنها هربت مع من تحبه، لقد كافحت وضحت من أجل حبها.
- من أجل أنانيتها، تخلت عن عائلتها وأقبلت على أكثر التصرفات قسوة، تركت بيتها من أجل وغد أحبها خلسة وسيتزوجها خلسة، فالرجل هو الذي يعلن ويواجه ويحارب على الملأ من أجل محبوبته، لا يُقلبها على عائلتها ويهرب معها في منتصف الليل. كم أتمنى أن أجدهما حتى أقتلهما بيديَّ هاتين!
- اهدأ يا سليم، أنت تقول هذا فقط لأنك خائف على أختك.

- بل لأنني غاضبٌ منها، لن أسامحها ما حييت، خانت ثقتنا وحبنا لها لتشرد مع ذاك الجرذ الدنيء.

ارتعشت يداه ولمعت عيناه من فرط الغضب، فلانَ قلب شويكار وهمَّت أن تمسك بيديه لتهدئه.

اقترب فريد منها وهمس إليها في أذنها:

- دعيه وارحلي!

ودت أن تخرس فريد، ولكنها لا تريد أن تفزع سليم بحقيقة أنها ترى ما لا يراه غيرها.

جذبها فريد من يدها بعنف وقال بحدة:

- لقد تخلى عنكِ عند أبسط تحدٍّ، ليس بمثل ربع جرأة سيران ليتمسك بكِ، اتركيه!

أطرق سليم إلى الأرض، يمتلئ فؤاده حسرة وقهرًا ومرارةً، حتى إن عينيه اغرورقتا بالدموع.

- لا تشفقي عليه، لا تسمحي لقلبكِ أن يلين مجددًا، سيخذلكِ، سيكون شقاءكِ!

مسح سليم عينيه بظهر كفه، ثم نظر إليها وقال بصوت حزين:

- كرهتُ غيابكِ يا كيكي، هلا عذرتِني عن الفترة الماضية؟

خلصت شويكار يدها من قبضة فريد، وألقت بنفسها بين ذراعَي سليم.

عانقها بشوق شجي وهو يربت على ظهرها بحنان، فأراحت رأسها على صدره وهي ترى فريد ينظر إليها بغضب واستنكار، ثم يكمل طريقه بدميته ويبتعد عنها أكثر فأكثر حتى تلاشى.

تنفست شويكار الصعداء وهمست إلى سليم قائلة:

- لا تتركني مرة أخرى، وحدتي تخيفني.

- متى يمكننا أن نقابل أملكِ؟

- ماذا تقول؟

- أبي عاد من رأس التين فور أن بلغه خبر هروب هيدي، تشاجر مع آنَّا ولامها على تعنتها، وحين عرف بشأن مشاجرة أملكِ معها، وأن سببها هو حبنا، قال إنه لن ينتظر حتى يخسر ابنًا ثانيًا بسبب عناد أمي.

- ما معنى ذلك؟

- معنى ذلك أن أبي وافق أن نتقدم لخطبتكِ.

* * *

وضعت كريمان أحمر الشفاه الداكن، وارتدت أغلى مجوهراتها، وانتقت أغلى ثوب في شيكوريل لترتديه الليلة.

وقفت أمام المرآة تضع اللمسات الأخيرة على طلتها استعدادًا لمقابلة سليم ووالده وهي تشرب الجِن.

أتت شويكار تطرق بابها، مرتدية فستانًا أبيض رقيقًا تتزين حمَّالتاه بزهور وردية صغيرة، وقد فكت شعرها وصففته لنفسها ووضعت أحمر الشفاه بعد موافقة أمها.

راقبت أمها، كانت شديدة الأناقة، بهية الطلة، ولكن نظراتها تفضح وضاعتها التي لن تقوى أرقى بيوت أزياء الموضة على إخفائها.

ارتشفت كريمان من كأسها، ثم نظرت إلى شويكار وقالت:

- ما بكِ تقفين كالتمثال؟

- معجبة بثوبكِ.
- وهل الفتى الذي أتى لخطبتكِ يقدر على إهدائكِ ثوبًا مثله؟
- لا أنتظر منه هذا.
- وماذا تنتظرين من الزواج يا ابنة جلال؟ أكل المِش بدوده؟
- إن كنتُ سأقتسمه مع من أحب، فلا أبالي!
- حمقاء وشؤم، مثل أبيكِ!
- لا تذكري أبي بسوء، على الأقل ليس خائنًا ونذلًا مثل عشيقكِ اللعين.

لا تدري من أين أتت بتلك الجرأة، لم يعلُ صوتها قَطُّ على أمها، مهما كانت تضربها وتسبها وتقسو عليها.

لا تعرف من كانت صاحبة هذا الصوت وتلك الكلمات، ولكن شويكار أدركت بشاعة ما قالته، فوضعت يدها على فمها مصدومة من نفسها وقالت:

- أنا آسفة يا أمي، لا أعرف كيف قلتُ هذا الـ....
- ادخلي غرفتكِ ولا تخرجي منها، إلا إذا قلتُ لكِ.
- ماما، أرجوكِ، أنا لم أطلب منكِ شيئًا في حياتي كلها، كنتُ أرضى بما تتصدقين به عليَّ من مأكل وملبس ورعاية، ولكني أترجاكِ هذه الليلة، لا أريد شيئًا من هذه الدنيا سوى سليم، أرجوكِ لا تحرميني منه، اعتبريها أفضل وأسرع طريقة لتتخلصي مني نهائيًّا كما تتمنين.
- تحبينه إلى هذه الدرجة؟
- أحبه أكثر من نفسي.

ابتسمت كريمان ابتسامة ساخرة، وارتشفت ما بقي من كأسها وهي تقول:

- مغفلة!

رن جرس الباب، فسعلت كريمان ليصفو صوتها، وقالت بنبرة آمِرة صارمة:

- كما قلت، ابقي بغرفتكِ!

أطاعت أمها حتى لا تثير غضبها بأي طريقة فتنتقم منها برفض سليم.

دخلت غرفتها، بينما عدلت كريمان حمرة خديها، ووضعت سيجارتها في مبسمها، وأشعلتها وهي تنهض بغرور لتفتح الباب لسليم ووالده.

كان والد سليم يشبهه إلى حد ما، نفس لون العينين الخضراوين، والأنف الدقيق، ولكنه أسمر وشعره بني متموج، وليس أشقر ناعمًا كشعر ابنه.

كان أنيقًا، يرتدي بدلة سوداء ورابطة عنق وردية، ويحمل علبة شوكولا فاخرة، يجاوره ابنه ومعه باقة كبيرة من الورود الحمراء.

ابتسم والد سليم البشوش قائلًا:

- سعيدة يا كريمان هانم!

ردت التحية بفتور، ثم أشارت إليهما بالدخول.

دخلا وجلسا على الأريكة المقابلة لمقعدها، بينما وقفت شويكار خلف باب غرفتها تتابع ما يدور بقلق جعلها تسمع أطيط أمعائها.

نفثت كريمان دخانها واضعة ساقًا فوق الأخرى، وهي تتأمل ضيفيها بجلف، ثم تقول:

- أتستكبر درية أن تدخل بيتي؟

أجابها رشدي:

- حاشا لله يا هانم، كل ما في الأمر أنها مرهقة بعض الشيء، ولكنها سترافقنا في الزيارة القادمة، لا شك، ألسنا أهلًا؟

- لا تستبق الأمور يا سيد رشدي، أنا لم أوافق بعد.

استقبل صلفها بابتسامة مرحة وهو يقول:

- لماذا يا هانم؟ سليم ابني تخرج في التوجيهية وتقدم لمدرسة الطب، بإذن الله سيعمل معي طبيبًا في قصر رأس التين براتب يوفر لابنتكِ حياة كريمة، مَن يرفض عريسًا كابني؟

- لماذا تراوغني يا محترم؟

- حسبكِ يا هانم، أنا رجل مستقيم كالألف، لا أعرف مراوغة وخداعًا!

- لماذا إذن تقول عليه ابنك، وأنا وأنت نعرف أنه ليس كذلك!

لم تفهم شويكار إلامَ ترمي أمها، فارتبكت ارتباكًا جعلها تسمع فريد يناديها، وتشعر به يجذب طرف ثوبها.

تجاهلته، لم تلتفت حتى وراءها، ظلت تتابع سليم وهو يكور قبضته، والدكتور رشدي يعدل رابطة عنقه ويقول:

- صحيح أنني لم أنجب سليم، ولكنني ربيته منذ أن كان قطعة لحم حمراء، ما العيب في ذلك؟

- العيب أن أباه لم يأتِ ليطلب ابنتي، كيف لي أن أزوج وحيدتي لمن لا أعرف أصله وفصله؟ ابنتي ليست بضاعة معيبة حتى أقبل لها زوجًا مجهول النسب.

لم يحتمل سليم أكثر من ذلك، ضرب بيده على ركبته ونهض من مقعده يصيح فيها:

- مَن الذي تقولين عنه مجهول النسب يا...

- سليم!

بمجرد أن شعر سليم بيد أبيه تقبض على رسغه، ابتلع كلماته وصمت، ولكنه لم يتخلص من غضبه الذي يوغر صدره.

نهض رشدي عن مقعده وهو يقول بحزم:

- سليم ابني هو أنبل رجل يمكن أن تقابله ابنتكِ، لا أدري أي معلومة باطلة وحكاية آثمة تعرفينها عن زوجتي، ولكني أعرف الكثير عنكِ يا كريمان محفوظ، ولولا أن الله شاء أن يعلق فؤادَ ابني بابنتكِ التي لا ذنب لها في الدنيا سوى أنكِ أمها، ما كنت دنَّست حذائي بدخول بيتكِ، ولكن يبدو أنكِ تصرين على جر ابنتكِ إلى بِركة الوحل التي ترتعين فيها.

صاحت فيه بسوقية:

- أنا أرتع في الوحل يا زوج درية يا منحط؟! وشرفي، ابنك هذا لن يطول ظفرًا من ابنتي طالما أتنفس! اخرجا من بيتي قبل أن أمحوكما من على وجه الأرض!

رمقها سليم بغضب، بينما ابتسم رشدي الذي يعرف أنه ضرب وترًا حساسًا جعلها تحاول إهانته بأي طريقة حتى تشفي غليلها.

خرجا من الشقة وتركا كريمان تسب وتلعن، حتى انتشلت زجاجة الجِن وارتشفت منها، عسى أن يهدئ الكحول أعصابها، ولكنه زادها غضبًا.

بقيت شويكار في غرفتها لا تصدق ما حدث للتو، فحديث السيد رشدي وكريمان لم يستمر لأكثر من خمس دقائق، خمس دقائق كانت كفيلة بأن تقطع كل آمالها في الحياة.

أغلقت الباب، ووقفت أمام اللوحة الفارغة، وفريد بجوارها يهمس إليها:

- إلى متى ستسمحين لتلك العاهرة بتخييب آمالكِ؟

سدت أذنيها حتى لا تنصت إلى وسوسته، ولكن كريمان اخترقت خلوتها ودخلت ثائرة تصفعها بقوة مباغتة جعلت شويكار تسقط على الأرض أسفل نافذة غرفتها المفتوحة.

وقفت تصيح فيها:

- أنا كريمان محفوظ أتعرض للإهانة في بيتي بسببك أنتِ؟ خُدام القصور يبعثرون كرامتي بسبب مغامرتكِ العاطفية التافهة! والله لأرسلن سليم هذا وأسرته الحقيرة إلى ما وراء الشمس، سأمحقه محقًا هو وأباه عديم الشرف، وأمه العاهرة! وأنتِ، إن لمحتكِ خارج غرفتكِ، فسألحقكِ بأبيكِ وأخلِّص نفسي من همك!

خرجت من الغرفة وتركت شويكار ملقاة على الأرض، تحدق إلى اللوحة وقد جَرح خاتم كريمان الماسي شفتيها وهي تصفعها فدميتا.

جلس فريد بجوارها يربت على ظهرها ورأسها، ليهون عليها لساعات طويلة.

بقيت جامدة، لم ترمش، لم تتحرك، بل كانت بالكاد تتنفس، حتى سمعت صوتًا يناديها، ولكنها لم تستجب؛ فقد خدرتها الصدمة.

مال فريد عليها، أخذ يوسوس إليها:

- نقتلها؟ على الأقل ستصيرين المتحكمة الوحيدة بقدركِ.

- لا.

- لا أحد يعرف مصلحتكِ بقدري، هيا.

- لن أقتل كريمان.

- يمكننا أن نفعلها من دونكِ، ارتاحي وأنا وشوشو سننهي المسألة.

- لا تستدعِها!

- ثقي بي ولو مرة، هيا.

نهضت عن الأرض، ووقفت، ألقت نظرة صوب الشباك، فوجدت سليم يقف أسفل نافذتها يقول:

- مع من تتحدثين يا كيكي؟

اقتربت منه بابتسامة مثيرة، ثم غمزته بطريقة غريبة على سلوك شويكار، وقالت:

- كيكي وشويكار نائمتان، هششششش!

وضعت إصبعها على شفتيها وهي تطلب منه الصمت، ثم خرجت من الغرفة وتركته ينظر إليها مشدوهًا.

سارت بخطى بطيئة نحو غرفة كريمان يتبعها فريد ودميته، دفعت الباب بعنف فوجدتها نائمة في سريرها تجاورها زجاجات الويسكي والجِن.

فتحت النور، فاستيقظت الأم وفركت عينيها، لتجد ابنتها واقفة على عتبة بابها بابتسامة مستفزة.

نهضت عن سريرها واندفعت صوب وحيدتها لتصفعها؛ لأنها خالفت أمرها وخرجت من الغرفة، بل وتجرأت على إيقاظها، ولكنها تفاجأت بها تتصدى لصفعتها وتُحكم قبضتها على معصم كريمان الثملة الناعسة، وتدفعها بعنف صوب الحائط.

ضرب فريد الأرض بقدميه الصغيرتين، فإذ بها تهتز، وكأن زلزال نهاية العالم قام، فسقطت زجاجات العطر عن مائدة زينة كريمان، وتهشمت زجاجات الخمر.

صاحت كريمان:

- ماذا تفعلان، أجُننتما؟

- إنها ساعتكِ أيتها الساقطة!

- أجُننتِ يا شويكار؟!

- اسمي شوشو!

لكمَ فريد الحائط بقبضته الصغيرة فتشقق الجدار من الأرض حتى السقف، ثم اشتعلت فجأة النيران بالغرفة.

أخذت ألسنة اللهب تتصاعد وتبتلع السجاد، فاستنجدت كريمان:

- حريق، حريق، أنقذني!

ركلت شوشو فتحررت من قبضتها، وكادت أن تنهض، ولكن فريد حرك يده في الهواء كأنه يتحكم في حركة كريمان بخيط خفي، فألقيت صوب السرير، وارتطم رأسها بطرف الفراش ففقدت وعيها.

وقفت شوشو التي وُلِدت الليلة بعد أيام من الوقوف في زاوية عقل شويكار، ومراقبة ما تتلقاه من أذى وإساءة وقلة احترام من أمها التي دنَّست ذكرى أبيها.

اليوم، طفح كيل شوشو وقتلت سلبية شويكار وجُبنها، وقررت أن تتصدر المشهد لتأخذ الموقف الصحيح نيابة عنها تحت إشراف فريد، الذي يقف بجوارها الآن بدميته، يسند رأسه الصغير على مرفقها وهما يشاهدان النيران تلتهم جثة كريمان.

٧

Jailhouse Rock(*)

أطفأ حسين سيجارته بالمرمدة وهو يقول لوجدي:

- إذن، بجملة الجرائم، شويكار أحرقت أمها في مراهقتها.

- أخبرتني وقتها أنها غابت عن الوعي بعد أن صفعتها أمها، آخر ما تذكره أن فريد وسوس إليها لتنتقم من أمها، ثم حين استفاقت، وجدت سليم يحملها ويركض بها خارج شقتها التي تحترق.

- وكيف عرفت أنت تلك التفاصيل؟

- شوشو روتها لي.

- يا صبر أيوب، شوشو، والتي هي أصلًا شويكار، قتلت بالفعل أمها بتحريض من طفل تلك اللوحة الملبوسة المزعومة، لماذا لم تُحبس شويكار أو شوشو أو الجن الأزرق بتهمة قتل كريمان؟!

- لأن جريمة القتل تلك هي ما صوره مرض شويكار لها، العقل

(*) «روك السجن»: أغنية وفيلم من بطولة وغناء إلفيس بريسلي.

البشري أمكر مما تتخيل، مرضها وهلاوسها أقنعاها بأن فريد أعطاها قوى خارقة قتلت بها كريمان، ولكن كما قلت لك، ما هذه سوى ضلالات، لم تهتز الأرض ولم تنشق الجدران، ولم تشتعل النيران من عدم، ما أثبته التحقيق وقتها، أن الحريق سببه سقوط عود كبريت مشتعل بجوار الكحول المسكوب على الفراش، إثر سقوط زجاجات الخمور والعطور، حادثة وارد وقوعها في غرفة امرأة تدخن وتشرب كل ليلة على سريرها حتى الثمالة.

ارتشف حسين من كوب مائه، فقد جفَّ حلقه من مجادلة الطبيب، ثم قال:

- ماذا حل بها بعد وفاة أمها؟

- جدها نقلها إلى هنا، باشرت علاجها لعدة سنوات، التزمت بالخطة العلاجية فخفتت ضلالاتها وقلَّت هلاوسها وحُجم ظهور شوشو، حتى خرجت شويكار وعادت للعيش في بيت والدها القديم في السيدة زينب بمفردها.

- لماذا لم تتزوج سليم؟

- لأنه اختفى بعد إيداعها في المشفى بشهر، لم يترك لها سوى خطاب فيه كلمة واحدة: انتظريني.

* * *

القاهرة، ١٩٥٨

ظلت تنتظره ست سنوات.

ست سنوات، أنهت فيها دراستها وأصبحت ممرضة، تحلم كل

ليلة بأن يفتح سليم باب غرفة استراحة الممرضات ويدخل عليها بالبالطو الأبيض، وقد صار طبيبًا مرموقًا كما كان يطمح.

لم تمر ليلة من دون أن تذكره، من دون أن تفض الجواب الذي يحمل خط يده المنمق، تتأمل كل حرف في كلمة «انتظريني»، وتبحث عن عبقه في الورقة التي تركها لها في مكتب استقبال المشفى من دون حتى أن يراها للمرة الأخيرة.

انتظرت طويلًا، ولم تمانع أن تنتظر لفترة أطول، ولكن الحنين والشوق قتلاها كلما قرأت رواية لأجاثا كريستي، وكلما شاهدت فيلمًا.

تدخل قاعة السينما بمفردها، فيخيل إليها أنه يجلس بجوارها، ورائحته العطرة تغزو أنفها، تشعر بأصابعها بين كفيه، تسمع همسه وهو يعلق لها على الفيلم.

في وضع مختلف، كانت لتظن أنه تخلى عنها، لظنت أنه لم يتحمل الارتباط بفتاة يتيمة أمها سيئة السمعة فحسب، بل مجنونة جدها أودعها في مشفى المجاذيب، ولكنه طلب منها الانتظار، وما كانت شويكار لترفض طلبًا لحبيبها.

بقيت على هذه الحالة، تفتح نافذتها لكيكي فتخرج تهيم عشقًا وشوقًا في سليم، وتبكي فراقه حتى يكاد قلبها أن يتوقف، فتغفو وتستيقظ شويكار مكانها لتذهب لعملها وتجد لقمة خبز تأكلها.

شويكار تحمل مريضًا، تضمد جرحًا، تخفف ألمًا، وكيكي غارقة في تفاصيل سليم وتتساءل كيف يبدو شكله الآن بعد ست سنوات، لا بد أن اكتملت فيهن ملامح رجولته.

أربَّى شاربًا؟ هل زاد طوله؟ كيف صارت تسريحة شعره الآن؟

ظلت كيكي في غرفة الاستراحة تكتب شعرًا وحبًّا في دفتر مذكراتها، حتى انتشلها نداء الدكتورة عصمت من خيالها.

استفاقت شويكار، تاهت للحظة لا تدري ماذا كان يحدث في غفوتها التي استغلتها كيكي، فنظرت حولها حتى انتبهت إلى عصمت ذات البشرة الخمرية والعينين الرماديتين الواسعتين والشعر القصير ذي الغرة الكثيفة، وهي تلقي بنفسها على الكرسي المقابل لها من فرط الإجهاد وتسألها:

- ماذا تفعلين هنا يا شويكار؟ ألم تنتهي ورديتكِ منذ ساعتين؟

- ماذا سأفعل إذا رحلت؟ أحادث جدار بيتي؟ على الأقل هنا أنشغل بالحديث معكِ.

- تعملين هنا لورديات متتابعة، أو تجلسين في البيت، أهذه حياة تليق بفتاة يافعة وجميلة مثلكِ؟!

- أذهب أحيانًا إلى السينما أو التياترو، و...

- بمفردكِ، لماذا تنعزلين عن الناس يا حبيبتي؟!

- وجودي بين البشر يضرُّ حالتي الصحية.

- فتيات هذا الجيل وفلسفتهم الكئيبة! لا أطيق رؤية تلك الملامح المتجهمة على هذا الوجه الأسمر الحلو، هيا، اذهبي إلى حفل أو سهرة، وتعرفي على شاب وسيم في مثل سنكِ، أو اصنعي على الأقل صداقات جديدة، ألم تسأمي الجلوس مع المسنين مثلي؟

- والله يا دكتورة إن قلبكِ لأكثر شبابًا ومرحًا مني.

- دعكِ من كلامكِ المعسول هذا، اذهبي لتغيير ملابسكِ واذهبي إلى بيتي، ابني المشاكس استغل سفر أبيه إلى الإسكندرية وعملي في الوردية الليلية وقلب البيت صالة رقص كعادته، مديحة وخطيبها سيذهبان إلى الحفل، رافقيهما وستكون طريقة جيدة لأجد من يشي لي عما يفعله هذا الشقي في غيابي.

* * *

أوقف خطيب مديحة أوتوموبيله عند منزل دكتورة عصمت، فنزلت شويكار، ولكن بقيت مديحة فسألتها:

- ألن تنزلا؟

- سنسهر الليلة في جروبي.

- لماذا لم تخبريني قبل أن نصل؟ ماذا سأفعل الآن وأنا لا أعرف أحدًا؟

- دكتورة عصمت استحلفتني أن أوصلكِ بنفسي.

- يا مديحة أنا...

- كفاكِ جبنًا، إنه مجرد حفل، لن يعضكِ أحد.

ضحكت ضحكة سخيفة، ثم انطلقت وخطيبها وتركا شويكار تقف بمفردها أمام ذاك البيت المترف، المكون من طابقين على الطراز الأوروبي، وتخرج منه ضحكات رنانة وموسيقى صاخبة يهتز لها الزجاج.

عبرت بوابة البيت، فوجدت نفسها في حديقة خضراء فسيحة، يتوسطها مسبح يرقص الشباب على أطرافه، وهم يتناولون الكحوليات بمختلف أنواعها، ويرقصون على إيقاع الأغاني الشبابية الصاخبة.

ظلت تحوم حول المنزل كهرةٍ تائهة، على أمل أن تجد وجهًا مألوفًا أو شيئًا يسليها، حتى دخلت إلى البيت الذي كان أكثر ضجة وزحامًا وهرجًا ومرجًا من الحديقة.

خلعت معطفها بسبب الحرارة المرتفعة من تلاحم الراقصين، وعلقته على الشماعة القريبة من الباب.

تخطت الجموع الثملة التي تتمايل بمرح أكثر من اللازم لتصعد السلم، عسى أن يكون الطابق الثاني أكثر هدوءًا.

وقد كان ظنها في محله، كانت الأعداد أقل كثيرًا، فسارت هائمة على وجهها، حتى لمحت علبة سجائر ملقاة على المنضدة بجوار غرفة المعيشة.

تلفتت حولها لتتأكد أن ما من شخص قريب يتابعها، ثم فتحت العلبة وسرقت سيجارة، من دون أن تعلم أن هناك من لمحها متلبسة، وبقي يتأمل تفاصيلها!

ثوبها القرمزي الرقيق الذي يكشف ظهرها، شعرها القصير الذي لا يلامس كتفيها الناعمتين، وأهدابها الكحيلة وطلاء أظفارها الأحمر، وشفتيها الكرزيتين التي تضع بينهما السيجارة المسروقة.

وقفت في الزاوية الهادئة بالقرب من المرحاض، وهنا أدركت أنها لصة فاشلة، فقد سرقت السيجارة من دون مِقْدحة أو عود كبريت.

زفرت ووقفت تلعن غباءها وحظها العاثر، حتى وجدت يدًا تخترق مساحتها الشخصية وتمتد إليها بمقدحة ذهبية وصاحبها يقول:

- أتسمحين لي؟

التفتت لتجد أن صاحب اليد شاب خمري مفتول العضلات،

شعره أسود كثيف يلمع أسفل لمبات الطرقة الخافتة، ويرتدي سروالًا أسود وفانلة قطنية بيضاء، فوقها سترة جلدية أنيقة كإلفيس بريسلي في أفلامه.

كان يحمل كأسًا من الويسكي، وينفث دخان سيجارته التي يعانقها بشفتيه وهو يعرض عليها مقدحته الغالية.

بدا لها مألوفًا، ولكنها لم تحدد أين رأته من قبل.

هزت رأسها موافقة، فأشعل لها سيجارتها وتركها تدخن هنيهة، ثم سألها:

- ألا تذكريني؟

- تبدو مألوفًا.

- تقابلنا منذ سنوات عديدة، كنتِ مع هيدي في النادي.

لمعت عيناها، فظن أنها تحمست لتذكره، لم يفهم أن هذا البريق سببه أنها سمعت اسم شيء يربطها بسليم.

- كيف تعرف هيدي؟

- أنا صبري، زميل سليم في تمارين الملاكمة، وأنتِ شويكار، أليس كذلك؟

- بلى، فرصة سعيدة، هل تقابل سليم؟ رأيته قريبًا؟ أتعرف أين يقيم؟

- كنت سأسألكِ الأسئلة نفسها؛ فأنا لا أعرف عنه شيئًا منذ أن أرسل لي خطابًا يقول إنه تزوج، ولكنني لم...

خفت صوته، لم تعد تسمع كلمة مما يقولها بعد أن قال إن سليم تزوج.

بصعوبة بالغة، استدرك عقلها الجملة، فقالت بصوت مهزوز:

- تزوج؟!

- نعم، عاد إلى تركيا وتزوج ابنة خالته، كانت رغبة أمه، ألم تكوني تعرفين؟

وقعت الكلمات على أذنيها وقع الصاعقة، فاغرورقت عيناها بالدموع، واعتلت الصدمة ملامحها.

تركته قبل أن يكمل كلامه، ودخلت إلى المرحاض بيدين مرتعشتين.

أغلقت الباب خلفها، وألقت سيجارتها في الحوض ثم شعرت بالوهن، فجثت على ركبتيها، وراحت تبكي بقوة أرعشت قلبها، وزادت نبضاته المتخبطة حتى كاد أن يخرج من صدرها.

تثاقلت أنفاسها والحزن ينهشها، فأخذت تشهق باحثة عن هواء يهدئ أنينها، حتى شعرت بيد تربت على كتفها.

التفتت لتجد فريد يقف بجوارها ويقول:

- حذرتكِ، هذا التركي سيكون سبب شقائكِ!

صرخت فيه بجنون:

- ابتعد عني!

طرق صبري بابها قلقًا:

- شويكار، أنتِ بخير؟

ظلت تلهث بعنف، شعرت أنها تختنق، قلبها يضرب صدرها، جسدها كله يرتعد، كل شيء يدعوها أن تستسلم لهزيمتها وتنهي حياتها الآن؛ لهذا كان يجب أن تستريح قليلًا وتترك القيادة لشوشو.

توقفت رعشتها، انتظمت أنفاسها وأمسكت عن البكاء، ثم وقفت أمام المرآة تعدل زينتها.

فتحت الباب ووقفت أمام صبري، الذي تأمل ابتسامتها الواسعة الواثقة من نفسها، ونظرتها المليئة بجرأة أنثوية لا تتناسب أبدًا مع حمرة البكاء التي غزت عينيها وأنفها الدقيق.

قال مقتربًا منها أكثر من اللازم:

- آسف، كنت أظنكِ تعرفين أنه تزوج، و...

توقف عن الكلام حين فاجأته بأخذ كوب الويسكي منه، وابتلاعه على دفعة واحدة.

زفرت بعمق من جرعة الكحول الحارقة، ولكنها سرعان ما ابتسمت وسألته بنبرة جذابة:

- ألديك المزيد؟

ضحك وأمسك يدها من دون استئذان، وقادها إلى الطابق الأرضي.

سحب زجاجة ويسكي وكأسين، صب فيهما، أفرغاهما في جوفيهما، ثم صب المزيد.

تشاركا السجائر والخمر، والنكات والمجاملات، وطال حديثهما همسًا في أذنَي بعضيهما؛ حتى لا تشوش الموسيقى على تلك المغازلة، التي وصلت إلى حموتها حين سمع صبري صوت إلفيس بريسلي يغني «Jailhouse Rock».

أمسك عن الكلام، أطرق بأذنيه وكأن أتاه نداء من عالم ثانٍ.

نهض عن مقعده وحرك وركيه وقدميه على إيقاع الأغنية، مقلدًا حركات إلفيس بمهارة أبهرت شوشو، وجعلتها تصفق له وهي تضحك.

أمسك يدها وهو يقول:

- هيا، إنها أغنيتي المفضلة!

جذبها نحو ساحة الرقص، فانطلقت معه في حماس وجموح، وتركت جسدها ينطلق مع الإيقاع، واستسلمت ليدَي صبري الذي ظل يلفهما بخفة كأنه يعزف على جيتار خفي، ثم حملها بذراعيه الشديدتين، فتمايلت ودارت، وهزت كتفيها وخصرها وساقيها الملفوفتين وهما يدخنان سيجارتيهما.

طالت ساعات الرقص والتدخين والثمالة، حتى انفضت الجموع الشبابية، ولم يبقَ غير قلة بداخل البيت، بينما بقي صبري وشوشو في الحديقة يجلسان عند طرف المسبح برفقة زجاجة الويسكي.

خلع سترته الجلدية ووضعها على كتفيها حين استشعر أن البرودة تسللت إلى بدنها الضئيل، فاختلست النظر إلى عضلاته النافرة من فانلته القطنية وسألته:

- ماذا تفعل غير الحفلات والرقص؟

- أنا ملاكم، بطل الجمهورية ست مرات على التوالي، ألم تخبركِ أمي؟

- ربما، أعرف أنها تتباهى ببطولاتك، ولكنها لا تتحدث كثيرًا عن سهراتك الماجنة.

- ألا يستحق البطل أن ينفس عن نفسه من وقت لآخر؟

- بطل في الصباح وراقص في المساء، لم أكن أعلم أن ابن الدكتورة عصمت متعدد المواهب.

ضحكت ثم استلقت على ظهرها فوق العشب، تسند رأسها إلى ذراعها وتتأمل النجوم البعيدة.

استلقى صبري بجوارها يقول:

- لم أتخيل أنكِ مرحة إلى هذا الحد يا شويكار.

- نادِني شوشو، ما الذي جعلك تظن أنني مملة؟

- سليم كان يحكي عنكِ، قال إنكِ دودة كتب، لا أحد يمضي وقته في القراءة إلا إذا كان وحيدًا، فشل في تكوين صداقات حقيقية فلجأ إلى مصادقة شخصيات خيالية.

- ولا أحد يقيم حفلات ضخمة، يوزع فيها الخمر كالماء، إلا إذا كان يعلم أن هذه هي ميزته الوحيدة، ليوقع الفتيات في غرامه.

باغتته بجرأتها ووضوحها، فأخذ يتأمل ابتسامتها المغرورة، ثم سألها:

- وهل نفعت معكِ تلك الحيلة يا شوشو؟

- ربما.

رفع صبري رأسه عن العشب، ومال عليها مستندًا إلى ذراعه، وهو ينظر إليها نظرة ثاقبة فضحت نية اقترابه منها.

شعرت بأنفاسه الساخنة على شفتيها، فدفعته برفق قبل أن تتلامس شفاههما، وقالت:

- أريد السباحة.

ظنها تمزح، ولكنه رآها تنهض عن مكانها، تخلع سترته وتلقيها صوبه بدلال، تُخرج قدميها من حذائها، ثم تركض صوب المسبح وتقفز وهي تصيح بمرح، وتسبح في منتصف ليلة شتوية قارسة.

* * *

تسلل النهار بين الستائر المخملية، وألقى ضوءه على وجه شويكار.

فتحت عينيها وعطست، ثم سعلت بقوة، وسحبت الوسادة الناعمة ووضعتها على وجهها، وانقلبت على جنبها، ولكنها لمحت شيئًا.

رفعت الوسادة عن وجهها ثانية، ثم فتحت عينيها، لتكتشف أنها في غرفة لا تعرفها وعلى سرير لا تألفه.

نزعت عنها الغطاء مفزوعة، فوجدت نفسها ترتدي منامة نسائية مقاسها يزيد على مقاسها بنمرتين.

شهقت واندفعت صوب باب الغرفة الغريبة، وهي تجبر نفسها على استعادة تفاصيل الأمس، آخر ما تذكره هو خبر زواج سليم من غيرها، وبكاؤها في الحمام.

حاولت أن تردم تلك الفجوة الكبيرة في ذاكرتها، وهي تخرج من الغرفة وتكتشف أنها ما زالت في بيت صبري.

سارت في الممر الذي أشعل لها فيه سيجارتها المسروقة، ومرت بجوار المرحاض، ففُتح بابه ورأت صبري يخرج منه وخصره ملفوف بمنشفة كبيرة، ويجفف شعره بمنشفة أخرى، مدندنًا أغنية «Jailhouse Rock».

استدارت شويكار بحياء حتى لا تنظر لجذعه العاري، وصاحت فيه بصوت مزكوم:

– ماذا تفعل؟

– أستحم!

– أقصد لماذا أبقيتني هنا؟ وما هذا الذي أرتديه؟!

- إنها منامة أمي، ما كنت أتركك تنامين بثوبكِ المبلل.
- ما الذي بلل ثوبي؟
- إذن أنتِ منهن؟!
استدارت إليه وسألته بحدة، متجنبة أن تنظر إلى عضلات صدره العاري:
- ماذا تقصد؟
- أقصد أنكِ من الفتيات اللاتي يثملن، ثم ينسين كل شيء.
- أنا ثملت؟
- أليست هذه النتيجة الطبيعية إذا احتسيتِ نصف زجاجة ويسكي يا شوشو؟
- لماذا تناديني بهذا الاسم؟
- قلتِ لي إنكِ تفضلينه.
سعلت بقوة، فاقترب منها يربت على كتفها ويضع يده على جبينها ليجس حرارتها، فقال:
- حرارتكِ مرتفعة جدًّا، قلتُ لك ستصابين بالإنفلونزا.
استنكرت لمسه لها بلا استئذان، فدفعت يده وسألته بغضب:
- ما الذي فعلَته شوشو؟
- قبلتني واعترفت لي بحبها، وطلبت مني أن أتزوجها، ووالدتي موافقة، ما رأيكِ أن نخرج اليوم لاختيار خاتم الزواج؟
شعرت أن فؤادها صعد إلى حلقها فزاد من احتقانه، فضحك صبري بقوة وقال:
- أنا أمازحكِ يا مسكينة، لم يحدث شيء يدعو إلى القلق، سبحتِ

ثم شربتِ المزيد حتى أصابكِ النعاس، فأعطيتكِ منامة أمي وتركتكِ في غرفة الضيوف.

- أمك، يا إلهي، هل دكتورة عصمت...!

- لن أخبرها شيئًا، وإن تحركتِ الآن، فسترحلين قبل وصولها وتعفين نفسكِ من أي حرج.

- حسنًا، أشكرك، أين ثيابي؟

- علقتها في شرفة الغرفة.

هزت رأسها بامتنان وهمَّت بالعودة إلى غرفة الضيوف، ولكن صبري استوقفها بسؤاله:

- هل سأراكِ ثانية يا شوشو؟

* * *

رآها أكثر من مرة، كشويكار وليس كشوشو.

صارت علاقتهما مزيجًا من الصداقة والحب غير المعلَن، علاقة كانت شويكار تحتاج إليها كي تضمد جرحًا غائرًا ما زال يبكيها هي وكيكي ليلًا.

تركته يتسلل إلى حياتها ويغزو أيامها، حتى أتى يوم قرر أن يعلن لها فيه عن نيته لاستيطانها.

كانا بإحدى الحفلات الصاخبة بمنزل صديقه عامر، رقصا ثم ذهب صبري للمرحاض وتركها برفقة زميلتها مديحة.

كانت تشكو إليها من غدر خطيبها الخائن، الذي أنهى خطبتهما، فقالت لها شويكار:

- سيرزقكِ الله بمن هو أفضل منه.

- أهناك من هو أفضل من ابن الدكتورة عصمت يا محظوظة؟!
- أنا وصبري مجرد صديقين، يمكنني أن أقدمكِ إليه إذا أردتِ.
- كفى كذبًا، ألا ترين كيف يتطلع إليكِ؟ سيأكلكِ بعينيه.
- لستُ...
- لستِ ماذا؟ حبيبكِ القديم وتزوج، الدكتورة عصمت وتحبكِ مثل ابنتها، ابنها المثير ومتيم بكِ، لماذا تصرين على تكدير صفو حياتكِ؟ أي مجنونة ترفض وسيمًا رياضيًّا وحيد والدَيه الثريَّين؟

أخذت تفكر فيما قالته صديقتها، حتى انتبهت لشاب نحيل يراقبها بفظاظة وترتسم على وجهه أكثر ابتسامة سمجة رأتها في حياتها.

اقترب منهما حتى وقف أمامها يقول بنبرة ناعسة:

- سعيدة يا هانم.

تمنعت شويكار عن الرد، ولكن مديحة تطوعت فور أن لمحت ساعة يده الذهبية باهظة الثمن، وقالت بابتسامة بلهاء وهي تعدل شعرها:

- يسعد مساءك يا أستاذ.

تجنب الرد عليها، وظل يحدق إلى شويكار متفرسًا حُسنها وهو يقول:

- سبحان من صور هذا الجمال!

تجاهلته، فقالت مديحة متطفلة على تغزله بصديقتها:

- الآنسة مرتبطة يا حضرة.

- ومَن الأناني الذي قرر الاستئثار بهذا الحُسن كله؟

كانت ستوقفه عند حده، ولكنها تفاجأت بظهور صبري من خلف هذا المتحرش وهو يقول له:

- أنا الأناني، أيها الصفيق.

لكمَ المتحرش لكمة محترفة طرحته مغشيًّا عليه، فسكت الجمع ووضعت شويكار يدها على فمها في دهشة.

جذبها صبري من يدها وخرج بها من المنزل تاركًا مديحة تحسدها على حظها.

خرجا إلى الحديقة الخلفية فقالت له بتوتر:

- أكان ضروريًّا أن تضربه؟

- ماذا توقعتِ أن أفعل حين أرى شخصًا يزعجكِ يا شوشو؟

- قلت لك توقف عن مناداتي بهذا الاسم.

- ما خطبكِ، أتلومينني لأنني أدافع عنكِ، لأنني أحاول حمايتكِ؟

- لا أقصد ذلك، كل ما في الأمر أنني لا أريد أن أسبب لك مشكلة مع رفاقك.

- مَن قال لكِ إنني أبالي بهم، ألا تفهمين؟ لو وُضِع البشر كلهم في كفة وأنتِ في كفة، فسيكفيني أن تميل كفتكِ.

أحاط خصرها بذراعه وأردف بابتسامة مغازلة:

- ألم يحنِ الوقت بعد كي تميل كفتي أنا أيضًا في ميزانكِ؟

إنها تلك النظرة التي تخيفها، الطريقة التي يحدق بها إليها متأملًا تفاصيلها، والشهوة تقفز من عينيه.

حاولت أن تتراجع، ولكن ذراعه التي يحضنها بها لم تلِن، اقترب

منها وقبَّل وجنتها وأنفاسه يفوح منها عبق الكحول، فانزعجت ولكنها لم تقل شيئًا.

أرجعت رأسها للوراء لتصده بكياسة، ولكنه مال عليها أكثر حتى كاد أن يلثم شفتيها، فدفعته بعنف كأنه سيلدغها:

- توقف!

تركها تفر من بين ذراعيه، فرجعت خطوتين إلى الخلف، وأخذت تحدق إليه.

وقف في مكانه ينظر إليها بضيق، ثم قال:

- أكره تلك الألاعيب، الليلة الأولى التي قابلتكِ فيها لم تبدي لي بهذا الطهر الذي تتظاهرين به الآن!

- أنا لا أتظاهر بأي شيء، كيف تجرؤ على محادثتي بهذه الطريقة؟!

همَّت أن ترحل، ولكنه جذبها من يدها بعنف وقال:

- أعطيني مبررًا واحدًا لتهرُّبكِ مني، أتعرفين كم فتاة تتمنى فقط أن ألقي عليها التحية؟!

- يا لك من مغرور مثير للشفقة!

دفعته جملتها إلى حافة الغضب، فأمسكها بعنف وثبت كتفيها بذراعيه وهي تصرخ فيه:

- اتركني!

حاول أن يقبلها عنوة، فقاومته ودفعته، ولكنها لم تقوَ على التملص من قبضة بطل الجمهورية.

- تصرين على التظاهر بالشرف، هل نفعت هذه اللعبة مع سليم الساذج؟

لم تتحمل سخافته وعنفه أكثر من ذلك، لو كانت يدها حرة لصفعته بكل ما أوتيت من قوة، ولكن بما أنه لم يدع لها مجالًا آخر، فبصقت شويكار على وجهه.

حررها من قبضته وتراجع يمسح وجهه، ولكنه لم يترك لها فرصة للفرار منه، جذبها من شعرها ورد لها بصقتها بأن صفعها بقوة جعلتها تترنح وتسقط، وتسمع طنينًا حادًّا في أذنها، وتشعر بحريق في شفتيها.

هربت منها دموعها، وشعرت بألم شديد إثر ارتطامها بالأرض، جعلها تعجز عن النهوض على الفور.

وقف يسمع أنينها ويراقب دموعها الحارة، فاستفاق من ثمالته، وتسلل الشعور بالذنب إليه.

- أنا آسف، لا أدري كيف فعلت هذا، يا إلهي، أنا لم أضرب أنثى من قبل!

جثا على ركبتيه بجوارها، ووضع يده على كتفها، ولكنها تكهربت وظنت أنه سيحاول التعدي عليها مرة أخرى، فدفعت يده وهي تصرخ فيه:

- إياكِ أن تلمسني!

- ولكني أحبكِ يا شويكار.

- الحب أن تُؤذيني؟

- الحب أن أغار عليكِ، أغار من أن يكون في قلبكِ رواسب علاقة مضت تجعلكِ ترفضين الالتفات لمستقبلنا معًا، لن أخادعكِ، كنتُ أُغَير النساء اللاتي أواعدهن كما أُغَير ثيابي، ولكن منذ أن وقعت عيناي عليكِ في الحفلة، وأنا لا أرى غيركِ، بل منذ

أن رأيتكِ للمرة الأولى مع هيدي وأنا أتمنى أن تكوني لي يا شويكار، لا أدري أي أحمق قد يترك للقدر فرصة أن يفرق بينه وبينكِ، ولكني أود أن تكوني لي وحدي، أود أن أقولها للناس علانية: شويكار ملكي.

- كيف أأتمنك على نفسي، وأنت ضربتني في أول خلاف بيننا؟

- أنا أحمق وغبي وعصبي ومندفع، ولكنني عاشق يعميه هوسه بكِ، أنا ثور أعمى، ولكن حبكِ سيروضني، سأتغير يا شويكار لأنني مغرم بكِ، وعقلي لا يتصور ألَّا تحبيني، وألَّا تَقبلي بتمضية ما بقي من عمركِ معي، لا أتصور أن ترفضي الزواج مني.

- الزواج منك؟

- نعم! لقد صببت نساء الكون في كؤوسي، ولكني لم أرتوِ، وهأنتِذي، لا تسمحين لي ولو بقبلة بريئة، مع ذلك وجدتُ فيكِ كفايتي، لا أريد امرأة غيركِ في حياتي، أريد أن أجعلكِ أسعد نساء الأرض، أريدكِ زوجتي.

٨

All I Could Do Was Cry(*)

صارت حرم بطل الجمهورية صبري السيد أحمد.

لا تدري كيف حدث الأمر بتلك السرعة، فجأة وجدت نفسها تستعد للإقامة ببيت صبري مع أمه وأبيه، فجأة تُجهز لحفل العرس مع الدكتورة عصمت التي لم تبخل على تجهيزات وحيدها بشيء، فجأة وجدت نفسها عروسًا، الراقصة ترقص بالشمعدان، الزغاريد تملأ البيت، نساء غريبات من عائلة صبري وصديقاتها يُقبلنها ويباركن لها.

فجأة تسافر إلى المعمورة لقضاء شهر العسل، فجأة يغلق عليها باب الغرفة، يخلع عنها ثوبها، يقطف ثمارها بعد طول انتظار، يدخل إلى المرحاض مختالًا بنفسه، نافشًا ريشه كالطاووس، ليستحم ويتركها في الفراش وحيدة تبكي.

هنا، في هذه اللحظة، بعد كل تلك الأحداث التي وقعت على

(*) «كل ما استطعت فعله هو البكاء»: أغنية بلوز للمطربة إيتا جيمس.

عجَل من دون تأنٍّ، أدركت شويكار أن جسدها صار ملك رجل غير ذاك الذي حلمت به.

غضبت من نفسها، وأشفقت عليها في الوقت نفسه، ألم تعرف أن حكاية حبها الأول انتهت منذ أن تزوج سليم غيرها؟ أما زالت تعكر صفو حياتها بسبب الجبان الذي ترك لها ورقة بها كلمة من ثمانية أحرف، وستة أعوام من الغياب؟

تدري سخافة وحماقة شعورها، ولكن تلك الفكرة ابتلعتها، وزاد نفورها غير المعلن تجاه زوجها صبري.

انتهى شهر العسل الطويل وعادا لبيت أهله في القاهرة.

استقبلتهما عصمت بالزغاريد والدعوات وسفرة عامرة بالخيرات، تراقب وحيدها يبتسم لعروسه، ولكنها أدركت أنها ابتسامة باهتة، ابتسامة تخفي مرارة ما، لم تعرف كنه هذه المرارة ولا سببها إلا بعد شهر.

كان صبري يستعد للذهاب إلى تمرين بطولة الجمهورية التي دنا ميعادها.

انشغلت شويكار بإعداد حقيبة تمرينه، بينما كان يفتش في الخزانة عن شرابه، ولكنه وقف فجأة وصاح فيها:

- ما هذا؟

استدارت لتجده يمسك صندوقًا خشبيًّا صغيرًا تعرف محتوياته جيدًا.

اضطربت وبلعت ريقها بصعوبة، وهي تلعن غباءها، كيف نسيت أن تعيده لمخبئه؟

فكرت، ربما لم يفتح الصندوق بعد، عله يسألها فقط لأنه معجب

بشكله الأنيق المطعم بالصدف، ربما ما زالت هناك فرصة للخروج من هذا المأزق.

ألقى الصندوق على الأرض، واندفع صوبها يصفعها بقوة، فتكومت في الزاوية، وأدركت أنه رأى محتويات الصندوق.

- انطقي، ما هذا؟!

توالت عليها صفعاته، فأخذت تصرخ مستغيثة، حتى أتت عصمت تجذب صبري بقوة من قميصه وهي تصيح فيه:

- اتركها!

ترك شويكار تبكي، بينما صاح وقال لأمه:

- انظري ماذا فعلت الهانم التي شجعتِني على زواجها، تحتفظ بخطابات عشيقها السابق، ومذكراتها التي تصف حبهما، وتذاكر السينما التي دخلاها معًا، والورود الذابلة العطنة التي أهداها لها. تخبئ تاريخ عشيقها في بيت زوجها، بيتي أنا!

- اهدأ، قد تكون احتفظت بتلك الأشياء على سبيل الذكرى، هذا لا يعني أنها لا تحبك ولا تحترمك يا حبيبي!

- نادت باسمه في أثناء نومها على فراشي ليلة زفافنا، على سبيل الذكرى؟ تبكي كلما عاشرتها، ولا يعني هذا أنها لا تحبني؟ ملعون الحب الذي يجعلني أقبل العيش مع امرأة أرى في عينيها حب رجل غيري.

سحب حقيبته الرياضية من على الفراش، وركل الكرسي الهزاز في الزاوية، وهشم المزهرية، ثم صفق الباب بعنف وخرج من الغرفة ثائرًا يسب ويلعن كل شيء، حتى رحل عن البيت.

بقيت شويكار على الأرض تبكي في رعب، وقد تركت أصابع صبري الغاشمة علامات حمراء غليظة على وجهها الرقيق.

جلست الدكتورة عصمت على طرف الفراش تنصت إلى أنين شويكار، حتى تنهدت وقالت:

- لم أربِّ ابني على أن يعنف امرأة، كنت أقول لأبيه ألا يضربني أمامه حتى لا يعتاد هذه الطريقة في التعامل مع النساء، وأعاتبه كلما استخدم الضرب عقابًا لصبري. حاولت بشتى الطرق ألا يرث منه مبدأ أن الرجولة بالذراع، وأن ضعيف الحجة يمكن أن ينتصر بعضلاته وهمجيته، ولكن ما من فائدة. في موقف آخر، كنت جذبته من أذنه وأجبرته على أن يُقبل قدميكِ ويعتذر لكِ، بل كنتُ شجعتكِ على أن تتركي له البيت بضعة أيام حتى يعرف قيمتكِ، ولكنكِ بلا قيمة يا شويكار.

التفَّت عصمت التي اعتبرتها شويكار أمها الروحية، منذ أن عملت بالمشفى، وقالت لها بغضب ورثه عنها ابنها، كما ورث عينيها الرماديتين:

- يعلم الله أنني تمنيتكِ زوجة لابني منذ اللحظة الأولى التي وطئتِ فيها المشفى، صبري كان سيجعلكِ أسعد إنسانة على الأرض لو أحببتِه كما يستحق، وصُنتِ رجولته كما يليق به، ولكنكِ جنيتِ على نفسكِ بحماقتكِ، والآن صار أمامكِ حلان لا ثالث لهما: إما أن تستقيمي وتخدمي وحيدي

بعينيكِ، كأي زوجة صالحة، وإما أن ينزل عليكِ غضبي، أيهما تختارين؟

* * *

كان هذا الشجار نقطة البدء لسلسلة من الأحداث المفجعة في حياة صبري السيد أحمد.

عاد أبوه بعد سفرية مطولة إلى البيت، وفي أثناء تناولهم العشاء معًا، تفاجأوا بالشرطة تلقي القبض عليه بتهمة الاختلاس من وزارة الشؤون الاجتماعية.

في ليلة وضحاها، تحول من وكيل الوزارة الخيِّر، القيمة والقامة، صاحب المنصب والجاه، إلى سارق استغل منصبه لنهب أموال اليتامى والأرامل منذ ثورة الضباط الأحرار.

لم يحتمل قلب هذا المختلس المُسن - الذي اعتاد تعنيف زوجته وابنه - انقلاب حاله، فمات بسكتة قلبية في أول ليلة له في الزنزانة.

من هول الصدمة، أصيبت عصمت بجلطة خرجت منها بشلل نصفي، وحزن كامل على زوجها وحبيبها وابن عمها، الذي عاش مختلسًا ومات مفضوحًا.

تحطمت معنويات صبري، ودُمرت حالته النفسية، فبدأ يفوِّت تمارينه ويسرف في الشرب حتى الثمالة، ويجد طريقة لافتعال شجار مع شويكار ينتهي بضربها ضربًا مبرحًا، ثم معاشرتها حتى يغط في نوم عميق ويشخر.

ظل على هذه الحالة إلى أن أتى ميعاد بطولة الجمهورية.

سدد لكمة وتلقى عشرًا، حتى طرحه خصمه أرضًا، فنزل صبري بثقله على كتفه وسمعها تطقطق أسفله.

صرخ متألمًا حتى تدخل مدربه ونقله إلى المشفى.

اعتنى به طبيب فاشل، جبس كتفه بطريقة خاطئة، سببت له خللًا في التحام عظامه، فتركت له عاهة أنهت مسيرته الرياضية.

ذبل شباب صبري مبكرًا.

نبتت شعرات بيضاء في ذقنه، وأقمرت بضع خصلات في رأسه، خاصة حين دخل على والدته كي يبكي همه على صدرها، فإذ به يجدها جثة مقطوعة الأنفاس.

دفنها وبكى على قبرها، ثم اتجه إلى الحانة. عاد إلى منزله مترنحًا يكسر ويحطم الأثاث، ويجمع شهادات التقدير وميدالياته الذهبية، ويلقي بهن في المدفأة، وجلس يشاهدهن يحترقن وينصهرن وهو يبكي لساعات بحرقة لا يشعر بها أحد سواه، فلا يشعر بمرارة ألم المرء غير نفسه.

ضاقت حالته المادية؛ فالحكومة حجزت على أموال أبيه كافة، لم يبقَ له سوى البيت الذي يقيم فيه، لأن أباه سجله باسم أمه هدية لزواجهما، وبعض الأموال التي ورثها عن عائلة أمه.

تلك الضائقة المادية لم تكن السبب الذي جعل شويكار تعاود العمل بالتمريض بعد وفاة عصمت، بل كانت حجتها لتترك البيت قدر المستطاع وتهرب من ضربات زوجها ولكماته وصفعاته وركلاته وإهانته المستمرة لها بسبب ومن دون سبب.

هو نفسه سمح لها بالعودة إلى العمل؛ لأنه لم يعد يطيق رؤيتها، فقد صارت تذكره بعجزه وبفشله في كل شيء.

ربط زواجه منها بفضيحة أبيه، خسارته للبطولة، إصابة كتفه وعجزه الجديد، وفاة أمه، وفشله كزوج وعاشق قادر على أن يُنسي أي امرأة كل الرجال الذين عرفتهم قبله، والذين قد تعرفهم من بعده.

صحيح أنها لم تعد تخرف باسم سليم وهي نائمة، وصحيح أنها أخفت صندوق عشقهما كليًّا، إلا أنه يعرف أنها لا تنظر إليه بولع وهيام، كما كانت تنظر لسليم في ملعب الملاكمة حين رآها أول مرة.

لم يُرجع فتورها تجاهه إلى تعنيفه المستمر لها، ولا إلى إهانتها بمناسبة ومن دون مناسبة، أرجعه فقط إلى أنها عاهرة لم تنسَ حبيبها السابق.

مع مرور عام من تلك الزيجة التعيسة، خفتت مقاومة شويكار، لم تعد تصرخ حين يضربها، أو تبكي حين يصفعها، أو تقاوم إذا استدعاها لفراشه من دون رغبة منها.

كان يظن أنها خضعت له تمامًا، كان يظن أنه روضها، ما لم يكن يعرفه أن شويكار لم تعد نفسها بعد يوم الثلاثاء؛ هذا الثلاثاء الذي تشاجر معها فيه لأنها تأخرت عن ميعاد عودتها من المشفى من دون أن تستأذن، فضربها ونعتها بالعاهرة الشؤم، وعاشرها رغمًا عنها، ثم ركض عاريًا إلى الحديقة يضحك ويسخر من استسلامها كالمختل، حتى عوى كالذئب الظافر وقفز إلى المسبح، لم يكن يعلم أن شويكار

رحلت لأول مرة بكامل إرادتها وتركت المقود لاثنين أقسما أن يضعا حدًّا لهذه المهزلة: شوشو وفريد.

* * *

وقفت شوشو ترتب سرير أحد المرضى، وهي تلعن المرضى وأمراضهم وتلك المهنة السخيفة التي اختارتها شويكار، بينما يجلس فريد على طرف الفراش يؤرجح قدميه في الهواء، ممسكًا بيد دميته وبقيتها ملقاة على الأرض أسفله.

كانت تعد الدقائق حتى تنتهي ساعات عملها وتعود إلى البيت؛ لتنفذ ما دبرته هي وفريد، ولكنها شعرت بيد توضع على كتفها.

زفرت بضيق واستعدت أن توبخ المريض الذي تعدى حدوده وقرر أن يلمسها، ولكنها فور أن استدارت فقدت السيطرة.

كان يقف أمامها بالبالطو الأبيض، وبشارب كث كما تخيلته كيكي، عيناه تلمعان شوقًا، وتسيطر على ملامحه ابتسامة مَن وجدَ زير ماء بارد في منتصف الصحراء بعد سنوات من العطش.

كانت هذه واحدة من المرات القليلة التي كانت فيها كيكي أقوى من شوشو، فركلتها وسرقت منها موقع القيادة، وصاحت بلهفة ودموع الفرحة تهرب من عينيها:

- سليم!

ضمها فبكت، وأخذت تهتز بين ذراعيه وهي تبكي بحرقة، فقبّل كفها وعنقها، ثم خدها، ثم لثم شفتيها.

ذابت بين ذراعيه، تُبادله قبلات مشتاقة، حتى سمعت فريد يهمس إليها:

- لا تمانعي أن يخون زوجته معكِ؟

تذكرت خيانته لها، فتغلبت على خلة الحب التي نغزت فؤادها وفتحت عينيها ودفعت سليم عنها.

رأت فريد جالسًا على الفراش، يصفق لها لأنها أنصتت إليه وانسلت من بين ذراعَي حبيبها.

يجب أن تواجهه بخيانته، تصيح فيه، تعنفه، أو حتى ترحل وتتركه، ولكنها أضعف من ذلك كله؛ لهذا انسحبت من المشهد فجأة كما ظهرت فيه فجأة، وآثرت أن تترك لشويكار فرصة لقيادة الموقف.

وقفت شويكار وقد تحولت دموع سعادتها إلى دموع حزن وقهر، وهي تصيح في الحبيب الأول:

- ماذا تريد مني؟

- ماذا تظنين أنني سأريد بعد سبع سنوات من الفراق؟ لا تعرفين كم تعبتُ حتى أجدكِ، لو تعرفين ماذا حدث لي، و...!

- أعرف ما يهمني؛ أنك تزوجت ابنة خالتك.

- مَن قال لكِ هذا الهراء؟

- صديقك صبري.

- صبري من تمارين الملاكمة؟

- أتعرف صبري غيره؟

- متى قال لكِ هذا؟

- لا تغير الموضوع، ماذا تريد مني بعد أن جعلتني أنتظرك لسنوات حتى تتزوج ابنة خالتك في النهاية؟

- لا خالات لي يا شويكار، أمي كانت ابنة وحيدة، كيف تصدقين ترهات صبري الفَلاتِي؟! لطالما حقد على جدية علاقتنا، لا أفهم كيف وصل إليكِ، ولماذا تحدث عني معكِ!

- أنت لم تتزوج؟!

- بالتأكيد لا، ألم أعدكِ في ليلتكِ الأولى في المشفى أنني لن أتخلى عنكِ؟

أدركت شويكار أنها ورطت نفسها في زيجة بُنيت على كذبة، ما كان من المفترض أن تصدقها.

استرجعت كل ما عانته من إهانة وإساءة وتحقير، لمجرد أنها ظنت أن صبري رجل؛ كلمته كلمة شرف ولا يعرف المراوغة والخداع.

أدركت أن حب حياتها يقف الآن أمامها، أدركت أنه لم يعد هناك كريمان لتمنعهما من الزواج، وأنه كبر بما يكفي ليتحرر من تعنت أمه، ومع ذلك فلن تتمكن من أن تقضي ما بقي من عمرها معه؛ لأنها كانت ساذجة بما يكفي لتوافق على الزواج ممَّن تقدم لها، بعد أن صفعها وشكك في شرفها، وحاول أن يلمسها عنوة.

فرت منها دموعها التي بدأت كرذاذ، ثم تحولت إلى عاصفة مطيرة، فأفزعت سليم.

اقترب منها يربت على كتفها وذراعها، ويمسح دموعها بأنامله الدافئة، وهو يقول:

- حبيبتي، ألا تصدقيني؟ أقسم لكِ إنني لم أتزوج، لم أحب غيركِ، وعدتكِ أنني لن أتزوج غيركِ، و...

- أين كنت؟ لماذا تركتني أدمر نفسي وأدمرك معي؟

- سأقص عليكِ كل شيء، ولكن المهم الآن أنني عدتُ، أليس كذلك؟

- فات الأوان يا سليم، ضاع كل شيء.

- ماذا تقصدين؟

رفعت يدها اليسرى صوبه، فرأى خاتم زواجها الذهبي.

وقف في مكانه يراقبها تبكي، ثم تُخبئ يدها خلف ظهرها، وكأن هذا سيغير أي شيء.

عانقته مرة أخيرة وهي تهمس إليه:

- آسفة.

تركته يقف في مكانه تحت وطأة الصدمة وخيبة الأمل، ثم خرجت من الغرفة من دون أن تدري أن مديحة مرت في الطرقة منذ دقيقة ورأتهما من الباب المفتوح يتبادلان قبلة، فقررت أن تستخدمها لصالحها.

* * *

ارتشف كأس الويسكي وهو يتابع تلك الصهباء العارية، التي تمر أمامه بصالة المنزل باحثة عن قنينة الجِن.

رن الهاتف الأرضي، فنهض متململًا متأففًا، وأشار إلى عشيقته ألا تصدر صوتًا، ثم رفع السماعة يقول:

- مَن؟

- أستاذ صبري، أنا آنسة مديحة، زميلة شويكار بالمشفى، لقد عزيتك في والدتك وتكلمنا عن دورها العظيم في...

- شويكار ليست بالبيت، اتصلي بها في وقت لاحق.

- أدري أنها ليست بالمنزل، لهذا اتصلت بك، هناك جراح جديد عُيِّن هذا الصباح، سأل المشفى كلها عن زوجتك، أقسم لك إنه لولا أن دكتورة عصمت أوصتني عليك قبل وفاتها ما كنت أخبرتك.

- أمي أوصتكِ أنتِ عليَّ؟

- نعم، كانت تخبرني كم أن شويكار زوجة ناشز، تُريك النجوم في عِز الظهر، وأنت لا تستحق هذا، و...

- آنسة مديحة، أسألكِ الاختصار لأنني مشغول.

- كان الله في عونك على مشاغلك، أريد فقط أن أخبرك أنني دخلت الغرفة رقم ثلاثة عشر اليوم، ووجدت شويكار وهذا الجراح الجديد معًا، أخجل أن أوضح لك أكثر من ذلك، أنت تفهمني، أليس كذلك؟

فهم، بل جمح خياله ليتخيل أبشع مشهد خيانة زوجية يمكن أن يحدث في غرفة مريض بمستشفى.

ضغط على الكوب الزجاجي واختلجت ملامحه فطال صمته.

- أستاذ صبري، أما زلت معي؟

- ما اسم ذلك الجراح؟

- سالم، لا، المعذرة، سليم، دكتور سليم رشدي.

تهشم الكوب في قبضته.

* * *

كل ما استطاعت شويكار فعله هو البكاء في طريقها من المشفى إلى بيت الزوجية اللعين.

حدَّثت نفسها طيلة الطريق، مرة تُخرس فريد الذي يشجعها على ترك الأمور لشوشو، ومرة تصيح في شوشو التي ملأت رأسها بصدى صوتها الذي يسب ضعفها وسذاجتها وقلة حيلتها.

عبرت البوابة واخترقت الحديقة وهي مجهدة من البكاء على حبٍّ فقدته، وعلى صراع عقلي لا يتوقف.

أخرجت المفتاح وهمت أن تفتح الباب، فتفاجأت بتلك العشيقة الأجنبية تخرج وتبتسم لها ابتسامة متبجحة، وتصدمها بكتفها، ثم تخرج إلى الحديقة في طريقها لمغادرة البيت.

لم يكن هناك داعٍ للشك والتساؤل، الأمر جليٌّ.

اقتحمت البيت فوجدت صبري جالسًا على الأريكة ينصت لأجدد أسطوانات إلفيس بريسلي، ويده ملفوفة بشاش ملطخ بدمائه.

صاحت فيه:

- وصلت بجاحتك إلى أن تحضر عاهراتك إلى بيتي؟
- بيتكِ؟
- ألا أدفع فواتير كهربائه ومائه من راتبي؟ ألا أنظفه وأعتني به بمفردي؟ ألا أتحمل تلك العيشة البائسة فيه معك؟
- منذ متى ولديكِ الجرأة على الاعتراض والصراخ يا شوشو؟!
- بل أنا شويكار، نعم، أنا التي تصرخ فيك وتقول لك لقد طفح كيلي، أنا أشعر بالقرف منك، أكرهك، سئمت العيش معك في هذا البيت الذي حولته إلى ماخور!

أخذ زجاجة الويسكي من على الطاولة، ارتشف منها الكثير، ثم سألها بهدوء دخيل على طبيعته الهمجية:

- وماذا بعد؟
- طلقني يا بارد.
- كي تتزوجي سليم؟

أمسكت عن الكلام، تحول فيض غضبها إلى أرض جرداء قاحلة حين رأت في عينيه تلك النظرة التي تسبق غضبه المدمر.

ظل ممسكًا بالقارورة، ثم سألها بالبرود نفسه:

- ماذا فعلتما اليوم في غرفة المريض ثلاثة عشر؟

وكأن القط أكل لسانها، وقفت عاجزة عن تكوين جملة مفيدة، وكذلك كان صبري، لم يجد ما يقوله، فألقى زجاجة الويسكي صوبها.

تفادتها في لحظة فارقة، وهمت أن تفر من أمامه، ولكنه كان طويلًا، خطوته أوسع من خطوتها، فلحق بها.

جذبها من ثوبها، ودفعها صوب الحائط بعنف، فارتعدت وغطت وجهها، لأنها لم تتعافَ تمامًا من شجارهما الماضي.

قبض على كفيها وأنزلهما عن وجهها وهو يقول ببرود مرعب:

- لن أضربكِ، فلنتحدث كزوجين متحضرين. عشيقكِ ظهر فجأة، ما المشكلة؟ تخدعين زوجكِ وتقابلين رجلًا من وراء ظهره، ما المشكلة يا شوشو؟
- لم يحدث بيننا شيء مما يدور في عقلك القذر، لستُ مثل ساقطاتك!
- أتقصدين أن مَن بلغني شاهد زور؟
- ما من شاهد زور غيرك، لماذا أخبرتني أنه تزوج؟

لا يدري إن كان تفاجأ، أم أنه نسي من الأصل أنه كذب عليها في هذا الشأن.

تركها ولكنه لم يبتعد عنها، ظل يحاصرها بوقوفه أمامها وهو يقول بابتسامة مستهزئة:

- أهذا ما أتى ليقوله لكِ، أنه بقي بتولًا حتى يتزوجكِ؟ تُرى ما كانت ردة فعله حين علم أنني أكلت قطعة الكراميل الخاصة به؟ أم أنكِ أخفيتِ عنه أنكِ امرأة متزوجة؟

همَّ أن يلمس شعرها لتكتمل سخريته، ولكنها دفعت يده بعنف وصاحت:

- لماذا كذبت عليَّ؟

- أتطلبين الطلاق مني بسبب كذبة بيضاء؟ بدلًا من أن تشكري الله أن جعل لكِ رجلًا كان مستعدًّا أن يحرق العالم ويسفك دماء من فيه حتى يكون معكِ؟ كنت أحبكِ إلى هذه الدرجة يا شوشو.

لكمها فسقطت على الأرض.

أعتلاها وكأنها ألد خصومه، فأخذ يطوح لكماته لها يمينًا ويسارًا، في ضلوعها وفي صدرها وفي بطنها، حتى آلمته كتفه ولهث.

توقف لثانية فقالت له:

- ألم تكتفِ؟

استعجب ثباتها، واحدة أخرى كانت لتفقد وعيها من فرط الضرب، ولكنها ضحكت وأخذت ترمقه بثقة لا تليق بعينيها المتورمتين.

مسحت الدماء التي سالت من أنفها ومن شفتها التي شُقت، فاضطرب من ردة فعلها المختلة.

أخبره حدسه بأنه أوقظ شيئًا غريبًا بداخلها، فنهض عنها وتركها تضحك كالمجنونة.

قبل أن يصل إلى أريكته الأثيرة، تفاجأ بها تضربه بشيء ثقيل وتدفعه فسقط على وجهه.

ما فتئ أن يعتدل، وإذ بها تجلس على ظهره، وتنزل بركبتيها على مرفقيه من الخلف.

أصابه الذعر، شعر بها تميل عليه، أحس بأنفاسها الساخنة على قفاه ثم رقبته، وإذ بها تهمس في أذنه:

- إن كان يروقك العنف يا زوجي العزيز، فإليك ما تتمنى.

عضت شحمة أذنه بشراسة وحشية، فصرخ بأعلى وأعنف ما يمكن وهو يشعر بأسنانها تنغرس في شحمته.

وضعت يدها على فمه حتى تكتم صرخاته، فحاول النهوض، ولكنها كانت ثقيلة على ظهره وثابتة ثباتًا لا يُعقل.

شعر بدمائه تنساب على عنقه، وألم حارق لا يصدق في أذنه موضع عضتها.

نهضت عنه، فتحسس أذنه، وإذا بشحمته ينقصها مضغة من لحمه الحي.

التفتَ ونهض سريعًا، فرآها واقفة أمامه، الدماء تسيل من بين أسنانها مرورًا بشفتيها وذقنها وعنقها فصدرها، وهي تلوك شيئًا بابتسامة حيوانية ثم تبصقه على الأرض.

ما بصقته كان قطعة اللحم التي تنقص أذنه.

سارت تتمايل على إيقاع أغنية إلفيس التي لم تنتهِ بعد، وهي

تقلد حركاته التي علمها صبري لها في رقصتهما الأولى في بيته منذ عام ونصف.

رأته يرتعد وهي تقف أمامه بدمها وكدماتها وشراستها ولا مبالاتها، مندمجة مع الموسيقى التي فقدَ جزءًا من أذنه على إيقاعها، حتى وضعت يدها على كتفيه ووقفت على رؤوس أصابعها لتطول وجهه.

همَّت أن تقبله بفمها الملوث بدمه، فدفعها مرعوبًا وكأن روح مائة شيطان تلبَّستها، فضحكت وقالت:

- أتنفر مع قبلتي يا حبيبي؟ ألم تقل إنك فعلت كل هذا لأنك تحب شوشو؟ لماذا ترفض حبي الآن؟

تراجع قدر المستطاع وهو يضغط على جرحه، وسحب مفاتيحه وهرب من الباب.

وقفت تُلوح له في الهواء كزوجة محبة وهي تقول:

- لا تتأخر يا حبيبي، أعددت لك برنامج سهرة عظيمًا!

٩

It’s Now Or Never(*)

أطفأ الدكتور وجدي غليونه، ثم نظر إلى ساعة يده وأمسك عن الكلام.

انتظره حسين حتى يكمل حديثه، ولكن صمته طال، فسأله:

- ثم؟

- ثم اختفى صبري، تطلقت منه بحكم من المحكمة، وتزوجت سليم.

- بالله عليك يا دكتور وجدي، ماذا استفدتُ من الثلاث ساعات التي أمضيتها هنا؟!

- لقد أطلعتك على كل ما أعرفه.

- كل ما تعرفه يليق بمجلة حواء، ما دخلي أنا بحبها لسليم، وغياب سليم وعودة سليم، وشك صبري فيها؟!

- أنا طبيب نفسي، ماذا توقعت أن أروي لك؟

(*) «الآن أو أبدًا»: أغنية بلوز للمطرب إلفيس بريسلي.

- توقعت أن تعطيني دليلًا، أو خيطًا يفيدني في تحقيقي، ألا تهمك براءة مريضتك؟
- قلت لك إنني لا أعرف سوى ما تريد المريضة أن ترويه، دوري أن أنصت لمرضاي، لا أن أستجوبهم. شويكار لم تُلمح لي بأنها تعرضت لصبري بأي شكل سوى في الليلة التي عضت فيها أذنه.

تأفف حسين، فنظر الطبيب لساعته مرة أخرى وقال:
- والآن، لا أريد أن أكون قليل الذوق، ولكن يجب أن أعود إلى البيت، شرفتني بزيارتك الكريمة.

* * *

خرج حسين من عيادة دكتور وجدي محبطًا.

يشعر أنه ملأ رأسه بتفاصيل لا قيمة لها في التحقيق، بل إن حيرته زادت بين: هل شويكار ملبوسة أم مريضة أم مختلة، أم قاتلة تجيد تمثيل دور المجنونة حتى تغطي على جرائمها وتكسب تعاطف الجميع.

حاد عن الهدف الرئيسي، فتحديد كونها مريضة لا أهلية لها، أو عاقلة تعي كل ما تفعله، هو دور النيابة، دوره الآن يقتصر على إثبات ارتكابها لتلك الجرائم من عدمه.

ظلت تلك الأفكار تتكاثف في دماغه حتى وصل إلى القسم.

دخل إلى المكتب حيث يجلس صديقه المحمدي صاحب الشارب المبروم، والأنف البارز، والقامة الطويلة، والطربوش الذي يتشبث به على الرغم من انتهاء موضته منذ سنوات طويلة.

كان طربوشه الأحمر موضوعًا على المكتب، وكل شعرة فيه مروضة ومتدلية في مكانها. كمَّاه مثبتان بعيدًا عن رسغيه برباطَي الكمين الفضيين، الذي يرفعهما عند مرفقيه حتى لا يتلوثا بالحبر وهو يخط ملاحظاته عن القضية ويحتسي مشروبه المفضل، الزنجبيل المغلي بالليمون.

انتبه المحمدي لدخول صديقه، فقال بصوته الرخيم:

- سعيدة يا ألفي باشا.

- أنت أيضًا ستقول باشا، ألغيناها يا عزيزي!

- ماذا يعكر مزاجك؟ هل إحسان ويحيى بخير؟

- في أفضل حال، مسار القضية هو الذي ليس على ما يرام.

- تفاءل، أحمل لك خبرًا مبشرًا؛ وصلني تقرير خبير الخطوط، يؤكد أن هناك تطابقًا تامًّا بين خط شويكار في الدفتر الذي أعطانا زوجها إياه، وبين الجمل التي كانت ترقم بها ضحاياها في بعض مواقع الجريمة، الخط خط شخص أعسر يعاني من اضطراب نفسي.

- هذا دليل عظيم، ولكنه ليس كافيًا لشنقها.

- وهل هدفنا شنقها، أم معرفة الحقيقة؟

- هدفنا الانتهاء من هذه القضية.

- من دون أن نظلم بريئًا.

- بالتأكيد يا محمدي.

- إذن، أسألك الصبر يا صديقي، ولتكتفِ بهذا القدر من التصرفات الرعناء.

- عمَّ تتحدث؟

- عن خدعة إبراهيم سمعان التي صارت علكة في فم القسم كله.
- هل أ...
- لو سألتني إذا كنتُ أخبرت أحدهم، فسأشعر بالإهانة، متى أفشيتُ سرك يا أخي؟
- لم أقصد، ولكن كيف عرف الناس؟
- زوجها تقدم بشكوى ضدك في الوزارة، ألم أحذرك من أخذ أي طريق مختصر يا ألفي؟
- توقف عن تبكيتي، ماذا سنفعل الآن؟
- لقد فعلتُ بالفعل، أخبرتُ اللواء سرور أن لا دخل لك بالأمر، صديقك دعاك لسهرة خاصة، هذه فقرة صديقك المعتادة، شويكار وافقت على الانضمام إلى المسرح، صديقك سألها ما سركِ؟ وهي اختارت أن تبوح بهذا السر بالتحديد، أنت لم تستجوبها، لم تستغل نفوذك، أنت مجرد رجل محظوظ كان في المكان الصحيح في الوقت الصحيح.
- واقتنع بكلامك؟

رفع رأسه عن الملفات الضخمة التي يراجعها، وقال بغرور مستحق:

- متى عجزت عن إقناع أي شخص بأي شيء؟
- رأسك أُقبله.

نهض حسين عن مقعده واقترب منه ليقبل رأسه بالفعل، فارتطم بالمكتب. وضع المحمدي يده على طربوشه المقدس وهو يقول ممازحًا صديقه:

- ستُسقط الطربوش يا أرعن! فقط حاول أن تتحكم في تصرفاتك المتهورة تلك، لست شيرلوك هولمز ولستُ واطسون. تحلَّ بالصبر، وستجد الإجابة آتية لك.

طرق العسكري باب المكتب بقوة، فقال المحمدي وهو يأخذ كوب الزنجبيل بالليمون ليرتشفه:

- تفاءل، عسى أن تكون هذه الإجابة.

ضحك الألفي ثم سمح للطارق بالدخول.

كان العسكري، أدى التحية ثم قال:

- هناك بلاغ عن جريمة قتل جديدة يا حضرة الضابط.

- ليتني ما تفاءلت!

* * *

هناك قاعدة مهمة تخص التحقيق الجنائي تقول: «لا جثة، لا جريمة».

ولكن الخادمة اليونانية تقسم للشرطة إنها تركت سيدها الألماني أدلار يستحم في حمامه، وعادت في اليوم التالي لتجد الدخان يملأ البيت، ورائحة غازات كريهة لا تُحتمل قادمة من الحمام، وحين نظرت إلى المغطس السيراميكي وجدته مليئًا بالريم، ومكتوبًا على الحائط بدماء:

الثاني عشر من أصل ثلاثة عشر

ما من شهود، لم يرَ أحد شيئًا مثيرًا للريبة، ولم يسمعوا صريخًا، وهكذا، في ساعات كانت جثة أدلار تبخرت وملأت شقته برائحة كريهة أصابت حسين بالدوار.

طلب حسين من الخادمة أن تريه صورة للفقيد، بمجرد أن رأى

وجهه، ترك المحمدي يحقق في هذه القضية، وانطلق إلى مكان المشتبه به الوحيد الذي رسم وجه هذه الضحية على يده أمس.

* * *

ذهب حسين إلى المشفى، وأكد له الجميع أن شويكار لم تخرج من غرفتها منذ أن خرجت من عملية بتر كفها.

دخل غرفتها بعد أن طرق الباب، وسمحت له بالدخول، فوجدها جالسة تبتسم له، وكأنها كانت تنتظره.

راقبها وهي تسرح شعرها البني الفاتح بيدها السليمة، بهدوء يفوق استيعاب أي شخص يعرف أنها سفاحة.

وقف حسين عند الباب، فهو ما زال لا يأمن الاقتراب منها، ثم سألها:

- شوشو؟

- صرت تُميزنا!

- أين جثة أدلار يا شوشو؟

- في المكان الذي يستحق أن يكون فيه: البالوعة.

- كيف فعلتِها؟

- نفذت تعليماتهن.

- نساء المصبغة؟

- أحسنت يا سُنسُن.

- هن أيضًا أعطينكِ تعليمات قتل صبري؟

- كيف تجرؤ على أن تنسب مجهودي لغيري؟

سحب الكرسي من الزاوية، وأبقى طرف الباب مفتوحًا، وجلس بجواره بعيدًا عنها.

ابتسمت شوشو ونهضت عن الفراش ووقفت أمامه.

رأت الخوف في عينيه الداكنتين، فضحكت ثم أشارت إليه بإصبعين عند شفتيها؛ أنها في حاجة إلى سيجارة.

ظل يركز على حركتها حتى لا تباغته بأي حركة مفاجئة، ومد يده في جيبه، أخرج علبة سجائره، أعطاها سيجارة وضعتها بين شفتيها، ثم مالت عليه ليشعلها لها.

وقفت تنفث الدخان بمزاج، ثم عادت تجلس على فراشها وهي تسأله بخبث:

- أرى الفضول ينهشك حتى تعرف كيف قتلت صبري!

- وأرى الغرور ينهشكِ حتى تستعرضي بطولاتكِ أمامي، لا بد أنكِ تمنيتِ مائة مرة أن تخبري العالم أنكِ وحدكِ بدون مساعدة تمكنتِ من قتل الملاكم بطل الجمهورية، الذي لم يفوت فرصة من دون أن يعنفكِ ويسيء إليكِ، أليس كذلك؟

أخذت نفسًا نفثته على مهل، ثم قالت بابتسامة نرجسية:

- لا يا سُنسُن، لم أقتله بمفردي، تلقيت بعض المساعدة.

- من سليم؟

- من فريد.

* * *

ديسمبر، ١٩٦١

فتحت شوشو خزانة الثياب، وأخرجت بعض ملابس صبري ورصتها بعناية في حقيبة سفره.

وضعت الحقيبة جانبًا، ثم نزلت الصالة وأخذت تحمل الأثاث كله بعافية وتخرجه إلى الحديقة الخلفية، وكذلك السجاد.

أفرغت الصالة من أثاثها، فيما عدا الجرامافون في الزاوية، وطاولة الطعام المستديرة بكرسييها.

غطت الأرضية الخشبية بمشمع كبير.

دخلت المطبخ بمعنويات مرتفعة، وأخذت تدندن وهي تطهو العشاء وسيجارتها بين شفتيها.

وضعت الطعام على الطاولة، وأعدت زجاجة النبيذ الأحمر، وأشعلت الشمعدان البرونزي.

صعدت إلى غرفتها وارتدت ثوبًا أحمر اشترته خصوصًا لتلك المناسبة، ووضعت قفازين حريريين أسودين وتزينت بأحمر الشفاه الذي يثير صبري، وحاولت أن تخفي كدمات وجهها وجروحها قدر المستطاع، ثم تعطرت ونزلت إلى الصالة وجلست على كرسي المائدة تنتظره.

بعد ساعة من الانتظار، دخل صبري البيت بجرح أذنه المضمد، وتفاجأ باختفاء الأثاث وجلوس شويكار إلى المائدة بابتسامة محبة.

نهضت عن كرسيها وأسرعت تندفع صوبه قائلة:

- أوه يا حبيبي، لقد تأخرت كثيرًا، ألا تعرف أن شوشو تقلق عليك حين تتأخر هكذا؟

أخذت منه معطفه، وألقته على الأرض، ثم قبَّلت صبري قبلة شغوفة ألهبت فؤاده، وأصابته بالذعر في الوقت نفسه.

لم تتركه يعلق، جذبته من ذراعه صوب الطاولة، ولكنه تسمَّر في مكانه مرتبكًا وقال:

- ماذا تفعلين؟

- أحاول أن أبدأ معك صفحة جديدة.

- بعد أن أكلتِ أذني؟

- عضضتها، لم آكلها، لا يكن قلبك أسود، كسرت لي ضلعين قبل ذلك وسامحتك.

- ولكن...

- سنمضي الليلة نثرثر حتى يبرد الطعام وتفسد المفاجأة التي أعددتها لك؟ هيا، لا تقف هكذا كأبي الهول!

جاراها، وتركها تقوده حتى الطاولة، تضع على صدره منشفة الطعام، تربت على كتفه، ثم مالت عليه من الخلف حتى تهمس إليه، فارتبك ووضع يده على أذنه المصابة.

ضحكت ضحكة رنانة، ثم قالت:

- لا تخف مني يا حبيبي.

- لستُ خائفًا!

- حسنًا، ابقَ هنا، أعددت لك مفاجأة.

تركته ووقفت عند الجرامافون تريه أسطوانة في ظرفها وتقول:

- اشتريت لك أسطوانة جديدة لإلفيس، حتى يعيدنا صوته لنقطة البداية.

وضعتها في الجرامافون فانبعثت الموسيقى الهادئة، وصعد صوت إلفيس القوي مغنيًا: «It's now or never».

تمايلت على إيقاع الموسيقى وهي تجذب طرف ثوبها وتدور حول نفسها بخفة، حتى وصلت إلى الطاولة، وصبري يتابعها مندهشًا من تغير شخصيتها المفاجئ.

صبت له النبيذ، ووضعت بصحنه الحمَام المحشو بالفريك الذي يحبه، محشي الكوسة الذي يعشقه، السلطة الخضراء وصحن الملوخية.

جلست أمامه، تأكل السلطة وهي تقول:

- أتدري يا صبري، لقد مرت علاقتنا بالكثير من التقلبات، أعني، لم تبخل عليَّ بأن تذيقني من العذاب والإهانة ألوانًا، هل كنتُ ملاكًا؟ لا، بالتأكيد!

تثاءب، فتجاهلته واستأنفت:

- كيكي تلومني على أنني دفعتها للزواج منك، في الحقيقة، كنت تعجبني يا صبري، تعجبني أكثر من سليم بكثير، لا أحب الرجل الأشقر، أفضله أسمر وعينيه ملونتين مثلك، كما أن دمك أخف منه، وتجيد الرقص، تحب السهر، الخمر، التدخين، ولكن سليم هذا، يا إلهي كان مملًّا!

تثاءب ثانية وقال بصوت ناعس:

- نعم، يحب القراءة وموسيقى الچاز.

- شويكار تحب الكتب، كيكي تحب سليم، أتدري ما أحبه أنا؟

- أنا؟

- بل محشي الكرنب، وأنت تكره رائحته، أجبرتني على ألا أطهوه في البيت أبدًا، أجبرتني على أن أطهو لك محشي الكوسة،

أي مختل مريض يفضل محشي الكوسة على محشي الكرنب يا صبري؟

نهضت عن مكانها بحدة، ورأت فريد يقف خلف صبري الذي تثاءب بقوة حتى دمعت عيناه.

قال وهو يفرك عينيه:

- محشي ماذا؟ شويكار، أنا أشعر بنعاس رهيب، فلنتحدث غدًا.

- لا غد لك يا صبري، مفعول المنوم قد بدأ.

- أي منوم؟

- الذي دسسته في محشي الكوسة، فلتذهب إلى الجحيم أنت والكوسة بكل وصفاتها.

جذبت الشمعدان البرونزي من على الطاولة، وضربت صبري به على دماغه بأقصى قوتها، فانقلب بالكرسي وسقط على الأرض يصارع النوم والألم والدوار.

وقفت شوشو تخلع ثوبها وحذاءها وثيابها الداخلية وقفازيها الحريريين، وتضعهم على الأرض في أقصى زاوية من الصالة وهي تقول:

- أرسلتُ خطابًا إلى عمتك في الإسكندرية بالنيابة عنك.

سحبت الساطور الذي خبأته أسفل الطاولة، وظل فريد واقفًا يشاهد ما يدور بابتسامة رضا وهو يهز رأسه على أنغام أغنية إلفيس.

اقتربت عارية بجسد تفترشه الكدمات والجروح، وجثت على ركبتيها أمام صبري، الملاكم الغاشم الذي عجز عن تحريك ولو إصبع من يده، وفشل في أن ينطق بكلمة واحدة ليستنجد.

قالت شوشو:

- عمتي العزيزة ميرفت، اشتقتُ إليكِ وإلى بحر الإسكندرية، شويكار شديدة الانشغال بعملها، وتتركني وحيدًا لساعات طويلة. سأصل إلى الإسكندرية خلال يومين لأغير جو. مع حبي، صبري.

هوت بحد الساطور على عنقه عدة مرات، فانفجرت دماؤه بوجهها، حتى فصلت رأسه من منتصف عنقه عن باقي جسده.

صفت السوائل من جسده بفتح ثقوب في فخذيه ووضع خراطيم بها، فأخرجت كل سوائله في دلو صفيحي.

سكبت السوائل بالمرحاض، وسحبت السيفون ساكبة الفنيك.

نزلت وصوت إلفيس يعلو من الجرامافون، بدأت تدندن على أنغامه وهي تقطع أطراف صبري، وأخذت كماشة نزعت بها أسنانه وأظفاره ووضعتها في وعاء، ثم أكملت تقطيعه.

اتجهت إلى المطبخ وكسرت البلاط بمساحة متر في متر أسفل النافذة، ثم أخذت تحفر في الرمال أسفل الأرضية على عمق مترين ونصف، وألقت بأعضائه المقطعة في الحفرة ما عدا الرأس.

أخذت دلوًا أفرغت فيه أسمنتًا، وخلطته بالماء، سكبت الخليط فوق الحفرة، وأخذت تبني حوض الزرع الأسمنتي.

أمسكت الرأس وأزالت فروته، وأخرجت منه مخه وغسلته بالماء، ثم ملأته بالتراب، وغرست فيه بذورًا ستطرح زهورًا وردية.

وضعت الرأس في منتصف الحوض الذي امتلأ بالطين، ثم رشت الماء ضاحكة.

أخذت دلوًا وملأته بالفنيك، وتركت فيه الساطور، ثم أخذت علبة الدهان والفرشاة.

وقفت في المطبخ تدهن الحوض الأسمنتي باللون الأبيض، وترسم قلوبًا حمراء بوجه مبتسم، وهي ترى فريد يرقص حولها مع دميته في براءة طفولية.

فرغت من حوض الزهور وبدأت في التنظيف، أزالت المشمع وألقت به في البانيو لتنظفه، كما مسحت أرضية الصالة والمطبخ بالماء والصابون والفنيك.

أعادت فرش السجاد ورص الأثاث، ثم أشعلت البخور لتعطر الجو.

دخلت الحمام لتنظف جسدها من الدم والطين والدهان والأسمنت، بالماء الدافئ المريح للأعصاب.

غنت تحت الدش ببالٍ رائقٍ، كما لم تغنِّ من قبل، بينما طهرها الماء المتدفق من رواسب جريمتها، حتى أغلقت المياه، وسحبت منشفتها ولفتها حول جسدها المبتل وخرجت.

نزلت إلى المطبخ وتأملته وهي تضع يديها على خصرها بفخر. لا أطباق متسخة بالحوض، الأرض تبرق من فرط النظافة، الحوائط دُعكت حتى صارت تلمع، ورأس زوجها مدفون في حوض الزرع. أليس هذا حلم كل زوجة عاقلة؟!

خرجت إلى الصالة تستمتع بحالة النظافة والهدوء التي عمت البيت، وأخذت علبة السجائر التي سرقتها من جيب زوجها قبل أن تقطع قدميه، أشعلتها مستخدمة مقدحته الذهبية التي كان يكرمها ويعتني بها أكثر منها.

دخنت أول سيجارة لها بعد أن صارت أرملة، وأخذت تراقب الأمطار والبرق يضرب السماء.

شعرت بفريد يمسك يدها، الصغير يخاف من البرق.

ابتسمت إليه ثم همست:

- أشكرك.

- لم ننتهِ بعد.

- أنت محق، لا وقت نضيعه.

انتشلت ثوبها الجديد من على الأرض، وأعادت ارتداء ثيابها.

أخذت معطف صبري وسحبت منه مفاتيح الأوتوموبيل، ثم حملت حقيبته وألقتها على المقعد المجاور لها، ثم انطلقت أسفل الأمطار.

قادت حتى الكورنيش الذي كان خاليًا بسبب تأخر الوقت وبرودة الجو وشدة الأمطار الهاطلة.

ألقت بحقيبة سفره في النيل، وشاهدتها تطفو بابتسامة ظافرة، ثم عادت إلى السيارة.

ظلت تدندن أغنية لا تتذكر اسمها، لم تكن في تلك السعادة يومًا، غنت وتمتمت وصفرت حتى لمحت فريد جالسًا على الكرسي بجوارها، ثم قالت:

- شويكار ستنزعج كثيرًا مما فعلناه، ستصاب بالذعر وتبلغ عنا، عدني ألا تخبرها.

- لن أخبرها، إن لم تخبريها أنتِ.

- أتدري، لديَّ فكرة أفضل، سأعطيها شيئًا يشغلها، هدية صغيرة؛ لأنها تركتني أتولى القيادة الليلة.

وكانت هدية شوشو لشويكار أن تذهب إلى سليم وتعاشره، وما ظنته شوشو الساقطة هدية مثالية، كان عارًا وكارثة بالنسبة لشويكار، دفعتها أن تركض حافية من بيت سليم في المعادي، لا تذكر كيف ومتى وصلت إلى فراشه.

* * *

ابتسمت لحسين وقالت:

- أنت تعرف الباقي، بلغت عن غيابه، فبحثتم عنه حتى وجدتم حقيبته في النيل، فأخبرتكم أنه انتحر لأنه كان فاقدًا الأمل في الحياة... إلخ إلخ.

- ماذا عن باقي الجثث؟

أطفأتْ سيجارتها الأولى، ومدت يدها حتى يعطيها الثانية.

أشعل لها سيجارتها، ثم أشعل لنفسه سيجارة، بينما تسأله:

- بمن نبدأ؟

أخرج دفتره الأسود الصغير، وقلب صفحاته حتى توقف عند واحدة، وقال:

- تشارلز روبنسون.

- تاجر الخنازير. الأمر يفسر نفسه، دخلت مزرعته، سحبت أربعة خنازير، وضعتها في قبو منزله، تركتها ستة أيام، ثم ألقيت المُسِن في قبوه لتأكله. جلست بجوار البيت أدخن سيجارة فالأخرى، حتى فرغت الخنازير من نهشه حيًّا، أعدت الخنازير إلى الحديقة، ثم حفرت حفرة على عمق مترين ونصف ألقيت فيها العظام التي لم تقدر الخنازير على أكلها، ثم رحلت.

- وأين تلك الحفرة؟
- في حظيرة الخنازير، على الأغلب لن تجدها كلابكم؛ فهي لن تشمها من هذا البُعد.

خط بضع ملاحظات في دفتره، ثم سألها:

- ماذا عن شقيقه ألبرت؟
- انتظرته عند حانته المفضلة، ضربته على رأسه، ألقيته في حقيبة الأوتوموبيل، أخذته في مصنع هُجر منذ أيام الملك، قطعته إلى ثماني قطع، كل قطعة في حقيبة، وحفرت ثماني حفر حول المصنع، على العمق نفسه، ألقيت جزءًا في كل حفرة، أمر مرهق، ولكن ليس على القدر نفسه من الإرهاق الذي أصابني وأنا أقتل ابنه جون.

أسرع حسين يكتب وهي تزفر وتتأفف قائلة:

- كان شابًّا عفيًّا، قاومني بشتى الطرق، ولكن شوشو لا تقبل الهزيمة، استطعت أن أختطفه إلى عشة على ضفة النيل، قيل لي إن في هذه البقعة تماسيح، ضربتُ جون ضربًا مبرحًا بعد أن قيدته، قطعته لأصغر قِطَع ممكنة، وألقيته في النيل. هل هناك حقًّا تماسيح فأكلته؟ هل أكله السمك؟ هل أكلته الصقور والنسور؟ لا أدري ولا أبالي، كل ما يهمني أنه مات.
- أين هذه العشة؟
- أحرقتها يا سُنسُن، أتظنني حمقاء حتى أخاطر بترك دليل خلفي؟
- أمن المفترض أن أعتمد على حكاياتكِ من دون دليل واحد يثبتها؟
- أتُشكك في نزاهتي؟

- حاشا لله يا شوشو، ولكن وكيل النيابة سيطلب مني دليلًا.
- لو كنتُ أملك دليلًا ما بخلت عليك به.
- هذا هو العشم يا شوشو!

ترك القلم وأخذ يراقب هدوءها المربك، ثم قال:

- لماذا قتلتِهم؟
- هن قلن لي، فنفذت. أنا أستكمل انتقامهن.
- من الرجال؟
- هذا ليس صراعًا بين الرجل والمرأة، لقد أمرنني بقتل قوت القلوب. هل قلتُ لا، أنا أقتل الرجال فقط؟ بل دخلت العوامة التي تسكنها وانتظرتها تعود من الكباريه، باغتتها في الظلام وألقيت ماء النار على وجهها، شوهتها، ثم ضربتها على رأسها ففقدت الوعي، ووضعتها في صندوق خشبي على مقاسها، وصببت فوقها أسمنتًا ثم هوووب، ألقيتها في النيل. طريقة القتل تلك استوحيتها من أسطورة إيزيس وأوزوريس.
- وممن استوحيتِ طريقة قتل فاكر وشاكر؟
- يجب أن تقدموا لي نيشانًا؛ لأنني خلصتكم من هذين الجربوعين، كانا يبيعان المخدرات لشباب الجمهورية الجديدة.

عاود الكتابة وهو يسألها:

- كيف قتلتِهما؟
- كان لديهما وكر سري على الطريق الصحراوي، عشة صغيرة، يتعاطيان فيها المخدرات، طاخ طاخ، رصاصة في رأس كل منهما. والعشة منصوبة فوق ماذا؟

صمتت وانتظرت أن يسألها، فاضطر أن يجاريها ويسألها بابتسامة زائفة:

- فوق ماذا يا شوشو؟

- فوق رمال الصحراء، أخذت أحفر وأحفر وأحفر، حتى كدت أن أفقد وعيي من فرط الإرهاق، هكذا دفنت الاثنين في مكانهما، ثم بوووم، ولعتُ في العشة.

راجع ملاحظاته ثم قال:

- ألا ترين أن تلك الجرائم تحتاج إلى قوة بدنية عظيمة، وأنتِ طوللكِ لا يتخطى المائة والستين سنتيمترًا، ووزنكِ.. لا أدري، خمسين كيلو؟

- كيف تتجرأ وتسأل امرأة عن وزنها؟

- أقصد أنكِ شابة سيمباتيك، كيف ضربتِ هذا، وخطفتِ ذاك، وحملتِ هؤلاء؟

- أنا ممرضة، أتدري كم مريض حملت بمفردي؟ يمكنني أن أحملك الآن، أتريد أن تجرب؟

نهضتْ، فرفع يده يقول قبل أن تُقبل عليه:

- أصدقكِ من دون تجربة، أرجوكِ أبقي مكانكِ.

- القتل لا يستدعي قوة بدنية يا سُنسُن، هذه أكذوبة ذكورية مغرضة يروجها الرجال حتى يحرمونا من حقنا في القتل، مثلنا مثلهم، ولكننا في عصر يمكن للمرأة أن تفعل فيه ما تريد، يمكن أن تصير مُدرسة، طبيبة، محامية، وسفاحة إن أرادت.

عجز عن مجاراة عبثية هذا الحوار المختل المتمسح في النسوية

وحقوق المرأة، ففرك عينيه اللتين ذبلتا من قلة النوم وشدة الإرهاق وفرط التفكير، ثم قال وهو ينفث دخانه:

- فلندعْ أحاديث المساواة بين المرأة والرجل لمدام درية شفيق، ونكمل ما أتيت من أجله، أين جثة الأسطى رضا؟

- في المقابر، دفنته حيًّا بعد أن ذهبت إلى ورشته، أحضرت له كبابًا وكفتة سكبت عليهم مُلَيِّنًا، ثم ضربته على رأسه وألقيته في برميل، والبرميل ألقيته في المقابر كما قلت.

- ما الغرض من المُلَيِّن؟

- المُلَيِّن سيصيبه بالإسهال، أن يبقى حبيسًا في فضلاته داخل البرميل يعني أن يتلف جسده ويتحلل بسرعة أكبر، إنها طريقة من طرق التعذيب في العصور الوسطى، قرأَتها شويكار في كتاب ما.

- وماذا فعلتِ بالمقابر؟ ضربتِها بقنبلة ذرية؟

- ما أخف ظلك، لقد تغاضيتَ عن أصالة وإبداع تلك الجريمة، ولم يهمك سوى مكان المقابر يا جاحد!

- هل هناك أي شخص ممن قتلتِهم، قتلتِه بطريقة تقليدية حتى أتمكن من إيجاد جثته؟

- دعني أتذكر، عباس البُرص: طبخته وأطعمته للكلاب والقطط. سرحان وفُتنة، نعم! جُثتاهما هما دليلك الوحيد في هذه القضية، هنيئًا لك يا سُنسُن، وجدتَ ضالتك.

- أين هما؟

- في المدفأة.

- أحرقتِهما؟

- كلا يا ممل، سدَدت مؤخرة مدفأة فيلَّتهما بالأسمنت، وربطت جثتيهما بحبل، وألقيتهما من فوق السطح وسكبت عليهما ما استطعت من ملح وثوم وحامض ليمون حتى لا تفوح رائحتهما.

- إذا ذهبت حالًا لفيلَّتهما، فسأجدهما؟

- نعم، ولكن اذهب إلى فيلَّتهما الجديدة المسجلة باسم والد سرحان.

زفرت شوشو وأخمدت سيجارتها بالمرمدة، ثم قالت وهي تحدق إلى الفراغ:

- ها قد رويتُ له كل شيء، أتمنى أن ترتاحي وتتوقفي عن التذمر والبكاء، سيشنقونكِ ونرتاح كلنا.

لم يعرف هل تُحدث نفسها، أم تتصور حوارًا مع إحدى هلاوسها، أم أن هناك روح ميت تحوم بالغرفة لا يراها غيرها!

لم يتدخل في الحديث، ظل يراقبها تطرق إلى الأرض تارة، وأمامها تارة أخرى، حتى اختفت ابتسامتها.

تغيرت ملامحها. أيمكن أن يحدث هذا لأي إنسان، تتغير ملامحه بين الفينة والأخرى؟

نظرت إليه، ثم هربت منها دموعها وارتعشت شفتاها، وربتت على كفها التي بُترت وكأنها شعرت بألمها الآن فحسب، ثم قالت بصوت خفيض:

- لم أعد قادرة على السيطرة على نفسي أو عليها، أو عليه، يوسوسون لي في كل لحظة، لا أريد أن أؤذي أي شخص آخر.

- كيف تمكنتِ من الهرب من المشفى وقتل أدلار يا شويكار؟

- أنا حامل، أريد فقط أن أترك ابنًا لسليم حتى يتذكرني، ثم يمكنك شنقي. خلِّصني من إجرام شوشو، ومطاردة فريد، وانتقام سيدات المصبغة، خلِّصني من هذا الشقاء أرجوك.

١٠

I'll Never Be Free(*)

كانت ليلة طويلة مشحونة بالمشاعر في القسم.

حسين يحقق رسميًّا مع شويكار وشوشو وكيكي، ويسجل أقوالهن في غرفة، والمحمدي يحقق مع سليم بالغرفة الأخرى.

لم تمانع شوشو أن تسرد التفاصيل مرة أخرى وتجيب عن كل سؤال من دون مراوغة، إلى أن انتهى دورها ورحلت، وتركت كيكي تقلق على سليم وعلى رد فعله حين يعرف تفاصيل جرائمها، وشويكار تعتذر وتسأل العفو عن آثامها بنبرة مهزوزة وأنفاس مكدودة، وعينين باكيتين ويدين ترتعشان.

في المكتب الآخر، ثار سليم على المحمدي وركل الكرسي الذي يقابله، إلى أن أخبره المحامي أن هذا الغضب ليس في صالحه أو في صالح زوجته.

حاول الزوج المقهور جمع شتات نفسه، ولكن نيران الغضب

(*) «لن أتحرر أبدًا»: أغنية چاز للمطربة لافيرن بيكر.

التي تتقد في عينيه الخضراوين لم تخفت، وكأنهما يعكسان حريق غابة استوائية.

شرب الماء وأخذ بنصيحة محاميه، وأصر على النفي والإنكار. أنكر غياب شويكار المتكرر، نفى اضطرابها الشديد في الآونة الأخيرة، أنكر ميولها العنيفة، تقلُّب شخصيتها بين شوشو وشويكار وكيكي، وتجاهل فزعها وخوفها الدائم من لوحة نساء المصبغة الثلاث عشرة.

أُغلق المحضر، حولوا القضية على النيابة، عاد الألفي والمحمدي إلى بيتيهما مرتاحَي الضمير، ورجع سليم إلى فيلَّا المعادي البرتقالية، ساخطًا، كافرًا بالعدل، مؤمنًا بأنه لن يتحرر أبدًا من ظلم المجتمع وسوء حظه.

* * *

مرت أيام قليلة بدت كالدهر كله على سليم.

لم يكن يعلم أي شعور يسيطر عليه، أهو غاضبٌ من نفسه، أم مشفق عليها؟

أمضى اليوم ككل يوم منذ أن نُقلت شويكار إلى النيابة، يرتدي منامته، فوقها روب البيت، ويجلس على الكرسي الهزاز أمام المدفأة، يستمع إلى سيناترا وأرمسترونج، ويراقب لظى النيران وأجيجها، ويتدبر ماذا سيفعل الآن!

لطالما كان رجلًا صاحب خطة، لا يميل للعشوائية ولا يعترف بالعفوية، فما العمل الآن بعد أن انهار كل شيء؟

جلس وحيدًا في هذا البيت الذي أثثه وهو يحلم بأن تسكنه شويكار معه.

ولكن ها هو الآن يرثي قصة وُئِدت في مهدها، وزواجًا لم يهنأ به طويلًا، وشريكة روحه التي قُدر له ألا يموت مسنًّا في حضنها كما أمل، بل فرقهما الدهر للمرة الثالثة.

ظل على تلك الحالة حتى سمع طرقًا على بابه.

تردد أن يفتح، لم يعد يحتمل الحديث مع أي شخص وهو في هذه الحالة المكلومة الشاردة، ولكن إصرار الطارق دفعه للنهوض بتثاقل فتفاجأ بها تقف على بابه.

آخر مرة رآها كانت منذ اثني عشر عامًا، طال فيهم شعرها الأشقر، أصبحت أكثر نحولًا، ولكن ما زالت عيناها تلمعان بحماس وذكاءٍ لطالما أحبهما سليم فيها.

- ما الذي أتى بكِ إلى هنا؟

- كيف لي أن أترك أخي الوحيد في مصيبة كتلك؟

ترك الباب مفتوحًا وعاد إلى مقعده، فأغلقت هيدي الباب وجلست أمامه تقول:

- بحثت عنك كثيرًا، لم أتوقع أن أجدك في هذه الفيلَّا البرتقالية المتوارية عن الأنظار تحت أشجار المعادي.

- أنا وأمكِ بحثنا عنكِ أكثر ولم نجدكِ أنتِ وهذا الجرذ الذي...

- لا داعي لسب زوجي يا سليم، أعلم أنك غاضب مني، و...

- أنتِ لا تعلمين شيئًا، لقد هربتِ قبل أن تغرق السفينة، بقيتُ بمفردي أراقب أمكِ والعار ينهشها، أراقب أباكِ يخسر كل شيء بسقوط المَلكية. خُرقت السفينة وغرقت بنا وأنتِ تتسكعين مع حبيبكِ يا جولييت!

- لا ألومك على غضبك مني، ولكن لا تقسُ عليَّ، أنت تعرف أن الحياة مع أمنا كانت جحيمًا، ظننتُ أنك أنت بالذات دونًا عن الجميع ستتفهم موقفي.

- مهما كانت قاسية فستبقى أمنا، لقد ماتت مقهورة هي وأبوكِ من دون أن تكوني بجانبهما، أنا راعيتهما وأفنيتُ تلك السنوات لأعوضهما عما خسراه في الثورة، وفي النهاية، آخر ما نطقت به أمكِ كان اسمكِ أنتِ! أنتِ التي فضَّلتِ سعادتكِ عن بِرِّها، وفي النهاية، هأنذا خسرتُ والديَّ وحبيبتي وشبابي.

جلست على طرف مقعده تربت على كتفه بحنان وتقول:

- ولكنك لم تخسرني بعد يا أخي.

- لماذا أتيتِ يا هيدي؟

- لأنك تحتاجني.

- لم أحتَجكِ فيما مضى، لِمَ قد أحتاجكِ الآن؟

- أهناك مصيبة أكبر مما تمر به الآن؟

- يا لكِ من محظوظة، تظنين أن هذه الضائقة هي أعظم كارثة شهدتها؟!

- ماذا جرى يا سليم؟ أخبرني يا أخي، ماذا فاتني؟

- فاتكِ سليم المدلل الذي كانت أكبر مشاكله أن والدته ترفض تزويجه من حبيبته. على قدر غضبي منكِ لرحيلكِ، على قدر امتناني إلى الله أنكِ لم تشهدي ما شهدته، ولم يختلع قلبكِ من ضلوعكِ مثلي.

- أخبرني ما...

- ارحلي يا هيدي، عودي إلى حيث أتيتِ، سأتخطى هذه الفترة كما تخطيتُ ما قبلها.

* * *

بعد عودة إحسان الدمرداش من بعثة السوربون لطلبة الحقوق الفرنسية مع زميلاتها، أصبحت تطهو السمك بطرق مختلفة.

لم يعد السمك مجرد مقلي أو صينية في الفرن بالبصل والليمون، صارت تطهو السمك بطريقة مونيير، وبوردو وفيليه بالتتبيلة الفرنسية.

وفي ظهيرة هذه الجمعة، دعا حسين صديقه المحمدي وزوجته، وأولادهما أنور وتوفيق ويسر، على الغداء في شقته بجاردن سيتي.

انشغل يحيى ابن إحسان وحسين باللعب في غرفته مع أولاد المحمدي، بينما جلس الصديقان الضابطان يلعبان الشطرنج في البلكون المطل على نيل القاهرة، وهما يدندنان كلمات أغنيات أم كلثوم القادمة من المذياع، وتركا الزوجتين في المطبخ، سهير مُعلمة اللغة الألمانية تساعد إحسان المحامية الأريبة وبروفيسورة القانون الجنائي في جامعة القاهرة، في إعداد صينية سمك القد بالطماطم والزيتون، على طريقة بروفنسال، مع الأرز بالبصل وسلطة البنجر والليمون.

جلسوا جميعًا إلى المائدة، الأولاد يتمازحون من أسفل الطاولة ويركلون بعضهم خلسة حتى لا ينتبه لهم الكبار، وسهير تمتدح طهي إحسان، بينما يأخذ حسين الليمون من على الطاولة كي يعصره فوق السمك.

أخذ سكينة المائدة الحادة وشق الليمونة إلى نصفين، وإذ به يشتم رائحة سجائر مختلطة بعطر الفانيلا.

استشعر برودة غريبة اقشعر لها بدنه، على الرغم من أنهما في شهر أغسطس الذي يكره حرارته ورطوبته.

انتابه شعور غريب، وكأن هناك مَن يتنفس عند مؤخرة عنقه، وينفث أنفاسه الباردة على قفاه.

التفت خلفه فجأة، فلمح طرف ثوب أبيض يدخل الشرفة.

- ما الأمر يا حسين؟

انتشله صوت إحسان الناعم من شروده وهي تسأله بقلق، فاستفاق من خيالاته غير المنطقية، وفسر ما رآه بأنه لا بد أن الستارة تحركت بسبب نسمة ضعيفة باغتت الصيف وتسللت إلى بيته.

- لا شيء يا عزيزتي، السمك ممتاز.

- يا لك من مجامل، أنت لم تذقه بعد!

- لستُ في حاجة إلى تذوقه، ما دام لمسته يداكِ فلا بد أنه ألذ طعام على الأرض.

ابتسمت خجلًا، فقالت سهير لزوجها بنبرة مرحة ممازحة:

- يبدو أنك تغيبت عن محاضرة الغزل في كلية الشرطة يا محمدي!

- يا لكِ من ظالمة، ألم أقل لكِ تسلم يدكِ هذا الصباح بعد الفطور؟

ضحكوا جميعًا، وظلوا يتمازحون ويسخرون من بعضهم كعادتهم، فجاراهم حسين وهو يشعر أن هناك شيئًا غريبًا يدور من حوله.

أكل السمك من دون أن يستشعر طعمه من فرط هواجسه.

مضت سبعة أشهر على اعتراف شويكار، النيابة حكمت عليها

بالإعدام شنقًا فور أن تنجب صغيرها، يعرف أنه فعل ما يمليه عليه ضميره كضابط شرطة، وطيلة الشهور الماضية، لم يسترجع الأمر، فقد كان منشغلًا بالكثير من القضايا الأخرى، ولكن لماذا تسيطر شويكار أو شوشو أو كيكي أو أيًّا مَن كانت على تفكيره الآن؟!

تعامل بطبيعية، لم يعرب عن قلقه حتى انتهى من طعامه، وفعل ما يفعله كل مرة بعد أن ينتهي من أكل السمك؛ يأخذ ليمونة مشقوقة ويدخل بها إلى الحمام حتى يعصرها على أصابعه وبين أظفاره، ويحك بها أنامله ليتأكد من تخلصه تمامًا من زفارة السمك التي يكرهها، وبعدها يغسل يديه بالصابون.

هذا ما فعله، دخل بالليمونة إلى الحمام، وما كاد أن يعصرها حتى وجدها تجف بمفردها، لونها يتغير من الأصفر النضر إلى البني العفن، ملمسها يتبدل من المتماسك المشدود إلى اللين العطن.

زادت برودة الحمام، انتصبت كل شعرة في جسده، قلبه يخفق بطريقة غير عادية، ظن للحظة أنه سيصاب بنوبة قلبية.

ألقى الليمونة في الحوض، ونظر أمامه في مرآة الحائط، فرأى انعكاسها من خلفه.

وراءه، كانت شويكار تقف بفستان أبيض، وشعر بني فاتح يلمع كالكراميل، وعلى وجهها ابتسامة رائقة.

التفت ليواجهها، ودَّ أن يصيح فيها ويسألها كيف تسللت إلى بيته؟ هل تنتوي تلك السفاحة المحترفة أن تقتله هو وأسرته وصديق عمره كما قتلت مَن قبله؟

ولكنه لم يجد صوته، ليس لمفاجأة وجودها في حمامه فحسب،

بل لأن الحمام نفسه بدأ يتبدل ويتغير فجأة كما تغيرت الليمونة الصفراء فجأة.

اختفى الحوض والمرحاض ومربعات السيراميك الزهرية واحدة تلو الأخرى، حتى اختفت كل ملامح الحمام، ووجد حسين نفسه في شقة خاوية مظلمة لا أثاث ولا سجاد ولا ستائر بها.

للحظة ظن أنه أكل سمكًا فاسدًا سبَّب له هلاوس، أو ربما جُنت إحسان وهويتها الفرانكوفونية طغت عليها حتى صارت تطهو السمك بالخمر، فكانت النتيجة أن يثمل حسين من دون أن يدري ويجد نفسه ينتقل من مكان إلى مكان في غمضة عين.

لم يجد شيئًا مألوفًا في هذا المكان العتم سوى شويكار التي تقف في مكانها بالهدوء نفسه.

سألها وهو يعافر لينظم أنفاسه وضربات قلبه:

- أين نحن؟

- ثلاثة عشر، شارع المنصورية، حي باب الشعرية، الجمالية.

- كيف أتينا، و...

- ادخل هذه الغرفة.

نفذ أمرها بتوتر، فتح الباب بحذر، فوجد غرفة فارغة من كل شيء عدا مرتبة مهترئة ولحافًا مرقعًا، وكرسيًّا كان أجدد وأقيم ما بها، ثم لوحة زيتية كبيرة معلقة على الحائط المشروخ.

اقترب من اللوحة، كان بورتريهًا لوجه شويكار في فترة مراهقتها ولها ضفيرتان طويلتان.

وقفت بجواره، ثم أشارت إلى الإمضاء الموجود بزاوية اللوحة،

قرّب حسين وجهه ودقّق نظره، فوجد الاسم مكتوبًا بخط عثماني رائع. سليم.

- ضع اللوحة أرضًا.

اتبع تعليماتها، رفع اللوحة عن الحائط، فوجد وراءها كوة صغيرة بالحائط يبرز منها طرف قماشة، أومأت له شويكار أن يخرجها من مخبئها.

شد القماشة، فاكتشف أنها كيس بداخله دفتر قرمزي صغير ورسائل عديدة.

فتح حسين الدفتر، وجد به كلامًا مكتوبًا بخط منمق، وفض الخطابات، كانت مكتوبة بخط مختلف مرتعش غير منظم، بالكاد يُقرأ، كلها رسائل بها أشعار وكلمات حب موجهة من شويكار لسليم.

نظر إلى شويكار التي وجدها واقفة بجوار الكرسي المذهب، أشارت إليه أن ينظر إلى الكرسي الوحيد في الغرفة.

وضع الدفتر والخطابات جانبًا، واقترب من الكرسي الفرنسي التقليدي، ذي التنجيد الملون لمنظر منزل على بحيرة زرقاء.

أعطته سكينًا لا يعلم من أين أحضرته، وأشارت إليه أن يفتح به بطن الكرسي.

أخذ السكين كالمسحور وشق قاعدة المقعد، ثم أخرج الكثير من القش حتى لمس شيئًا، أكياسًا ورقية، سحبها فوجد بها أشياء صغيرة، فتح الكيس ووجهه صوب الضوء فرآها بوضوح. كانت أسنانًا.

مد يده أكثر، فأخرج أكياس أسنان أخرى، ثم أكياسًا بها أظفار دامية.

- ما هذا؟

- ثلاثة عشر، شارع المنصورية، حي باب الشعرية، الجمالية.

همست العنوان في أذنه عدة مرات، حتى سمع صوتًا بعيدًا؛ صوت إحسان تناديه، ثم شعر بلمستها.

اختفى كل شيء تدريجيًّا: شويكار، الكرسي، اللوحة، المرتبة، الخطابات، الأكياس والعتمة.

فتح عينيه فوجد نفسه في صالة شقته، في جاردن سيتي، جالسًا على الكرسي المقابل للشرفة، ابنه يحيى وأولاد المحمدي يلعبون معًا بالقطار البلاستيكي الذي اشتراه له بالأمس.

المحمدي يلعب الشطرنج مع سهير، وإحسان تقف بجوار زوجها وهي تهمس إليه فور أن استيقظ:

- لا يصح أن تغفو في وجودهم.

ازدرد ريقه الجاف، ونظر إلى إحسان وهو يحاول أن يسترجع ما صار، يذكر أنه دخل إلى المرحاض ينظف يده بالليمون، رأى شويكار، فشعر بألم شديد في قلبه من فرط الصدمة، خرج من المرحاض وجلس على المقعد ينظم ضرباته، هل غفا، هل فقدَ وعيه، هل ذلك كله حلم؟!

كان حلمًا واقعيًّا بدرجة لا تصدق، يكاد يجزم أنه ما زال يشم رائحة شويكار، ما زال يشعر بلمستها التي كهربته، ووجودها الذي اضطربت له أنفاسه وضربات قلبه.

- هناك مكالمة لك من القسم.

قالتها إحسان وهي تمسح جبينه من العرق وتربت على رأسه.

أخذ نفَسًا عميقًا، وفرك عينيه ليتخلص من تأثير ذاك الحلم السريالي.

نهض عن مقعده واتجه إلى غرفة المكتب حيث هاتفه، انتشل السماعة، فأتاه صوت إسماعيل الملازم الشاب الذي يرافقه في أغلب تحقيقاته هو والمحمدي لينهل من خبرتيهما:

- حسين باشا.

- لستُ باشا.

- المعذرة، آسف لأنني أتصل بك يوم إجازتك أنت والمحمدي باشا.

زفر حسين من غباء إسماعيل، فتثاءب ليطرد رواسب النعاس من بدنه وهو يقول:

- ما الأمر يا إسماعيل؟

- شويكار نُقلت إلى المشفى فجر الأمس لتضع وليدها.

- إياك أن تقول إنها هربت يا إسماعيل!

- لم تهرب من المشفى، هربت من الحياة كلها، لقد انتحرت.

كان له تعليق، جاهد حتى لا يقوله، كيف يقول إسماعيل إن شويكار انتحرت وهو يراها تقف أمامه الآن بثوبها الأبيض وابتسامتها الهادئة!

هذه المرة كان واثقًا من أنه لا يحلم، هذه المرة تأكد من أنه يرى روح شويكار.

١١

You Go To My Head(*)

وقف هو ورفيقه المحمدي في الغرفة التي أودعت فيها شويكار بعد أن أنجبت ابنها فجرًا.

كانت نائمة على ظهرها في سريرها، شفتاها زرقاوان، بشرتها شاحبة، شعرها مهندم، ذراعاها منبسطتان بجوارها، عروقها بارزة، رسغها مجروح جرحًا عميقًا مزق شريانها، مما جعلها تنزف على فراشها حتى الموت.

هكذا كان المنظر الذي يراه حسين أمامه، شويكار نائمة بثوب المشفى الأبيض على فراش ملطخ ببِركة من الدماء التي سالت من رسغها، وعلى طرف الفراش تقف شويكار تنظر لجثتها بأسى تارة، ولحسين بابتسامة خبيثة تارة أخرى:

- ما رأيك؟

(*) «أنت تدخل رأسي»: أغنية چاز للمطربة بيلي هوليداي، وقد غنتها أكثر من مطربة بعدها، أشهرهن إلا فيتزجيرالد.

انتفض حسين حين وضع المحمدي يده على كتفه وسأله عن رأيه.

انتبه صديقه لذلك، فهمس إليه:

- هل أنت بخير يا حسين؟

هز حسين رأسه وهو يقلب نظره بين الطبيب الشرعي الذي يفحص الجثة، وإسماعيل الذي يقف بجواره ويدون كل ملاحظاته كالتلميذ.

سأله المحمدي:

- إذن ما رأيك؟

- في ماذا؟

- ما الأمر يا حسين؟ لم تنطق بشيء طيلة الطريق.

- بعض الإرهاق لا أكثر.

- أتريد أن تعود إلى البيت؟ سآخذ الملاحظات اللازمة وألقاك في المساء.

نظر حسين إلى روح شويكار ثم إلى جثتها، ظل يركز على كفها المبتورة، ثم قال:

- لقد أخطأنا يا محمدي، كيف غاب عنا هذا الأمر؟ وإن غاب عنا، فكيف غاب عن محامي شويكار؟ لقد خُدعنا، نحن أحمقان.

انتبه إسماعيل والطبيب الشرعي لحالة حسين: توتره وعرقه ورعشة صوته ونظراته القلقة.

ربت المحمدي على كتف زميله، وقاده لخارج الغرفة من دون أن يدري أن روح شويكار تتبعهما.

أخذه إلى أقرب غرفة خالية، ووقف أمامه تخلفه شويكار وتتابعه بفضول.

- ماذا تقصد؟

- لقد تطابق خط يد صاحب الدفتر الذي سلمه لنا سليم مع خط يد القاتل، الذي كانت علامته المميزة هي الجُمل التي يتركها على حائط كل قضية، مُدوِّنًا رقم الضحية.

- أي شويكار؟

- فلتكفر بالمسلمات الآن، من كتب مذكرات شويكار، هو نفسه من كتب على حائط منزل شارلز روبنسون وابنه وأخيه وورشة الأسطى رضا وفيلَّا سرحان، وأخيرًا حائط حمام أدلار.

- صحيح.

- وتقرير خبير الخطوط أفاد بأن صاحب هذا الخط أعسر.

- صحيح.

- بل خطأ يا محمدي، أدلار قُتل بعد أن أطلقت شويكار الرصاص على كفها اليسرى وبُترت، كيف كتبت بالخط نفسه على حائط حمام أدلار؟!

صفقت شويكار واتسعت ابتسامتها بامتنان وهي تقول:

- أحسنت يا سُنسُن!

رفع رأسه صوبها ثم سألها:

- أنتِ لم تقتلي أدلار، صحيح؟

- هذا ما اكتشفته.

تلفت المحمدي حوله، لم يجد أحدًا في الغرفة غيره وصديقه، فسأل حسين:

- أتكلم أحدًا غيري؟

- لستُ على ما يرام، سأعود إلى البيت.
- حسنًا يا صديقي، وأنا سأتبع الخيط الذي أشرتَ إليه، أتريد أن أوصلك؟
- لا، سأكون بخير.

خرج المحمدي ليعود للتحقيقات، وبقي حسين بمفرده مع روحها وهو يتصبب عرقًا من الحر والخوف.

- هل أتيتِ لتنتقمي مني؟
- هل تقرأ الكثير من روايات الرعب؟
- لماذا تلاحقينني؟
- لأنك سخرت من رؤية أرواح الموتى يا مغرور!
- سأعيد فتح ملف القضية، سأجد القاتل الحقيقي، فقط توقفي عن ملاحقتي.
- لا أثق بذكائك يا حسين، أعتقد أنك لن تحل هذه القضية من دون مساعدتي، فالقاتل الحقيقي أذكى مني ومنك.
- حسنًا مَن يكون؟
- بهذه البساطة؟

اقتربتْ منه بما يكفي، فزادت ضربات قلبه، واختلجت أنفاسه، وأخذ يلهث وهي تمد يدها صوبه وتقول:

- ألا أستحق خاتمة درامية تليق بمأساتي؟

وضعت يديها على رأسه فجأة، تكهرب جسده من إثر لمستها ولم يتحمل قلبه هذا الذعر كله، ففقد وعيه.

فتح عينيه فوجد نفسه في غرفة غير الغرفة، وفي ساعة غير الساعة.

كانت غرفة شويكار التي تفقَّدها هو وفريق الطب الشرعي منذ لحظات، ولكن تلك المرة كانت في ساعة الفجر.

شويكار - الحية وليست روحها - مستلقية في فراشها بجبين متعرق وبدن مكدود، بجوارها يجلس سليم على الفراش يحمل بين ذراعيه وليدهما الذي ورث سمرة أمه وخضرة عينَي أبيه.

قبَّل صغيره وشويكار تسأله:

- لماذا لم تحضر لي الجيلاتي كما طلبت؟

- أين سأجد بائع جيلاتي في هذه الساعة؟

لم تستسغ إجابته، فقالت:

- لماذا قلَّت زيارتك؟ لم تقابلني منذ ثلاثة أشهر!

- كنت أحاول أن أعتاد غيابكِ.

- واعتدته؟

- كلا، كلما ظننتُ أن الحياة ستصالحني وتعوضني عما فقدته، فاجأتني بأن سلبت مني المزيد.

- ولكن الحياة لم تسلبني منك يا سليم.

- كيف وهم سيعدمونكِ بعد أسابيع قليلة؟

- أنت تفهم ما أقصده.

- إنها المرة الوحيدة التي لا أفهم مقصدكِ يا كيكي.

- لستُ كيكي ولستُ شوشو، هناك طبيب نفسي غير الدكتور وجدي يتابع حالتي هنا، منع عني العقاقير كافة حتى لا تؤثر على حملي، من وقتها وأنا التي تتولى القيادة، وتخيل، إنني من وقتها لا أسمع أصوات سيدات المصبغة!

- وهل تشعرين بتحسن؟
- أشعر بصفاء ذهن، صفاء جعلني أتذكر كل شيء، كل جريمة قتل بحذافيرها منذ مقتل كريمان وحتى أدلار.
- لا تُحملي نفسكِ ذنبًا يفوق طاقتكِ.
- لا أُحمل نفسي أي ذنب، فأنا لم أقتل كريمان يا سليم، أنت الذي قتلتها، شباك غرفتي كان مفتوحًا، وأنت رأيتني أحدث فريد، استغربت أنني أحدث نفسي فوقفت تراقبني، رأيتني أخرج من الغرفة وأدخل غرفة كريمان، سمعت صوت زجاجات الخمر تلقى على الأرض، فدخلت من النافذة تظن أنها تضربني، وقفت خلفي ورأيتني أخبطها في الحائط وأهددها بقتلها؛ لذلك كانت تقول لك أنقذني وتسأل ماذا تفعلان. لم تكن ترى فريد، بل كانت تراك أنت؛ لذا تكلمتْ بصيغة المثنى. رأيت الخمر وعرفت أننا لن نجتمع في بيت واحد طالما بقيت حية، فأشعلت المقدحة وأحرقت الغرفة، ودفعت كريمان صوب السرير، أنت الذي دفعها وليست قوتي الخارقة التي خُيل لي أنني أملكها بفضل فريد، ثم حملتني وأخرجتني من الحريق. هل قتلتها حتى تتمكن من الزواج مني، أم لأنها أهانتك أنت وأمك وأباك؟

أخذ يحدق إليها وقد توقف تمامًا عن تقبيل ابنه ومعانقته.

جذبه الصغير من أنفه، فأنزله ووضعه على حجره وهو يقول لشويكار:

- يجب أن أراجع أدويتكِ مع طبيبكِ الجديد هذا.

- تراجع أدويتي أم تجبره على أن يعطيني حبوبًا مهلوسة، مثل تلك التي كنت تعطيها لي كل ليلة منذ أن تزوجنا؟

- وما مصلحتي في أن أتلف عقلكِ أكثر مما هو تالف؟

- حتى أصدق أنني مرتكبة تلك الجرائم.

- بأي جنون تنطقين؟

- لا تنكر؛ فأنا لم أخدعك لحظة واحدة منذ أن عرفتك.

- هل الدور عليَّ الآن؟ ترين أن العالم كله ظلمكِ: أمكِ وعشيقها، وصبري وأمه، وشوشو وفريد، وسيدات المصبغة ارتكبن جرائم ورطوكِ فيها، والآن أنا أيضًا ظالم ومجرم مثلهم يا شويكار، بعد أن كنت مستعدًّا أن أجعلهم يشنقوني مكانكِ؟ الآن تريدين تلفيق جرائمكِ لي؟

في ذروة غضبه، وضعت شويكار يدها على كفه وقالت بابتسامة محبة:

- أنا أسامحك يا سليم.

- تسامحين قاتل أمكِ، السفاح الذي لفق لكِ جرائمه كما تزعمين؟!

- أسامحك وأفديك بعمري، أنا أحبك حبًّا غير مشروط يا سليم وكأنك ابني، حبًّا صادقًا لا يعرفه الرجال أمثالك، ولكن هذا لا يعني أنني لن أطهرك من إثمك!

- ماذا تعنين بحق الجحيم؟!

- أنا قتلت صبري، وسأحاسَب على تلك الجريمة، سأتركهم يشنقوني، وأنت قتلت أمي ومعها أحد عشر شخصًا آخر، يجب

أن تدفع ثمن تلك الجرائم حتى تُعدم مثلي، ونلتقي أنا وأنت في الجنة ونعيش إلى الأبد مطهرَين من ذنوبنا.

حاول أن يحجم ذلك الوحش الثائر بداخله، وأن يسيطر على صوته حتى لا يعلو وينفضح، فخرج صوته كفحيح الأفعى من بين ضروسه وهو يجذب شويكار بعنف من ذراعها:

- من تظنين نفسكِ حتى تَعُديني دَنِسًا يحتاج إلى التطهير؟ لستُ قاتلًا، أنا منتقم اقتصَّ لنفسه ولكرامته، ما رأيتِه في حياتكِ التعيسة من ذل وهوان لا يعادل نقطة في بحر الويل الذي غرقت فيه بمفردي، بعد هذا العذاب كله تريديني أن أسلم عنقي لحبل المشنقة؟

بكى صغيره، فترك سليم ذراع شويكار وأخذ يهدهده.

نظرت إليه نظرة مطولة وراقبته وهو يتحسس وجه ابنهما ليمسح دموعه، ثم قالت:

- هيدي زارتني، وعدتني أن تساعدك في العناية بجلال.

- لن أسمي ابني جلال، سأسميه سليم.

- يا لك من نرجسي!

- لو كانت بنتًا لسميتها شويكار.

ابتسمت إليه بحنان، ثم قالت وهي تربت على يده التي يسند بها رأس صغيرهما:

- أتعرف أن الله لم يمنَّ على هيدي وزوجها بنعمة الإنجاب؟ هي وسيران سيكونان والدَين ممتازَين لسليم الصغير.

دفع سليم يدها، ونهض عن الفراش يحمل صغيرهما.

ذهب إلى أريكة الغرفة، ووضع الصغير عليها وهو يربت على بطنه وجبينه، ثم قال في طريق عودته إلى سرير شويكار:

- حين عرفتُ أنكِ تزوجتِ صبري، تخليت كليًّا عن حبي لكِ، كنتُ سأبتعد، سأختفي من وجودكِ في حياتي، وإذ بكِ تطرقين بابي فجرًا، تدعين نفسكِ لفراشي، ثم تقولين لي إنكِ قتلتِ زوجكِ، تغفين وتستيقظين ناسية كل ما فعلتِه، لقد تسللتُ إلى بيتكِ في هذه الليلة، تأكدتُ من أنكِ حقًّا دفنتِه في مطبخكِ، لقد أرسلكِ القدر إليَّ في الوقت الصحيح يا شويكار، لم أخطط لمقابلتكِ في هذا التوقيت، لم أخطط أن تقتلي زوجكِ وتتزوجيني.

- ولكنك خططت لاستغلالي.

- كنتِ فرصة ممتازة ولا بد أن أنتهزها.

- هذا ما كنته بالنسبة إليك يا سليم، فرصة؟!

- في هذه الدنيا، كلنا فرص يا شويكار، هل أحببتكِ؟ نعم. أكثر من نفسي؟ لا وألف لا، أنتِ على حق، حبنا مكانه الجنة. تربة هذه الدنيا لا تصلح لنمو قصة حبنا، ما عاشه كلانا من قبح وشر أفسد براءتنا يا شويكار.

وقف عند طرف الفراش ومال عليها وهو يقول لها:

- سامحيني.

في حركة مباغتة، دفعها لتستلقي على الفراش، ثم وضع وسادة فوقها ليخنقها.

حاولت أن تقاومه وتخبطه بذراعيها، ولكن قبضته كانت قبضة

سفاح محترف، ضغط عليها بأقصى قوته ودموعه تهرب منه وهو يلهث ويتمتم:

- سامحيني يا شويكار، أنا آسف.

لم تطله بكفها الوحيدة، فقد وضع ركبته عليها حتى لا تجرح وجهه بأظفارها، واستمر يخنقها بالوسادة حتى قل رفسها للفراش، تشنجها يمنة ويسرة، ارتفاع صدرها وهبوطه وصريخها المكتوم. لقد استسلمت لقبضة حبيب عمرها.

لفظت أنفاسها الأخيرة، فرفع الوسادة بحذر ليتأكد من أنها ماتت. بمجرد أن أتم مهمته، جثا على ركبتيه، ثم ألقى رأسه على صدرها وأخذ يبكيها كرضيعها الذي يبكي في الزاوية.

كاد الذنب أن يتمكن منه ويجعله ينهار ويستسلم، ولكنه تمالك أعصابه وتوقف عن البكاء.

وضع رأس شويكار على الوسادة التي خنقها بها، غطاها بعناية، أرجع كل شعرة من شعرها إلى مكانها، ثم قبلها القبلة الأخيرة وتحسس وجنتيها بحنان ليودعها.

أخرج من جيبه مطواة أخذها تذكارًا من عباس البُرص، بعد أن قتله، وجرح معصمها جرحًا دقيقًا يليق بجراح أريب مثله.

حمل وحيدهما الذي لم يتفقا على تسميته بعد، ووضعه بجوارها، ثم خرج.

وقف حسين حبيس هذا المشهد الكابوسي بعد أن شهد قتل سليم لشويكار، فالتفت ليجد روحها تقف في الزاوية تنظر إلى جثتها، ثم تنظر إلى حسين وتخبره:

- كم سؤالًا لديك؟

- مائة سؤال وسؤال.

- وأنا جاهزة لأريك الحكاية من بدايتها.

مدت يدها صوبه بابتسامة مطمئنة، فلم يتردد كثيرًا، أمسك يدها واتبعها كمن ندهته النداهة.

اتجهت نحو باب الغرفة، فانبعثت من ورائه موسيقى چاز صاخبة.

فتحت الباب وخرجا ليجد أنهما لم يعودا إلى المشفى، بل إلى بيت صبري، حيث تقام حفلة صغيرة لطلاب التوجيهية بليلة صيف حارة.

سارت شويكار ممسكة بيد حسين وسط الجموع الصاخبة والشباب الراقصين، فنزلا السلالم وصولًا للقبو، فتحت بابه فوجد صبري وسليم في سن مراهقتهما، وقد شب شارباهما حديثًا.

فتح صبري علبة سجائر سرقها من درج والده، وأعطى سليم سيجارة.

- لن أدخنها.

- إلى متى ستبقى ابن أمك وتنفذ كل أوامرها؟

- أنا لا أخاف من أمي، أنا أحترمها.

ضحك صبري ساخرًا، ثم أشعل سيجارته، وفجأة سمعا ضوضاء عجيبة بالقبو وانطفأت اللمبة الكبيرة. اضطرب سليم، ولكن صبري ضحك وقال صوب الفراغ:

- ماذا، هل حضرتم يا أهل الدار؟

- بيتكم مسكون يا صبري؟

- تقول أمي إن هذا البيت بُني فوق مصبغة مهجورة، كانت مقرًّا لحزب من النساء ينظمن حركة فدائية ضد الاستعمار، فأحرقهن الإنجليز، ومن يومها وأرواح تلك السيدات تسكن البيت، و...

خفت الصوت وتلاشى المشهد، وسحبت شويكار حسين فصعدا السلالم، وقد بدأ الديكور يتغير وتختفي الموسيقى الصاخبة ويتبخر الشباب المحتفل، حتى ساد الهدوء والظلام بالمنزل.

وصلا إلى صالة البيت، ثم مشيا حتى المطبخ المظلم الذي تسلل من نافذته ضوء البدر على حوض الزهور الوردية، الذي ترقد بقاعه جثة صبري المقطعة إربًا.

رأيا ظل شخص وراء الباب الخلفي المطل على الحديقة، الذي لطالما نسيت شويكار إغلاقه.

دار المقبض ودخل سليم إلى المطبخ بحذر، تلفت حوله وتأكد من عدم وجود أحد، تأمل المطبخ حتى وجد مراده.

اقترب من ذاك الحوض، ونظر إليه عن كثب، غرس أصابعه في الطين، لم تكن البذور قد نمت بعد.

وضع يديه في وسطه، ثم ضحك وكأنه فخور بجريمة حبيبته:

- يا ابنة الشياطين!

اختفى المطبخ والحوض والباب، ثم ظهر مسند من الخشب وسليم يجلس على كرسي قصير ممسكًا بريشة وباليتة ألوان، يرسم لوحته الزيتية بعناية أسفل مصباح كبير.

اقترب حسين بحذر، حرك يده أمام وجه سليم، فلم يرمش أو

ينتبه لوجوده، اقترب أكثر ونظر للوحته. إنها تلك التي تخص سيدات المصبغة ذات الثلاثة عشر بورتريهًا، وأولها وجه صبري وعليه علامة إكس حمراء كبيرة.

أنهى تحفته الفنية ويداه وملابسه ملطخة بالألوان، رفع رأسه وتأملها ثم ابتسم بخبث.

عاد ديكور المطبخ، دخلت شويكار المطبخ لتغسل أطباق غدائهما وهي ترتدي في إصبعها خاتم زواج جديدًا.

نظرت لتلك اللوحة المعلقة على الحائط، فوق حوض الزهور الذي دفنت فيه طليقها، رأت ثلاث عشرة سيدة حِيكت أفواههن، وفي أعينهن شعلات نيران متقدة، اقتربت أكثر وأخذت تحدق في اللوحة، فرأت وجه صبري في الخلفية. انقبض قلبها وأسقطت الأطباق من يدها في هلع منادية على زوجها.

أتى مسرعًا يسألها عن سبب ذعرها، فأشارت صوب اللوحة مضطربة، فاقترب وتأملها عن كثب، وقال:

- أليست هذه صورة سيدات المصبغة التي كانت في القبو؟

- أنا لم أرَ هذه اللوحة في حياتي.

- يا إلهي، صبري لم يكن يبالغ إذن!

- ماذا تقصد؟

- صبري كان يقول لي إن هذا البيت بُني فوق مصبغة مهجورة، كانت مقرًّا لحزب من النساء ينظمن حركة فدائية ضد الاستعمار، فأحرقهن الإنجليز، ومن يومها وأرواح تلك السيدات تسكن البيت...

اختفى المطبخ واللوحة والحوض والأطباق، فسحبت شويكار حسين من يده وصعدا إلى غرفة نومها.

وقفت شويكار في الزاوية وتركته يشاهد.

كانت نائمة نَديَّة الجبين، وعلى الكومود كوب من الماء وشريط من دواء الهلوسة قد ابتلعت منه الكثير، ودخلت في نوم عميق، ولكن سليم مستيقظ بجوارها يتحسس شعرها الأملس، ويُحرك أنامله على جسدها الناعم.

مال عليها وأخذ يوسوس في أذنها:

- نحن في حاجة إلى مساعدتكِ يا شويكار، لقد ظُلمنا وغُدر بنا مثلكِ، قهرتنا الحياة كما قهرتكِ.

حركت أناملها المخدرة، وتقلبت على جانبها بهدوء تحت تأثير الدواء، وضع يده على خدها وأكمل:

- اقتصي لنا، اقتلي من غَدَر بسيدات المصبغة، اقتليهم لأنهم يستحقون.

تمتمت النائمة:

- سأقتلهم لأنهم يستحقون.

اختفى ديكور المنزل كله، ليتحول إلى مساحة كبيرة، مزرعة معزولة في طريق مقطوع، منزل كبير وحظيرة طين بها الكثير من الخنازير، وحارس نائم على البوابة، وسليم يقفز من فوق السور بخفة كأنه اعتاد ذلك.

دخل المزرعة مرتديًا قفازيه وحاملًا حقيبة جلدية، فتح باب الحظيرة تحت ضوء القمر، سحب أربعة خنازير، تسلل من الباب

الخلفي للمنزل، نزل القبو، ألقى بالخنازير فيه وتأكد أنه ما من شيء قابل للأكل بالداخل.

أحكم إغلاق الباب بالقفل، صعد إلى غرفة تشارلز، وجده نائمًا يشخر، دخل بحذر، وقطع حبل الهاتف، أغلق النافذة ثم أغلق عليه الباب بالمفتاح الموجود في مقبض الباب.

ظل في البيت ستة أيام، يسمع قباع الخنازير الجائعة وصراخ تشارلز الذي لا يفهم من حبسه في غرفته.

ستة أيام لم يزر أحد تشارلز المزعج، وحتى حارس المزرعة الشاسعة، لم يطلَّ عليه في البيت ولو مرة، فلطالما مقته الجميع.

صعد سليم إلى غرفة العجوز حاملًا كماشة وكيسًا ورقيًّا، ذهِلَ العجوز عند رؤيته، ولكنه لم يمهله.

ضربه على رأسه، سحبه إلى الحمام، خلع أسنانه وأظفاره كلها ثم نزع عنه ملابسه.

جره إلى أسفل، فتح باب القبو بحذر، ثم ركل جسد العجوز الذي تدحرج على السلالم فتكسرت عظامه العتيقة، مما سهل على الخنازير نهشه، ثم أعادها سليم لمكانها فور أن أنهت وجبتها.

خلع سليم ملابسه الملطخة بالدماء، احتفظ بالأسنان والأظفار التي جمعها من ضحيته الأولى، كتب على الحائط:

الأول من أصل ثلاثة عشر

أخرج ملابس نظيفة، ارتداها وظل في النافذة يراقب الحارس حتى رآه يتجه إلى قيلولته اليومية.

خرج من المنزل ثم قفز من فوق السور.

عاد ديكور غرفة نوم شويكار، دخل سليم مبتهجًا، وجد شويكار جالسة أرضًا بجوارها شريط الدواء.

كانت تحرك رأسها ذهابًا وإيابًا وتهذي وتغمغم: «لن أقتل أحدًا، لن أقتل أحدًا، لن أقتل أحدًا».

جثا على ركبتيه أمامها وسحب يديها، ثم نظر لراحتيها قائلًا بذهول مصطنع:

- ما هذا الدم الذي على يديكِ يا كيكي؟

نظرت ليديها، لم يكن بهما شيء، أجابته تحت تأثير الدواء:

- دم، أنا لا أرى شيئًا!

سحبها فنهضت ومشت خلفه في حالة تخدير وغياب تام عن الوعي، دخلا الحمام.

ملأ البانيو، ثم اتجها إلى الحوض، أخذ يغسل لها كفيها قائلًا:

- دم مَن هذا؟

- لا أعرف، هل شوشو قتلت شخصًا آخر؟

قبَّل جبينها:

- لا تقلقي يا حبيبتي، سأُذكركِ بكل شيء، دعينا أولًا نغسل عنكِ هذا الدم وهذا الطين.

وضعها في حوض الاستحمام الدافئ، وأخذ يصب الماء على رأسها وهو يهمس بصوت حنون:

- الذنب ليس ذنبكِ يا كيكي، لقد اتبعتِ تعليمات سيدات المصبغة، وشوشو هي التي نفذت، ذهبتِ إلى مزرعة تشارلز في وقت إجازة الطباخ السنوية، الحارس نائم، الخادم رُفِدَ لأن

تشارلز اكتشف أنه يسرقه، ولم يعين خادمًا جديدًا بعد. التوقيت مثالي للاستفراد بتشارلز، لقد أطعمتِه للخنازير الجائعة.

أغمضت عينيها غائبة عن عالمها، ثم رددت:

- أطعمته للخنازير الجائعة.

- لن تخبري أحدًا، لا أحد سيعرف، وإن عرف أحد، فالذنب ليس ذنبكِ، هن أمرنكِ وشوشو نفذت.

همست مرددة:

- هن أمرنني وشوشو نفذت.

اختفى البانيو الدافئ واختفى الزوجان.

ظهر سليم في موقع كل جريمة، يقطع جثة ألبرت بالمصنع المهجور، يوسع جون الشاب ضربًا، يصب الأسمنت فوق جثة قوت القلوب ويلقيها في النيل، يدفن جثتَي فاكر وشاكر ثم يحرق العشة، يجلس ضاحكًا مع الأسطى رضا ويراه يأكل الكباب والكُفتة، ثم يضعه في البرميل، يلقي بجثتَي فُتنة وسرحان في عنق المدفأة، ثم يسكب الملح والثوم وحامض الليمون، رآه يطبخ أعضاء عباس البُرص في قِدْرٍ كبيرة، ويستنشق رائحة طبيخه بمزاج مبتهج وابتسامة رضا.

وبعد كل جريمة، يختم موقع الجريمة بعلامته المسجلة، جملة مكتوبة على الحائط يرقم فيها الجثث.

قبل كل جريمة، يضيف وجه ضحيتها إلى لوحة سيدات المصبغة، وبعد كل جريمة، يشطب وجه ضحيته.

بعد كل جريمة يعود إلى شويكار التي تشرذمت أكثر بين شخصية كيكي، التي أفزعها الوضع فاختفت تمامًا ولم تعاود الجلوس في

كرسي القيادة، فظلت تتأرجح بين شوشو التي أحبت تقمُّص دور المنتقمة للنساء الفدائيات، وبين شويكار التي تلعن عجزها عن سيطرتها على جرائم شوشو المزعومة.

بكت على تلك الحالة، تقاوم ذكريات مندسة في عقلها، مشاهد دموية لم تشهدها ولم ترتكبها، ولكن سليم الجراح المختل زرعها في مخها بعبقرية حتى فاض بها الكيل وحاولت الانتحار.

أخذها إلى وجدي عبد الغفار كما طلبت هي، فور أن أودعها في غرفتها، اتجه إلى مكتب وجدي ودار بينهما حوار قصير.

- أريدك أن تعطيها حبتين يوميًّا من هذا الدواء.

أخذ منه علبة الدواء، ثم قال:

- هذه حبوب مهلوسة، ستزيد حالتها سوءًا وتقودها إلى حافة الهاوية، و...

- أنا زوجها، فقط نفِّذ ما أقوله لك.

- من تظن نفسك حتى تتدخل في طريقة علاجي لمرضاي؟

- أظن نفسي الطبيب الذي خيط جرح مريضة من مرضاك حاولت الانتحار؛ لأنك تنتهكها باستمرار مستغلًّا اختلالها العقلي.

- أنا لم ألمس زوجتك قَطُّ.

- ولكنك لمست غيرها، معتمدًا على أنهن مجنونات، من سيصدق ادعاء مريضة نفسية، صحيح؟

ابتلع ريقه بصعوبة ثم قال:

- لو عُرف أنني أعطيها هذا الدواء، فسيسحبون مني رخصة مزاولة المهنة.

- لا أهل لها غيري، افعل ما طلبته منك، وإن وصل هذا الأمر إلى أي شخص فصدقني، رد فعلي سيفاجئك.

اختفيا، ظهرت شويكار تجلس في غرفتها بالمصحة النفسية.

دخل عليها وجدي ومعه تلك الحبة الملعونة وكوب الماء.

أخذت الدواء في فمها ثم شربت الماء، ابتسم لها وخرج.

ظلت تنظر للباب حتى تأكدت أنه رحل بعيدًا، نهضت من سريرها متجهة إلى المرحاض، رفعت غطاء الحمام، ثم بصقت الحبة التي خبأتها تحت لسانها وشدت السيفون.

تبدل أثاث غرفة المصحة العقلية إلى أثاث منزل سليم الذي عاشا فيه فور خروجها من المشفى، عسى أن يحسن ذلك حالتها، ويبعدها عن ذكرياتها القاسية في بيت صبري، التي أصرت أن تبقى فيه حتى لا يسكنه غيرها ويكتشف جثته في المطبخ.

كان سليم يرتدي نفس ملابس الليلة التي اعترفت فيها شويكار بجرائم ظنت نفسها مرتكبتها، ويتحدث في الهاتف بعصبية مع دكتور وجدي.

- شويكار حامل!

- يستحيل أن تحمل مع الأدوية التي تأخذها.

- لماذا أتصل بك إذن يا غبي، هذا يعني أنها توقفت عن أخذ الأدوية، وستنشط ذاكرتها وتستعيد انتباهها!

- أنا لم أتوانَ عن إعطائها الدواء، لا بد أنها كانت تتظاهر بـ...

- اتفاقنا كان واضحًا، تعطيها الدواء، أخفي فضيحة تحرشك بالمريضات.

- فعلتُ ما بوسعي، هي التي تتصرف تصرفات خبيثة وماكرة كلما تركت شوشو تقود شخصيتها.

ركل سليم الكرسي في الزاوية بغضب، ثم قال وهو يلهث سخطًا:

- أنصت إليَّ، هذا الضابط اللعين حسين الألفي سيزور عيادتك ليسألك عن شويكار.

- لماذا؟

- لأنها تورطت في إحدى عشرة جريمة قتل.

- يا إلهي! ولكنها لا تملك ميولًا عنيفة، فهي...

- بل لديها ميول عنيفة، ويمكن أن تقتل، ولكنك لن تقول هذا بوضوح. اسمع، إليك ما ستقوله لهذا الضابط بالحرف.

اختفى الهاتف ثم ظهر سليم في المشفى بجوار شويكار، بعد أن حاولت الانتحار في بيتها قبل القبض عليها بدقائق.

كانت فاقدة للوعي، تُخرِّف من المهدئات التي أخذتها، فسحب راحتها اليسرى ورسم عليها الوجه الثاني عشر، ثم أخذ يهمس:

- يجب أن تهربي، لم يبقَ سوى واحد وترتاحين، سنساعدكِ على الهروب من المشفى، تذهبين إلى شقة أدلار ليلًا، تلقينه في مغطس الاستحمام، تسكبين عليه حمض الكبريتيك حتى يذوب في البالوعة، المكان الذي يستحق أن يكون فيه.

- المكان الذي يستحق أن يكون فيه.

١٢

Lemon Drop(*)

شعر حسين بيد تدفع ذراعه، فانتفض وشهق وفتح عينيه.

كان في الغرفة التي أخذه إليها المحمدي، وقررت شويكار أن تلمسه فيها حتى يفقد وعيه ويدخل في غياهب الرؤى، وتحتل حلمه وتقوده إلى حيث تريد لتريه تاريخ الفخ الذي أسقطها فيه فؤادها.

وجد المحمدي يوقظه وهو يقول له:

- لقد نمت في مكانك يا حسين!

نهض من غفوته الإجبارية وجلس مكانه على السرير، تلفت في الغرفة حوله، لم يجد شويكار.

ربما كل هذا لم يحدث، لم يرَ شبحها، مجرد إرهاق، هذه الأحلام ليست سوى عقله الباطن الذي انشغل بالتفكير في القضية.

قال المحمدي:

(*) «قطرة ليمون»: أغنية جاز للمطربة إلا فيتزجيرالد تعتمد على الارتجال الصوتي بمقاطع لفظية لا معنى لها.

- شويكار لم تنتحر، الطبيب الشرعي قال إن هناك آثارًا تدل على موتها خنقًا، سيقوم بتشريحها ليؤكد لنا أن...
- سليم خنقها بالوسادة.
- هذا يفسر عدم وجود علامات أصابع أو حبل حول رقبتها، ولكن لماذا سليم؟

كيف يخبره أن روح شويكار الميتة أخبرته؟

- مجرد حدس.
- في محله، موظف الاستقبال والممرضة والعسكري، جميعهم شهدوا أن سليم هو الوحيد الذي دخل غرفتها.
- يجب أن نقبض عليه، و...
- أرسلت قوة للقبض عليه، إن لم يهرب من البلد بعد فعلته هذه، فهناك أمل أن نمسك به لنحاكمه بتهمة قتل شويكار.
- بل بتهمة قتل اثني عشر شخصًا، سليم هو الذي ارتكب كل الجرائم، فيما عدا مقتل صبري.
- معنا دليل؟
- ثلاثة عشر، شارع المنصورية، حي باب الشعرية، الجمالية.



اتجها إلى العنوان.

صعدا البناية كما صورتها له شويكار، دخل الشقة كأنه يحفظها عن ظهر قلب، اقتحم الغرفة المنشودة، ومن خلفه المحمدي.

وجد اللوحة ومن خلفها الدفتر والرسائل، فتح قاعدة الكرسي، ثم وجد الأكياس كما أرته شويكار بالضبط.

كان هذا كل ما يحتاجه من أدلة رسمية سيتمكن من تقديمها ليثبت أن خط شويكار صاحبة هذه الرسائل هو خط رديء كنكش الفراخ، بينما الدفتر الذي قدمه سليم هو خطه الحقيقي الذي يطابق الخط في مواقع الجرائم.

تمكنوا من القبض على سليم في المطار قبل أن يهرب خارج البلاد.

أنكر كل شيء، تشبث ببراءته بأعنف الطرق، ولكن كل الأدلة كانت ضده، خاصة حين اعترف وجدي بأن سليم أجبره على أن يعطي شويكار حبوبًا مهلوسة، وكان الدليل الأكبر هو الدفتر الذي وجده في شقة الجمالية.

بمجرد أن قرأه حسين والمحمدي، وعرفا أنه دفتر مذكرات سليم، عرفا أن مصيره حبل المشنقة لا محالة.

لو بحثت عن الراحة فلن تجدها إلا في قبرك.

هذه كانت الحكمة التركية الأثيرة لدى أمي. كلما تذمرت من شيء كانت ترددها على مسامعي، ولكن من البديهي أن يكون هذا المثل المفضل لامرأة لم ترَ في حياتها أي راحة.

فتاة انحدرت من نسل عائلة لطالما خدمت السلاطين العثمانيين بمصر بصرامة وتفانٍ، بين قصر رأس التين وسرايا عابدين.

كانت أمي ابنة الثامنة عشرة بديعة الجمال وذكية، تفهم السياسة وتتابع الأحداث، ولكن لم تُتحْ لها الفرصة لأن تتكلم وتشارك بأفكارها.

كانت ترى أصدقاء الملك يجتمعون صيفًا بالإسكندرية، يمضون ليالي مرحة، وعلى رأسهم ذاك الإنجليزي تشارلز روبنسون الذي لا يختلف شكله كثيرًا عن خنازيره التي يتاجر فيها.

كان يكبرها بما لا يقل عن عشرين عامًا، ومع ذلك ترى نظرات الشهوة في عينيه من تحت نظارته المستديرة. كثيرًا ما تعمَّد لمس يدها عندما تقدم له الشراب، أو وكز فخذها بكوعه عندما تضع له الطعام. ذلك الخنزير الأبيض الذي لا يشبع أبدًا من النساء، ظل يشتهيها حتى أتت ليلة الثالث عشر من مايو ١٩٣٥ وتحقق حلم تشارلز، كان أخوه ألبرت صديق طبيب خدم القصر الألماني النجس أدلار هوفمان، أخبره عن رغبته المتقدة في تلك الجارية العثمانلية التي تنظر له شزرًا كلما حاول لمسها، وتتمنع أن تحييه إذا رأته يدخل القصر.

لم يكن أمرًا صعبًا أن يطلب ألبرت من أدلار أن يسحب الخادمة الشقراء إلى عيادته ثم يخدرها، ليترك ذلك الخنزير البري يظفر بها كما حلم كثيرًا.

عادت لوعيها وهو يعيد ارتداء ملابسه، نظرت له بهلع فضحك لها بخبث، ألقى بضع أوراق مالية في وجهها ثم خرج وتركها.

مضى الصيف ودرية تبكي كل ليلة في سريرها

مقهورة، لم تكن تعرف بعد أن ذلك الجنين ابن الخنزير المغتصِب أخذ يتكون في أحشائها وبدأ بطنها يكبر.

فقدت وعيها وهي تنظف، فحملتها الخادمات لأدلار طبيب الخدم الديوث. أخبرها بحملها، فكادت أن تفقد عقلها من هول الصدمة. كيف ستتصرف وماذا تفعل؛ فأبواها لن يفهما معنى الاغتصاب، سيظنان أنها عاهرة باعت نفسها، فيقتلانها أو تُعدم بالحديقة لتكون عبرة لمن تسول لها نفسها بالرذيلة. صاحت بهوفمان، هددته أن تخبر الكل أنه تواطأ مع تشارلز ليُفقدها شرفها، صفعها ثم ركلها. سحب درية خلسة إلى القبو، قيدها، اتصل بألبرت صديقه شقيق تشارلز، أتى متعجلًا، بصق في وجه الخادمة الحامل قائلًا:

- حملتِ في ابن زنا وتريدين أن تنسبيه لأخينا النبيل؟!

انهال عليها ضربًا حتى هدأه أدلار ووعده بأن يقتل الجنين. ظهر رشدي الطبيب المصري المغوار الذي كان يسترق السمع لهذه المحادثة كلها. هرَّب درية من القبو، أعطاها مالًا ومفتاح بيته بالجمالية، قائلًا:

- منزلي خالٍ. اذهبي إليه وابقي هناك. العنوان سهل، ثلاثة عشر شارع المنصورية، حي باب الشعرية، بالجمالية.

هربت للقاهرة التي لم تزرها سوى مرة واحدة في طفولتها.

بحثت عن البيت حتى وجدته بسهولة، وبقيت تنتظره. جاء الشهم، عبّر لها عن حبه واحترامه، لم تُصدقه، أقسم لها، أخبرها أنه سمع قصتها خلال حديث ألبرت وأدلار، أقسمت له إنها شريفة ولم يكن لها شأن فيما حدث، صدقها، تبنّى قضيتها، عرض عليها الزواج لأنه أحبها، فقبلت لأن بطنها انتفخ.

نسب ابن الخنزير له، أبقاها مخفية في الجمالية واستمر يعمل بالإسكندرية، ولم يذكر أحد اسم درية ثانية بعد أن تم طرد أهلها من القصر؛ لأنهما والِدا «الهاربة الفاجرة».

مرت الأعوام، وترك أدلار القصر مع قيام الحرب العالمية الثانية، وهرع لإحضار عائلته الفارة من بطش النازية الألمانية. تولى رشدي مكانه، زاد راتبه وهيبته ومكانته، فعاد إلى القاهرة واشترى شقة ببناية أنيقة بالزمالك، نقل إليها درية وطفلها سليم وابنتهما الصغيرة هيدي.

كانت الأمور على ما يرام، أو هكذا أقنع نفسه، كانت درية دائمة العبوس، جرحها القديم والظلم الذي تعرضت له جعلاها مخلوقة من حجر، لا تعرف الابتسام أو الحنان، كثيرًا ما تتمتم وهي نائمة أنها

ستنتقم من الجميع، تمنى رشدي أن تنسى الماضي، ولكنها لم تنسَ يومًا، حتى تشاجرا بسبب قسوة معاملتها له، فسمع ابنهما سليم تفاصيل ولادته، كيف أنجبته أمه مكرهة بسبب واقعة اغتصاب بشعة!

وصل الأمر إلى ذروته عندما وصل تعنتها إلى جعل هيدي تهرب مع من اختاره قلبها، ثم تضخم الأمر عندما ذهب رشدي لكريمان، فأخذت تقذف المحصنات وتخوض في سمعة درية، كاد يفقد الابن عقله عندما أدرك أن تلك الساقطة تعلم ماضي أمه، فقرر قتلها لأنها أهانت كرامته ونعتته بمجهول النسب وهددت أمه وأباه بفضحهما.

شجار بعد شجار بين درية ورشدي، حتى كادت أن تنعدم زياراته لبيته، حتى قامت ثورة يوليو ١٩٥٢، ففقد مهنته بالقصر وعاد إلى الزمالك.

بقي شهرًا بلا وظيفة. شهر تلو الآخر، شجار تلو الآخر، بدأ يختفي عن بيته بالليالي.

لم تكن تعلم درية أين يذهب، وكيف يعود كل ليلة سكرانًا مترنحًا، لم تكن تعلم أن التوأمين فاكر وشاكر قد تعرفا على رشدي بمقهى في الجمالية، ليلة كان يلعن فيها اليوم الذي تزوج فيه من درية البومة.

جلسا معه؛ فقد بدا من علية القوم.

شكا لهما همومه وأحزانه وعجزه. كلمة تلو الأخرى

جرًّا ساقَيه لكباريه تعمل به أختهما الراقصة قوت القلوب.

سحرته بأنوثتها الطاغية وصوتها المبحوح، كانت هي والتوأمان بداية ضياع رشدي، سقوه كأسًا ثم لفوا له سيجارة، مضغ الأفيون ثم شم الكوكايين وهو يلعن الثورة التي أفقدته مكانته.

وقع تحت تأثير قوت القلوب، أدمنها كما أدمن الكوكايين، أصبح يتوسل لها أن تتزوجه، فكان ردها واحدًا:

- سأتزوجك فقط إن سجلت شقتك في الزمالك باسمي.
- ماذا عن درية وسليم؟
- لن أطردهما، لن أذهب للعيش هناك من الأصل، لا تغريني الزمالك، كل ما هنالك أنني أود ضمان أنك لن تمضي معي بضع ليالٍ ثم تتركني، أعدك بشرفي، لن أجعل زوجتك تعرف أنك زوجي، أو أنك كتبت لي تلك الشقة من الأساس.

كتب لها الشقة واقعًا تحت تأثيرها وتشجيع صديقَي السوء له، ثم أخذ يكتب لها كل أملاكه عدا بيت الجمالية.

ظل يمضي أيامه مبتهجًا بين أحضان قوت القلوب واستنشاق ذلك السم الأبيض، حتى مات في عوامتها بجرعة زائدة.

اتصلت بالتوأمين، حملا جثته وألقيا به في شارع فارغ.

وقع الخبر على سليم ودرية وقع الصاعقة، بل زاد الأمر سوءًا عندما طرقت قوت القلوب بابهما ومعها حقائبها.

- غادري شقتي يا مخرِّفة أنتِ وابنكِ.

خرجا من الشقة مدحورَي الرأس، ودرية تلعن زوجها المتوفى، وظل سليم يحفظ شكل تلك الراقصة الساقطة وهذين التوأمين اللذين خدعا والده وسلباه كل أمواله وألقيا بجثته في الطريق.

عادا للعيش في شقة الجمالية.

كادت درية أن تفقد عقلها عندما تركت تلك البناية الأنيقة لتعود إلى الزقاق الذي جاءته أول مرة حبلى بابنٍ فرضته قسوة الأيام عليها، فاستعادت كل ذكريات نكبتها.

لم يعد لديهما أموال تكفي معيشتهما، فقرر الشاب الأشقر أن يصبح رجل البيت.

نزل الشارع باحثًا عن عمل بجوار دراسته في كلية الطب، حتى وجد ذلك الميكانيكي الأسطى رضا؛ سليط اللسان، طويل اليد، والذي قبل بسليم صبيًّا له. علمه المهنة فاستوعبها سريعًا بين سباب ولعن وضرب. صار يعمل بالورشة ليلًا، ويدرس نهارًا، مقابل الزهيد من المال.

بين ضرب بالمفك وإهانة، بدأ صبر سليم الذي يود أن يصبح طبيبًا ينفد.

طلب المزيد من المال لأنه صار ميكانيكيًّا بارعًا، وأصبح الناس يأتون له بالاسم، رفض الأسطى رضا، غضب سليم، قام الأسطى رضا بصفعه، لكمه سليم، سحب الأسطى رضا الكوريك وضربه على ظهره، سقط الفتى، لكمه مرة تلو الأخرى حتى دميت شفتاه، ثم صاح به:

- لا تُرِني وجهك العكر مرة أخرى.

نهض سليم متأوهًا، ولكنه نظر لرضا عن كثب وقد أقسم أن ينتقم منه ولكرامته يومًا ما.

تنقل بين الحِرف: صبي قهوجي، نقاش، صبي نجار. كل ما وجده في تلك الحارة البائسة من مهن عمل بها. نسي أحلامه المترفة وحبيبته الناعمة، حياته صارت أقسى من أن يسهر الليل يفكر في شويكار.

بمرور السنين، كانت والدته تشير عليه أن يذهب لجون، ابن تشارلز، الذي يُعد أخاه، كان فتى معروفًا بأعماله الخيرية والمناداة بحقوق الإنسان، علَّه يجد له مهنة مناسبة، ولكن كرامة سليم منعته.

تعرَّف في الجامعة على شاب يرسب سنة تلو الأخرى، يُدعى سرحان، كان فتى لهو ومرح وحفلات صاخبة، ابن عائلة من الباشوات الإقطاعيين التي سقطت بسقوط المملكة وقيام الثورة، فصار ابن عائلة ذات اسم كبير ومال قليل، وعاش حياته معتمدًا على لعب القمار.

أخبر سليم أن الربح بالقمار مضمون. دعاه للعب

أكثر من مرة، رفض، أصر الآخر، أخذ يقنعه حتى جره للقمار كما جر التوأمان أباه للكوكايين.

تعرف على شلة فاسدة من أولاد العائلات التي دفنتها الثورة، أبناء وزراء الملك ورجال الحاشية وأصحاب الأعمال. كان مجتمعًا فاسدًا وعطنًا، ينظر له سليم بازدراء ثم يتساءل، كيف ساوت الثورة بين والده الذي كان طبيبًا شريفًا وهؤلاء الفاسدين؟ كيف صار مفلسًا مثلهم، كيف ساوى القدر بين من ستر عِرض امرأة وبين من هتكوا الوطن؟!

كبر الحقد الساكن في قلبه، صار يمقت البلد أكثر، لم يعد يبالي بشهادته ولا بالمبادئ النزيهة التي تعلمها يومًا، صوَّب اهتمامه كله نحو شيء واحد: السيطرة والمال.

تعلَّم القمار، وككل شيء تعلَّمه، برع فيه.

تعرف على فُتنة السمراء ذات الشعر الوهاج، كانت بائعة هوى، ولكن في هذه الشلة هي ملك سرحان فقط، ومن تسول له نفسه بغير ذلك فسيدفع الثمن.

لن ينسى تلك الليلة: كسب مبلغًا سيجعله يتوقف عن العمل عند أصحاب الحرف الغلاظ لفترة.

غضب سرحان واتهم سليم بالغش، جمع سليم الأموال، نهض سرحان وقلب الطاولة، كسر عنق الزجاجة وأقسم إنه سيذبحه إذا خرج بماله.

ابتسم سليم بثقة، لكمَ سرحان السكران بقوة فسقط،

ركل شابين آخرَين متحمسَين فسقطا بجانب صاحبهما، نظر لهم بتحدٍّ شاعرًا بقوة جامحة، لم يعد سليم رشدي ناعم الأظفار.

جمع الأموال ثم خرج، مشى في الشارع بضع خطوات ظافرًا، فلحقته فُتنة لاهثة:

- انتظر يا سي سليم.

- لماذا تركتِ حبيب قلبكِ المصاب؟

- قلبي لا حبيب له يا حضرة. أنا لمن يدفع، وأرى أن معك ما يفيض، ألا تود الاحتفال بنصرك؟

أغرته الفكرة، فهو لم يحتفل بأي شيء منذ فترة طويلة، وكان هذا انتصارًا مستحقًّا، فاز بأموال الشاب الفاسد، والآن سيظفر بعاهرته المقدسة.

ذهب إلى شقة فُتنة الوضيعة، وضع الأموال على الطاولة، دخلت غرفتها وارتدت ثوب نومها المثير، ثم أخرجت زجاجة الكونياك.

دخلت المطبخ لتسكب له كأسًا وضعت فيه قرص منوم، وخرجت، شرب الكونياك وراقبها تسحب طبلة من الزاوية، وضعتها بين يديه ثم غمزته بخلاعة:

- لا تخبرني أنك لا تجيد القرع على الطبلة!

ضحك، طبل لها، أخذت تتمايل وترقص بغنج، حتى بطؤ إيقاع الطبل وثقل رأسه وتشوشت رؤيته واستسلم للنعاس.

في هذه اللحظة، اتجهت صوب الباب، فدخل سرحان وصديقاه. أسرع واحد منهما بحمل المال الموجود على الطاولة، وأخذ سرحان ينظر إلى سليم بغضب.

قالت له فُتنة:

- هيا، فلنرحل.

- نرحل! ومن سيحاسب على هذه؟

أشار إلى الكدمة الزرقاء حول عينه، ثم اتجه صوب سليم، جذبه من قميصه ولكمه، فانضم إليه الشابان، وأخذ الثلاثة يوسعونه ضربًا على مسمع ومرأى من فُتنة.

بين لكْم وركْل، لم يستطع سليم أن يستجمع قواه بسبب ذلك المنوم الذي جعل أعصابه مرتخية لا سيطرة له عليها.

سئموا من ضربه، ثم أخذوا فُتنة وتركوه، ليستيقظ لاحقًا بوجه متورم وغنيمة مسلوبة، وشعور بالحماقة لسقوطه في خدعة فُتنة.

عاد لأمه مضروبًا مهزومًا منكسرًا، فقابلته بصياحها القاسي:

- أين أنت منذ البارحة، أهكذا تتركني أبحث عنك في الشوارع كالمجاذيب، ماذا أصابك، خُضت شجارًا؟

بكى لأول مرة، وقال بقلة حيلة:

- أرجوكِ يا آنَّا، دعيني وشأني.

انفطر قلبها فهرعت إليه:

- أتبكي يا ولد؟

- أتريدين أن تصفعني الحياة على قفايا مرارًا وتكرارًا، من دون حتى أن أبكي؟

- بل أريدك أن تنتقم من تلك الدنيا التي أذلتنا.

رفع رأسه وأخذ ينصت إليها بانتباه:

- أنت ابني القوي، لن تترك الحياة تظلمك كما ظلمتني، كن قويًّا، اثأر لكرامتك، ابحث عن فرصة تعيدك إلى المكانة التي تستحقها واستغلها قدر استطاعتك.

- هل تنمو الفرص على الشجر، أي فرصة سأجدها في تلك الحارة الحقيرة؟!

- الفرصة متاحة، آن الأوان لتطالب أباك بحقك.

- كيف وقد سجل كل ممتلكاته باسم قوت القلوب الحقيرة؟

- أنا أقصد أباك الحقيقي: تشارلز.

- ألن تكُفي عن الحديث في هذا الأمر؟ قلت لكِ لا وألف لا، لو لمحتُ خيال هذا النجس فسأقتله بيديَّ العاريتين.

- توقف عن هذا الفكر المتصابي، لقد حدَّثت ابنه اليوم.

- ما معنى هذا؟ كيف وصلتِ إلى جون، و...

- من معارف سابقة في رأس التين، وقد دلوني عليه،

هو فتى طيب، ليس وغدًا حقيرًا كعمه وأبيه، أصيب بالصدمة من بشاعة ما فعله والده، وابتهج حين عرف أن له أخًا، وطلب مني أن أرسلك إلى فيلَّته حتى يعوضك عما حدث.

- قلبي غير مرتاح لهذه الفكرة.

- وهل قلبك مرتاح للفقر، للوحل الذي يلطخ حذائي بمجرد أن أخرج من هذا البيت الوضيع؟ ستذهب إلى جون، أم أذهب أنا بنفسي وأتسول منه المال؟

استحم وتعطر وارتدى بذلته القديمة، واتجه إلى فيلَّا جون المرموق المشهور بجمعياته الخيرية.

استقبله صاحب الشعر اللامع والجسد الرياضي والسيجار الكوبي بابتسامة مصطنعة.

طلب منه أن ينزلا للقبو ويتحدثا هناك؛ كي لا يسمع أي شخص من الخدم ما يدور. نزل معه، ولم يكن يعلم أنه سيجد رجلين مفتولي العضلات ينتظرانه بنظرات لا تبشر بخير.

أغلق جون باب القبو قائلًا:

- إذن أنت الأخ الذي يطالب بمال أبي، وتهددنا أمه بفضيحتنا به في المجتمع؟!

- لا أريد شيئًا منكم، الله الغني.

- لماذا جئتَ إذن؟

نظر لصاحبَي العضلات، ثم قال سليم:

- إن كنت تريد العراك، فكن شجاعًا قويًّا وواجهني رجلًا لرجلٍ.

- يا عزيزي، العالم مليء بالشجعان الجوعى، القوة في الذكاء والثراء، لا العضلات والقلب القوي، وأنا لا أظن أن عضلة عقلك بقوة عضلة ذراعيك.

أشار إلى صاحبَي العضلات قائلًا:

- لا أريده ميتًا، يبدو لي شابًّا ذكيًّا سيتعلم الدرس، وينسى ما حدث لأمه العاهرة، ويمحو اسم آل روبنسون من عقله إلى الأبد. المشكلة في العجوز التي لم تتعلم الصمت حتى وقد بلغت من العمر أرذله، أرسلوا لها هذا الجربوع. ما كان اسمه؟

أجاب أحد الشابين:

- عباس البُرص، يا خواجة.

- نعم! أرسل هذا البُرص لوالدته.

لا داعي لذكر التفاصيل، يكفي القول بأنه ضُرب حتى أُغلقت عينه اليمنى من شدة الورم، وتكسرت أصابعه، وفقدَ سنتين، ولم يعد يسمع بأذنه اليسرى، وشُقت شفتاه ونزف أنفه، ثم سكبا عليه الماء البارد وحملاه بالسيارة وألقيا به بعيدًا عن منزل جون الثري الخير.

لا يعلم كم مر عليه من الوقت حتى استعاد وعيه وحاول أن ينهض.

لم ينهض تمسكًا بالحياة، بل ليلحق بمن تبقى من عائلته المنكوبة.

نهض ومشى حتى وجد سيارة أجرة أصر سائقها أن يقوده للمشفى، ولكن سليم ذهب لمنزله، في لحظة دخوله البناية خرج شاب نحيف ذو أنف رفيع، وبوجهه ندب تمتد من جبينه حتى ذقنه. حفظ ملامحه، ولكنه كان سريع الحركة، خبط كتفه وركض خارجًا، فناداه سليم:

- عباس!

التفت، فتأكد سليم من هويته، ركض عباس سريعًا.

لم يحاول سليم أن يتبعه، قفز على ساق واحدة صاعدًا تلك السلالم المتسخة المحطمة.

وجد باب الشقة مواربًا، دخل مناديًا بأنفاس محترقة ونبرة متهدجة:

- آنَّا، آنَّا!

دخل غرفتها فوجدها ملقاة أرضًا تئن وسكينًا حادًّا مستقرًّا في صدرها.

بكى:

- لا تتركيني يا آنَّا!

عبست وقالت بنبرة مرتعشة:

- أين هيدي؟ أريد هيدي.

لفظت أنفاسها الأخيرة.

سجن دموعه، أغلق لأمه عينيها، ثم جلس بجوار جثتها، ووضع رأسها في حجره وأخذ يمشط شعرها الذهبي بأنامله.

بلع حزنه واعتلت ملامحه الجدية، نظر أمامه نظرة رجل خسر كل شيء ولم يبقَ له سوى هدفه: الثأر.

دفنها ودفن معها ما تبقى من إنسانيته، صار كالميت الذي دُفن جسده وصعدت روحه إلى السماء، ولم يتبقَّ سوى شبحه الهائم على وجه الأرض باحثًا عن الانتقام ممن قتلوه.

استجمع قواه، ولم يبكِ من يومها، لم يتشتت ولم يشعر بأي شيء، كلما رأى تلك اللوحة الزيتية التي رسمها لحبيبته كان يحن لحياته الوردية، ولتلك الطفلة التي ذِكرها كان قادرًا على أن يذيب قلبه بين ضلوعه التي طحنها الدهر، ولكنه كان يغضب من لحظات ضعفه، ويقرر أن يدفن حبه لها، وللكتب، وللأفلام، ولأكلهما للجيلاتي معًا متشابكَي اليدين على الكورنيش في أعمق نقطة في روحه.

أكتب عن ذاك السليم بصفة الغائب، لأنه مات ودُفن يوم دُفِنَت أمه، يوم حسبته الحياة عبدًا ضعيفًا سيترك القدَر يسلبه كل شيء: عائلته وكرامته، ومجده وشبابه، وأمواله وحبيبته.

سليم الذي يتكلم الآن سيسترجع كل ما أُخذ منه رغم

أنف الكون، وسيقضي على كل نفس افترت عليه، وسيُحقق العدل لنفسه ما دامت الدنيا لا عدل فيها.

عذرًا أمي، ولكنني لن أنتظر حتى أصل قبري لأجد راحتي.

فرغ حسين من قراءة المذكرات، وهو يأخذ آخر رشفة من فنجان قهوته السادة ويتناقش مع المحمدي فيما قرأه:

- أهذه النهاية؟

- إنها مذكرات شخصية وليست رواية لنجيب محفوظ يا محمدي!

- ولكنني أريد أن أعرف البقية، كيف أصبح ثريًّا؟ كيف جمع المعلومات عن أعدائه؟ كيف وجد شويكار؟ لماذا رسم ثلاثة عشر بورتريهًا إن كان أعداؤه أحد عشر فقط، وإن زدنا عليهم صبري فسيكونون اثني عشر، فمَن الوجه الثالث عشر؟

- لديَّ تفسير فلسفي عميق.

- أطربني.

- الوجه الثالث عشر هو وجهه الشخصي، هو انتحار سليم نفسه، ليس انتحاره الجسدي، بل الروحي والمعنوي.

- ليتك لم تطربني، لا أظنه بهذه الشاعرية والفلسفة. أتظنه وجه أخته، اعْتبرَها من أعدائه؟

- على ذكر أخته، هل أتممت إجراءات وضع ابن سليم وشويكار تحت وصايتها وزوجها؟

- نعم، وأتمَّا تسجيل شهادة ميلاده.

- ماذا أسمياه؟

- آرام.
- أي اسم هذا؟!
- زوج الأخت أرمني، فاختار له هذا الاسم العجيب، قال إن معناه الملك النبيل.

دخل أبو حمدي الفراش يحمل كوب شاي لحسين كما طلب، وكوب الزنجبيل المغلي ومعه ليمونة نصف مشقوقة للمحمدي.

أتم المحمدي شق الليمونة إلى نصفين، عصر النصف الأول على كوب الزنجبيل، ثم حدث ما يحدث كلما وُجد حسين في مكان فيه ليمون: تعطنت الليمونة وجفت، وظهرت أمامه روح ميت من الذين يحومون حول البشر، من دون أن تتمكن عيونهم من رؤيتهم.

زفر حسين، وحاول أن يتجنب النظر إلى روح الرجل الضخم الأصلع الذي ظهر في مكتبه تائهًا، واقترب من الليمونة ووقف يحدق إليها قليلًا، ثم خرجت روح الميت من غرفة المكتب.

تمتم المحمدي وهو ينظر إلى نصف الليمونة:

- هذا الفراش الغبي أعطاني ليمونة عطنة.

ضحك حسين من دون داعٍ، فاستغرب المحمدي وسأله:

- ما الأمر يا حسين؟
- أتظن أن اللعنات تورَّث؟
- ماذا تقصد؟
- إذا أُصبت بلعنة، فهل ستنتقل لابني ولحفيدي بالوراثة؟

رأى ملامح عدم الفهم على المحمدي، فضحك وغيَّر الموضوع.

عجز حسين الألفي عن توضيح ما يقصده، فأي مجنون قد يصدق أنه أصيب بلعنة فريدة من نوعها، تجعله كلما اقترب من الليمون، رأى أرواح الموتى لأربعين يومًا؟!

القائمة الثانية

روك

١

Sympathy For The Devil(*)

صيف ١٩٨٤

قرع الدرامز، خشخشة الماراكاس اللاتينية، الضرب على طبل الكونغا، وميك جاغر يصيح بحماس.

طنطنة الجيتار الكهربائي، ضحكات شيطانية متقطعة، ثم يبدأ ميك في الغناء داخل أذنيَّ:

من فضلك، اسمح لي أن أقدم نفسي

أنا رجل الثروة والذوق

لقد كنت موجودًا منذ سنوات طويلة جدًّا

سرقت روح مليون مؤمن

أخذت أحرك عصوَي الدرامز على الإيقاع، وكلي ثقة بأنني أبرع من تشارلي واتس، ولكن وجود ليسا وتَّرني بعض الشيء.

كانت ترتدي سترة فضية تلمع بشكل مبالغ فيه، خاصة أنها

(*) «تعاطف مع الشيطان»: أغنية روك لفرقة ذا رولينج ستونز.

تقف الآن أمام الشباك والشمس تنعكس عليها، فصارت تشبه كرة الديسكو.

لا أسخر من هيئتها، على الرغم من أن السخرية والتنمر من طبعي، ولكني كنتُ أُقدر تفرُّد مظهرها.

حسنًا، ليست متفردة كثيرًا؛ فهي تقلد مادونا، ولكنها على الأقل لا تشبه زميلاتي في المدرسة أو في النادي.

تضع زينة صارخة مثل مغنية البوب الأمريكية، الكثير من الكحل الأسود والمسكرة، حاجبين أسودين رفيعين، فيضًا من السلاسل الذهبية الضخمة، طلاء أظفار أسود متآكلًا، خاتمًا بكل إصبع، أساور كثيرة، تنورة قصيرة أسفلها جوربان أسودان يشبهان شبكة الصيد، حذاءً عاليًا يلمع، وأكثر تفصيلة تعجبني هي أن شعرها القصير لونه وردي كعلكة الفراولة.

لا أدري متى وكيف تعرفتُ على ليسا، ولا أدري إن كان اسمها حقًّا ليسا أم هو لقب تدليلها، كل ما أعرفه أنني أحب رفقتها.

ذهبت معي اليوم إلى كشك فتحي لشراء شريط مادونا الجديد، فاكتشفت أن ذوقها الموسيقي يشبهني.

اكتشفتُ أيضًا أنها تجيد الغناء، صوتها قريب جدًّا لمادونا، وربما لهذا تقلد طريقة لبسها ولغة جسدها.

امتد الحديث بيننا عن الموسيقى لساعات، أخبرتني أنها تتابع برنامج «العالم يغني»، بل وتجيد عزف مقدمته على الهارمونيكا، وقد أثبتت هذا بأن أخرجت الهارمونيكا من حقيبة خصرها المزينة بالترتر الوردي، فرافقتها بعزفي على الدرامز. كان تعاونًا فنيًّا عظيمًا.

تشتري ملصقات مطربي البوب والروك، وتشغل بهم حوائط غرفتها مثلي. استأجرت شرائط فيديو أفلام سيلفستر ستالوني، وجاك نيكلسون، وأحبتهم مثلي.

اتفقنا في كل شيء، عدا جيلاتي الفانيلا، كانت تحبه لدرجة أنني لا أذكر رؤيتها من دون تلك البولة البيضاء الموضوعة في مخروط البسكويت.

كانت تقف أمامي الآن بجوار باب غرفتي، تستند إلى الحائط، تأكل الجيلاتي وعيناها مغلقتان، تهز رأسها باندماج على إيقاعي.

ابتسمْت بسعادة حين رأيتها تستمتع بعزفي، ولكن اللعنة، العصا سقطت من يدي!

فتحت ليسا عينيها ونظرت إليَّ باستغراب وأنا أخلع سماعة الووكمان عن أذني وأوقف أغنية «التعاطف مع الشيطان».

قالت بصوت رقيق يليق بمراهقة في مثل عمرها:

- هذا نذير شؤم، إذا سقطت عصا الدرامز من عازف بارع مثلك، فستحل عليه مصيبة!

فتحت العمة هيدي باب غرفتي بلا استئذان، ها قد أتت المصيبة!

دخلت من دون أن تنتبه لوجود ليسا، أو ربما انتبهت وتجاهلتها كعادتها.

أغلقت الباب خلفها ووقفت تتأمل غرفتي، وعلى وجهها ملامح ذعر لا تليق بامرأة هادئة كانت تشاهد برنامج «فن الباليه» في الصالة منذ دقائق.

لا شك أنها ستتشاجر معي لأنني ابتعت المزيد من ملصقات فِرَق

الروك من الكشك، على الرغم من أنها اشتكت من أني صرتُ أعيش في مجلة غربية، لا في غرفة نوم.

لم تنتبه للملصقات الجديدة الموضوعة على السرير، أو تجاهلتها كما تجاهلت ليسا.

وقفت تنظر إلى الأرض. هناك بقعة شوكولا على السجاد الأزرق. توقفت عندها لحظة، ثم رأت كومة ثيابي الملقاة بجوار سريري المائي المفروشة عليه ملاءة مرسوم عليها آلات موسيقية فضية، تجاهلتها هي الأخرى.

لم توبخني على فوضتي، ولا على وجود فتاة غريبة في غرفتي من دون إذنها، لا بد أن هناك مصيبة كبرى جعلتها تبلع لسانها هكذا.

علقت ليسا بابتسامة خبيثة:

- ألا تطرقون الأبواب في هذا البيت؟

لم تسمعها عمتي، فقلتُ متذمرًا:

- ماما، كم مرة طلبت منكِ أن تطرقي الباب قبل الدخول؟!

هرعت صوبي وقالت بتوترها المعتاد وهي تحك شعرها الأشقر الذي تصففه مثل ميرفت أمين في «أنف وثلاث عيون»، أو ربما هذه تصفيفة الأسد؟ لا أعرف أي موضة تقلد الآن، فهي لا تبقي على التصفيفة نفسها لشهر واحد.

- هل ذهبت اليوم لجمع الإيجار من جيهان وتيمور؟

- نعم، تركت المال على تسريحتكِ.

- متى ذهبت ومتى عدت؟ أريد الميعاد بالدقيقة.

- ما الأمر يا ماما؟
- أجب عن سؤالي.
- وصلت في العاشرة صباحًا، أخذت الإيجار ثم رحلت.
- عدت إلى المنزل مباشرة؟
- ذهبت إلى الكشك لأشتري شرائط جديدة.
- كيف ذهبت؟
- بسيارتي.
- أهناك أي شهود على وصولك إلى فيلّا المعادي في هذه اللحظة؟
- تيمور، و...
- غير تيمور وجيهان.
- قريبتهما ناهد، وصل كلانا في الوقت نفسه، وألقت التحية عليَّ.
- أهناك أي شهود على توقيت خروجك؟
- لماذا تولين أهمية كبيرة لخط سيري اليوم؟
- لأنك كنت في موقع الجريمة، والشرطة وجدوا وصل الإيجار باسمك على المنضدة بتاريخ اليوم.
- جريمة! هل تعرض البيت للسرقة؟

هربت الدموع من عينيها العسليتين، فسالت مسكرتها وتركت بقعًا سوداء على قميصها الصيفي الأبيض المخطط بخطوط حمراء رفيعة تصيبك بالدوار إذا حدقت إليها كثيرًا.

ارتعشت شفتاها والْتوت وهي تقول بدراميتها المعهودة:

- هناك سفاح في المعادي، قتل اثني عشر شخصًا: عشرة أطفال

في الحي، من بينهم مجدي وعلي، وراشدان؛ هما تيمور وجيهان.

توقفت ليسا عن أكل الجيلاتي وأخذت تحدق إليَّ.

وضعت عصوَي الدرامز جانبًا، وتركت الووكمان على المقعد، ونهضتُ أعانق عمتي العاطفية الضئيلة.

أفرغت دموعها كلها على صدري الذي بالكاد تطوله، ثم رفعت رأسها لتنظر إليَّ.

اللعنة! لطخت تيشيرت «E.T.» الجديد بمسكرتها السائلة اللعينة.

مسحت دموعها بأصابعها التي طليت أظفارها بالأحمر الفاقع، ثم قالت هامسة وكأنها تود أن تخفي ما هي على وشك أن تقوله عن آذان الشياطين الحمر وليس ليسا فحسب:

- آرام، لا دخل لك بتلك الجرائم، أليس كذلك؟

- أتسألينني إن كنتُ أنا السفاح؟

- وهل تلومني على سؤالي؟

زادت دهشة ليسا من اتهام عمتي لي، ولكني لم أندهش، اعتدتُ الأمر.

رن الهاتف الأرضي، فقالت عمتي:

- سأجيب أنا. لطفك يا ربي!

خرجت من الغرفة، فعاودت ليسا أكل الجيلاتي، ثم سألتني:

- ماذا فعلت يا آرام حتى تشك فيك عمتك؟

- لم أفعل شيئًا، إنها غبية.

- هيا يا آرام، أرجوك أخبرني، تعرف أنني لن أخبر أحدًا.
نظرت إليها بشك، لا أثق بها بما يكفي بعد.
قالت بابتسامة مشاكسة:
- أتريد ضمانًا؟
- ستمضين على وصل أمانة؟
- كلا يا أحمق، سأخبرك سرًّا عني، كي تفشيه إذا أفشيتُ سرك.
- حسنًا.
- أنت ابدأ، لماذا تظن عمتك أنك سفاح؟
- حسنًا، من أين أبدأ؟ العام الماضي زوج عمتي سيران كان يعلمني القيادة لأستخرج رخصتي فور أن أتم الثامنة عشرة. كنتُ ما زلتُ مبتدئًا، لم أحترف القيادة بعد، ففقدت السيطرة ودعستُ كلب الجيران، صاح سيران وأمرني أن أوقف السيارة ونزل بقلبه المرهف، حمل الكلب المصاب وقاد إلى أقرب طبيب بيطري، لم يمت الكلب، بضعة كسور جُبرت ثم تعافى، ولكن عمتي هيدي وزوجها يصران على أنني حاولت اغتيال الكلب اللعين؛ لأن جارنا الوضيع كان يتعمد إخافتي به. أقسمت لهما إنني بريء من هذا الاتهام براءةَ الذئب من دم ابن يعقوب، ولكنهما أصرا على أنني منتقم شرس، ولا كاري وايت في زمانها.
- أكره هذه الرواية.
- وأنا كذلك، تبًّا لحبهما لروايات ستيفن كينج!
- حسنًا، هذه كانت البداية، ماذا فعلت بعد ذلك؟

- مع بداية هذا العام الدراسي، اختفى كناري وببغاء وعصافير جارتنا التي تقطن في الشقة المجاورة لنا، شكًّا فيَّ لأنني كنت أشكو من زقزقتهم الجماعية التي تؤرقني ليلًا وتشتت انتباهي وأنا أذاكر نهارًا، هل يجوز أن يخاطر طالب ثانوية عامة مثلي بمستقبله لأن جارته المسنة المخبولة قررت ملء فراغ غياب أبنائها المهاجرين بسبعة عشر طائرًا من فصائل مختلفة، تحبسهم في أقفاص ضيقة في الشرفة الملاصقة لغرفتي، ولا يفصل بيننا سوى حاجز خشبي رفيع؟!
- أكره زقزقة العصافير، لماذا اتخذها الناس رمزًا للرومانسية؟!
- تبًّا للرومانسية.
- تبًّا للعصافير، هل قتلتهم؟!
- كلا، سرقت الأقفاص وأطلقت سراحهم فحسب.
- أحسنت، ولكن أيظلمونك كل هذا الظلم بسبب كلب وبضعة عصافير؟
- بما أننا اتفقنا على الصراحة يا ليسا، فلن أخبئ عليكِ شيئًا، هناك حادثة أخرى حدثت في شهر مايو.
- كلي آذان مُصغية.
- كنا في منطقة الخيل بنادي المعادي، وقام الحصان الذي يركبه حسام برفسه بقوة أسفل الحزام، وأكاد أجزم أنه سبَّب له عاهة مستديمة تليق بوغد حقير مثله. الجميع يعلم أنها حادثة قضاء وقدر، إلا عمتي، تلك الداهية التي وهبها الله عينين كالصقر رأتني يومها وأنا أقف بجوار الفرس، وأنتظر اللحظة المناسبة

لوقوف حسام خلفه كي أُخرج إبرة غليظة أشك بها الخيل، فنفر وذُعر وكانت ردة فعله الأولية كما تعلمت من مدرب الخيل أن يرفس، فرفس حسام. أقسمت وأنكرت، ولكنها لم تصدقني، ولولا أنني اعترفت في النهاية وبررت ذلك بأن حسام كان يعايرني بماضي أبي وأمي، ما كانت تعاطفت معي، واكتفت بأن تحرمني لشهر واحد من الدرامز والووكمان والتلفاز. كانت الضربة القاضية منذ شهر ونصف، حين شك سيران في أنني سممتُ خادمتنا أم سامر.

- لماذا يشكون في أنك قتلتها، وقد فحصها الطبيب وأعلن أن سبب الوفاة سكتة قلبية، ودفنها زوجها وانتهى الأمر؟

- سمعت سيران اللعين يقول لعمتي إنه تفقَّد دفتر الأغاني التي أؤلفها، واكتشف أنني كتبت أغنية تتحدث عن قاتل يستخدم السيستول ويقتل به ضحاياه ببطء.

- يا لك من أحمق يا آرام، دونت تفاصيل جريمتك الأولى، ألم تتعلم من أخطاء أبيك؟

- كانت هفوة بسيطة، تداركتها حين واجهني، أخبرته أنها أغنية تجريبية خيالية عارية من الواقع، فكيف سأحصل على سم غير متداول كهذا؟

- صحيح، من أين حصلت عليه؟

- من معمل تيمور، هو يعمل كيميائيًّا في معمل السموم المصري، ولديه عينة من هذا السم، كان يعمل عليها في القبو وأخبرني أن السيستول هو سم سريع المفعول يهاجم القلب والجهاز

العصبي، ولا تظهر آثاره في البول والدم، أي يستحيل تعقبه في جسد الضحية.

– مثير للاهتمام، إذن فأنت عازف درامز بالنهار وسفاح خادمات بالليل؟

– لا تمزحي في تلك الأمور يا ليسا، ما فعلته ليس جريمة، لقد قدمت خدمة لوزارة التضامن الاجتماعي، فلولا أنني أعرف أن عمتي وزوجها يعشقان العدالة كأعينهما ويحترمان القانون أكثر مما احترما والديهما، لدرجة أنهما إذا تأكدا من أنني قتلت أم سامر فلن يترددا لحظة في أن يُسلما عنقي لعشماوي، لقلت لهما إن جريمتي هذه أنقذت سامر من عذاب أليم.

– يتَّمته وتقول إنك أنقذته؟!

– أنتِ لا تعرفين تلك العاهرة القاسية بقدر معرفتي، أتدرين أنها كانت تضربني طيلة طفولتي، أي مدبرة منزل لعينة تلك؟! كانت تفعل الأمر نفسه مع سامر، بل ألعن، لم تكن تكتفي بضربه وتعنيفه وحرقه بالملعقة وربطه في السرير، على أساس أنه لا يشعر بالألم؛ لأنه من ذوي الاحتياجات الخاصة، بل إنني سمعت الفاجرة عديمة القلب بأذنيَّ حين رفعتُ سماعة هاتف غرفة عمتي لأتصل بجيهان، دون أن أعرف أنها تتحدث عبر هاتفنا الأرضي من المطبخ، وتعقد اتفاقية بيع كلية ابنها لابن طنط فريدة.

– فريدة صديقة عمتك في النادي؟

– هي، لعنة الله عليها، أم سامر كانت أمًّا بشعة، أبشع من أمي؛

لهذا سممتها، والآن وبفضلي، ستبقى كليتا سامر في المكان الذي خلقه الله لهما.

تأملتني بعد أن أنهيتُ حكايتي بابتسامة عجيبة لم أفهم كُنهها. أخذت نفسًا عميقًا ثم سألتها:

- والآن دوركِ، ما سركِ يا ليسا؟

- سري هو أنني أحبك يا آرام، وسأظل أرافقك كظلك ما دمت حيًّا، ما رأيك؟

لا أدري ما ردة الفعل المناسبة، لم أرُق لأي فتاة من قبل، كنت أقابَل دائمًا بالرفض والخوف، وكن ينفضضن من حولي.

لا أصدقاء ولا رفاق لي غير ليسا، هل أحبها؟ نعم. هل تخيفني؟ بكل تأكيد.

عادت عمتي إلى الغرفة بعد أن أنهت مكالمتها، فتراجعت ليسا ووقفت في الزاوية البعيدة تراقبنا.

قالت العمة هيدي:

- هيا أخبرني، هل لك صلة بما حدث؟

أرجعتُ غرتي إلى الوراء حتى أمسح العرق عن جبيني، فقررتْ أن تطبق نظريات يوليوس فاست الذي صارت مهووسة بكتبه وبنظريات قراءة الجسد، وقالت:

- لماذا تلمس وجهك وتتصبب عرقًا، أتشعر بالذنب؟

- بحقكِ يا ماما!

- أخبرني الحقيقة يا آرام قبل أن يشي بك جسدك.

زفرت متبرمًا، ثم سألتها بنبرة فاترة:

- هل تؤمنين بأن الإجرام وراثي؟
- أي سؤال هذا؟!
- أريد إجابتكِ يا ماما، هل المجرم يولد مجرمًا لأنه يرث إجرام والديه، أم أن المجتمع المحيط به يدفعه لارتكاب تلك الجرائم؟
- لديَّ إجابة ثالثة: كل مجرم يختار أن يصير مجرمًا، لا يوجد مجتمع كله مجرمون، ولا عائلة نسلها كله قتلة، هذا لأن هناك من يستسهل ويختار الشر، وهناك من يعافر ويصارع ليحافظ على الخير.
- وأنا من الفئة الثانية، لستُ سفاحًا مختلًّا باردًا قاسيًا لا قلب له مثل أبي.
- كيف تجرؤ أن تتحدث هكذا عن أخي؟!
- أليس هو السبب في شككِ في أنني قتلت اثني عشر شخصًا كما فعل؟ هل تشابُه رقم الضحايا هو ما دفعكِ للشك بي، أم فقط لأنني أحمل جيناته الوراثية، أم لأنني أشبهه، أهذا ما يجعلكِ تتعاملين معي كمشروع سفاح تحت الإنشاء؟
- هكذا ترى معاملتي لك يا آرام؟
- هكذا أرى اتهاماتكِ الدائمة لي أنتِ وبابا، ماذا يجب أن أفعل كي أمسح وصمة عار والديَّ عن جبيني؟

هربت منها دموعها، تحب الدراما مثل عينيها.

جذبتني نحوها وعانقتني ثانية، وتلك المرة لطخت ثيابي بحمرة شفاهها. ضاع مستقبل التيشيرت المستورد الذي اشتريته من سفريتنا الأخيرة إلى بورسعيد.

- يا إلهي! أنا إنسانة بشعة، أنا آسفة يا حبيبي، أقسم لك إنني لم أقصد بأي شكل أن أجرح مشاعرك، أنت أغلى ما عندي أنا وسيران.

قبَّلت كتفي، وكأنها لم تُبقع التيشيرت بما يكفي، ثم قبلت جبيني وخدي وهي تمطرني باعتذاراتها ودموعها، ثم قالت:

- هيا، فلنذهب إلى القسم، سيران سيلقانا هناك.

- لماذا؟

- ليأخذوا أقوالك، على ما يبدو أنك آخر من رأى تيمور حيًّا. غيِّر هذه الثياب المبقعة، وارتدِ قميصًا لائقًا، وسرح شعرك واخلع تلك الخواتم اللعينة. حاول ألا تشبه...

- المجرمين؟ لا تخافي، سأرتدي قميصًا مملًّا وأزرره حتى حلقي.

اتجهت صوب كومة ثيابي الملقاة على الأرض لترتبها، فصحتُ فيها:

- بحقكِ اتركي ملابسي، الآن. أنا سأضعها في الغسالة.

- حسنًا، افعل ذلك سريعًا؛ لأنني سأغسل الثياب كلها الليلة.

انتظرتها حتى خرجت من الغرفة وأغلقت الباب خلفها، وسمعت خطواتها تبتعد، ثم أزيز باب غرفتها يُفتح ويغلق.

فقط في هذه اللحظة، اندفعت صوب كومة الملابس التي كان يعلوها ما ارتديته اليوم حين ذهبتُ لجمع الإيجار من جيهان.

انتشلت تيشيرت «The Rolling Stones» الأبيض، وحمدت الله أنني استوقفت عمتي في الوقت المناسب، وإلا كانت رأت الدماء التي تلطخه.

جثت ليسا على ركبتيها بجواري وهي تمد يدها في حقيبة خصرها وتُخرج منها ولاعة وتقول:

- والآن، يجب أن نحرق هذا التيشيرت.

* * *

هذا التيشيرت الدامي كان بداية علاقتي بالقتيلة جيهان عزيز.

في المرة الأولى التي ذهبت فيها إلى فيلَّا المعادي لجمع الإيجار وتسليم وصل السداد، لم أكن حصلت على رخصتي بعد، فذهبت بالدراجة.

ربطتها بالشجرة التي تقابل البيت، وما إن اقتربت من الباب حتى سمعت قرع الدرامز.

دعست الجرس، ففتح لي ابنها ذو السبع سنوات؛ علي.

- مَن أنت؟

- آرام. نادِ لي شخصًا راشدًا أحدثه.

- أبي عند ياسر.

- وأمك؟

- تعزف، تعالَ.

جذبني الصغير من يدي وأغلق الباب حين دخلت.

لم يغيرا الكثير في البيت، ألصقوا ورق حائط برتقاليًّا، زحموا الصالة بأثاث على طراز الهيبي، وكأنهما يأبيان الاعتراف بأن حقبة السبعينيات انصرمت بموسيقاها وجموحها، وأقبلت الثمانينيات بأزيائها القبيحة وصيحاتها الدميمة الألوان والمنعدمة الذوق.

صعدتُ مع علي إلى العلية، أنصت إلى قرع الدرامز، أعرف هذه

الأغنية لليد زيبلين، لم أذكر اسمها وقتها، ولكني أعرف الآن أنها «Nobody's Fault But Mine».

فتح علي الباب، فوجدتها.

انبثق ضوء الشمس من نافذة العلية المستديرة، فسقط على رأسها كهالة مقدسة وهي تعزف.

كانت ربة من أرباب الموسيقى، تعزف بعنفوان لم أره في امرأة من قبل، لا في عمتي القلقة، ولا في موديلز الفيديو كليب المتغنجات السخيفات، ولا في الممثلات مُصطنِعات الرقة.

كانت سماعتا الووكمان في أذنيها، وعيناها مغمضتين، ويداها تعرفان طريقهما لعزف الإيقاع الصحيح في الوقت الصحيح.

قطرات العرق تتصبب كبلورات الكريستال من جبينها ورأسها إلى صدرها الذي يكشفه قميصها القطني الأبيض.

كيف لكل شيء فيها أن يكون بهذا الجمال؟! يا إلهي، حتى عرقها، كان يزيدها حُسنًا!

لا أدري كم دقيقة مرت وأنا أحدق إليها وأتأمل حركة يديها بين أجزاء الدرامز، وأتأمل صورها هي وتيمور التي تملأ الحائط، وكأنني أقف في ألبوم ذكرياتهما، ولكنني لم أستفق من أحلام يقظتي إلا حين توقفت عن العزف وفتحت عينيها ورأتني أمامها، فصرخت وكأنها رأت «أبو رجل مسلوخة».

أفزعتني بصريخها الحاد، فصرختُ مثلها، وكذلك فعل علي.

توقفت عن الصريخ، ووضعت يدها على قلبها لتهدأ، وخلعت سماعتَي الووكمان وهي تقول:

- يا إلهي، كيف دخلت إلى هنا؟!

- هو الذي قادني.

قلت ذلك وأنا أشير إلى علي، فضحكت وقالت بصوت ذي بحة مثيرة أطارت لُبي:

- وشَيتَ بشريكك قبل أول كف!

لم تكن مزحة لطيفة، ولكني ضحكت كالأبله.

وضعت عصوَي الدرامز جانبًا، ونهضت وهي تعيد ربط شعرها الطويل الذي تبعثر من فرط حركتها وحرارة جسمها الممشوق.

انتشلت منشفة من على فخذها، مسحت بها وجهها وعنقها الدقيق وكفيها وصدرها، وهي تقول:

- أهلًا بك يا...

- آرام.

- اسمك لافت، كنت أريد أن أسألك منذ وقَّعنا العقد، هل اسمك إيراني؟

- أرمني.

- ولكنك لا تشبه الأرمن.

- لأنني لستُ أرمنيًّا. أمي مصرية، وأبي أمه تركية وأبوه إنجليزي.

- أهذه جنسيتك، أم شريط منوعات؟!

للمرة الثانية، لم يكن تعليقًا مضحكًا، ولكنني ضحكتُ رغمًا عني.

أخذتْ كوب الماء من على الطاولة المجاورة للدرامز، ارتشفته على دفعة واحدة، ثم سألتني:

- لماذا أعطوك اسمًا أرمنيًّا إذن؟

- لأن زوج عمتي يعتقد أنه إذا سمَّاني اسمًا بلغته، فسأصير ابنه رسميًّا.

- عمتك اسمها هيدي، أليس كذلك؟

- بلى.

- ناهد أخبرتني أن عمتك وزوجها لطيفان، ويحبانك كثيرًا.

- أهذا كل ما أخبرتكِ به عنا؟

رأيتها في عينيها، هي تعرف حكايتي، مستحيل أن يعلم أحد حكايتي المثيرة ولا يتناقلها مع كل من يعرفهم.

أتساءل كيف عرفت ناهد القصة: هل بسبب حسام الذي نقل تلك الحكاية لكل من معنا بالنادي والمدرسة، أم أن عمتي نفسها أخبرتها؟

لِمَ تفضح عمتي نفسها، هل حكت على سبيل مشاركة مأساتها كجزء من الثرثرة النسائية التقليدية، أم على سبيل الشكوى مني؟

تصاعدت تلك الأصوات البغيضة في دماغي، أكره حين تتحرر من قمعي لها وتثور عليَّ.

لمست جيهان مرفقي بحنان، وقالت بابتسامة واسعة:

- أتحب عصير الجوافة؟

- أحبها كثيرًا.

أكره الجوافة بقدر ما أكره حسام!

خرجت معها من العلية التي أوصدت بابها بالمفتاح وهي تحمل علي، ثم قادتني إلى المطبخ.

كانت حالته فوضوية، لا علبة واحدة مغلقة بغطائها الصحيح، والصحون تكاد تقفز من الحوض وتهجم علينا من تراكمها.

أخرجتْ من الثلاجة دورق عصير الجوافة باللبن، وصبت لي في الكوب.

شربتُ مضطرًّا وأنا أحاول ألا أظهر شعوري بالغثيان من رائحة تلك الفاكهة اللعينة، حتى غابت لإحضار الإيجار.

سكبت العصير كله في الحوض، فرآني علي اللعين وضحك.

أشرتُ له ألا يتكلم، فهز رأسه موافقًا.

عادت جيهان ومعها ظرف به المبلغ، وضعته أمامي بابتسامة، فأخذته في صمت ووضعته في جيبي، ثم أعطيتها الوصل.

تأملَته للحظة، ثم وضعته في جيب سروالها وقالت:

- كم عمرك؟

- سأتم الثامنة عشرة في أغسطس.

- أكره تلك الفترة العمرية، إنها السن التي لم تعد فيها صغيرًا بما يكفي لتركض إلى أمك وتبكي همومك، ولا كبيرًا بما يكفي لتتصدى لعاهات المجتمع وتُغيرها.

لم أجد تعليقًا، كنتُ ما زلتُ منشغلًا بسؤال تهربت من الإجابة عنه، فطرحته مجددًا:

- هل ناهد أخبرتكِ عن والديَّ؟

- لماذا تبالي يا فتى؟

- إذن هي أخبرتكِ!

زفرت وأخذت تقرض أظفارها المطلية بطلاء أحمر متآكل، ثم سألتني:

- هل تدخن يا آرام؟

استغربت سؤالها وتوقيته، ولكني تأنيت قبل إجابته؛ فأنا لا أثق بالراشدين، حتى وإن كانوا في حُسن جيهان.

استشعرتْ ذلك، فهمست إليَّ بابتسامة مشاكسة:

- لن أخبر عمتك.

- نعم، أدخن.

- أعطني سيجارة إذن.

ضحكتْ فابتسمْت.

أخرجتُ علبة سجائري التي أستغل خروجي لاختلاس سيجارة منها، أعطيتها سيجارة أشعلتها لها بمقدحتي، فأخذت نفسًا ثم ناولتها لي لنتقاسمها، وهي تقول:

- لا أصدق أنني كبرتُ لدرجة أنني سأعطي نصيحة لمراهق يضاعفني طولًا مثلك، ولكن إن كانت الدنيا علمتني شيئًا، فهو تبًّا لرأي أي شخص فيك وفي ماضيك وفي حاضرك وفي مستقبلك، كررها معي: تبًّا لرأي أي شخص فيَّ.

توقفت عن الكلام، كانت حقًّا تنتظر مني أن أنفذ أمرها.

ضربَت الطاولة وقالت بضحكة مميزة:

- قلت كررها!

- تبًّا لرأي أي شخص فيَّ.

- أحسنت يا فتى، هل تعرف موسيقى الفرقة التي ترتدي تيشيرتها، أم أنك مثل الحمقى الذين يجهلون ما يلبسون؟

نظرتُ إلى لوجو «The Rolling Stones» على التيشيرت الذي اشتريته بكل ألوانه، وقلتُ بثقة:

- بالطبع أعرفهم، وأجيد عزف أغانيهم كافة.

أعطيتها السيجارة، فأخذت نفسًا نفثته وهي تسألني:

- أي آلة تعزف؟

- الدرامز.

- لديك فرقة؟

- أعزف بمفردي، إنها هواية.

- أتود أن تنميها؟

- كيف؟

- أفكر في بدء مشروعي الخاص، أُعلِّم براعم المتمردين على المجتمع أمثالك العزف على الدرامز حتى لا يقتلني الملل. ما رأيك أن تكون تلميذي الأول؟

- متى يمكننا البدء؟

- الآن إذا أردت.

٢

Under Pressure(*)

رافقتنا ليسا.

لم أستأذن من عمتي، وضعتها أمام الأمر الواقع، فتحت باب الأريكة الخلفية، تركت ليسا تركب وأغلقت الباب وراءها لأتركها تجلس على الأريكة بالعرض، تستند إلى الزجاج وتفرد ساقيها الملفوفتين وتأكل الجيلاتي في صمت، حتى وصلنا إلى قسم المعادي.

بمجرد أن عبرنا من البوابة، تشبثت عمتي بذراعي، وكأنهم سيلقون القبض عليها، فضحكت ليسا وهمست في أذني بعبارات السخرية من جبنها.

اتبعنا توجيهات العساكر حتى وصلنا إلى غرفة المقدم عارف الشماشرجي.

(*) «تحت الضغط»: أغنية روك لفرقة كوين والمطرب ديفيد بوي.

كان سيران ينتظرنا في الممر المفضي للمكتب، حيث تتراص مقاعد خشبية مليئة بالمسامير.

نهض فور أن لمحنا، ربما لم يكن قلقه مفضوحًا كقلق عمتي، ولكنه أخذ يرفع وينزل حاجبيه الأسودين الكثين المتصلين معًا اتصال البحر الأحمر والأبيض بقناة السويس، ويمسح عرق جبينه بمنديله القماشي من آنٍ لآخر، ويضغط على فكه وكأنه يحاول كسر حبة عين جمل بين ضرسيه.

نظر إليَّ وكأنني واحدة من الأنتيكات التي يفحصها قبل ضمها للجاليري الخاص به، ثم قال:

- ماذا ستقول للضابط؟

- سأجيب عن أسئلته بصدق.

- أهناك شيء يجب أن نقلق منه؟

- لن أخرج مكبلًا بالأصفاد يا بابا.

- يا بني، أنا فقط أود أن أتأكد من أن كل شيء على ما يرام.

- لا تقلق، كما قلتُ لماما، لستُ قاتلًا بالوراثة.

التفتُّ إلى ليسا وسألتها:

- ستدخلين معي أم ستنتظرينني هنا؟

ظنت عمتي أنني أسألها هي فقالت:

- طبعًا سأدخل معك يا حبيبي.

- كنتُ أسأل ليسا.

قال سيران وهو يربت على كتفي بيد ويطرق الباب بالأخرى:

- ليس الآن يا آرام، أرجوك، ركز!

أتى صوت الضابط الجهوري، فظننت للحظة أنني على وشك أن أقابل بافاروتي بشحمه ولحمه:

- ادخل!

سبقتني ليسا بخفة وجلست على أحد الكراسي الأربعة المقابلة لمقعد المقدم عند مكتبه.

تبعتها فأدركتُ أنني لم أجِدْ كثيرًا عن تخميني. بالفعل، الضابط كان يشبه بافاروتي، بسواد شعره، وكثافة حاجبيه، واستدارة وجهه، وحجم كرشه، ولون بشرته الفاتح، وحتى شعره المريب الذي يبدو كباروكة رخيصة.

لحقنا عمتي وزوجها وجلسا بعدما رحب بهما الضابط وأشار إليهما بالجلوس.

جلستُ بجوار ليسا التي لم تتوقف عن أكل الجيلاتي، وكأننا نقضي يومًا في الملاهي ولسنا في خضم التحقيق في جريمة قتل.

قال المقدم بافاروتي:

- نعتذر لاستدعائكم فجأة.

أجابه سيران وهو يمسح عرق كفيه في منديله:

- نحن في خدمة الشرطة حضرة المقدم، ولكن نود فقط أن نفهم سبب الاستدعاء.

- السيدة ناهد أخبرتنا أنها رأت آرام هذا الصباح في فيلَّا تيمور.

- هذا ما نفعله في الجمعة الأولى من كل شهر، آرام يجمع الإيجار من السيد تيمور رحمه الله.

كررنا جميعًا وراءه:

- رحمه الله.

لم يكرر الضابط مثلنا، ظلت عيناه الضيقتان تتنقلان بين وجوهنا، ثم سألني:

- أيمكنك أن تخبرني يا آرام ماذا حدث هذا الصباح بالضبط؟

أجابه سيران بالنيابة عني:

- لقد وصل إلى الفيلَّا في تمام العاشرة صباحًا، و...

قاطعه المقدم بافاروتي بنبرة حازمة:

- أريده هو أن يخبرني.

نظر إليَّ منتظرًا مني إجابة، فشعرتُ بشيء من التوتر.

أمسكت ليسا يدي على مرأى من الجميع، ولكن يبدو أنهم لم يبالوا بمراهقَين متحابين، لم يعلق أحد على حميميتنا.

لمستها طمأنتني، على الرغم من أن صوت لعقها للجيلاتي يثير حفيظتي، فتنهدت وقلتُ للمقدم:

- كما قال بابا، وصلت إلى الفيلَّا في تمام العاشرة صباحًا...

* * *

قدتُ سيارتي الفولكس، أو كما تدعوها ليسا، الخنفساء الحمراء، التي يخرج عادمها دخانًا كثيفًا وكأنني أسوق مطعم كبابجي صغيرًا.

صففت الخنفساء أمام الفيلَّا البرتقالية ذات الطابقين، المتوارية بين نخيل وأشجار المعادي المزهرة.

كانت طلتها مبهجة أكثر من اللازم، أكثر من أن يستوعب أي شخص أن منذ ثمانية عشر عامًا سكنها سفاح محترف وقاتلة تعاني من الانفصام في الشخصية.

سمعت صوتًا مألوفًا بجواري، فالتفت لأجد سيارة فيات ١٢٤ بيضاء، يخرج منها صوت محمد منير يغني أغنية «شبابيك»، وبداخلها ناهد التي تشبه نادية لطفي بطريقة غير طبيعية، حتى إنني سألتها قبل ذلك إن كانت تمُت لها بصِلة قرابة.

كانت تعدل زينتها، بينما يسألها ابنها مجدي ذو السنوات التسع:

- متى سأذهب إلى النادي إذن؟

- غدًا يا حبيبي.

- بالأمس قلتِ غدًا.

- أعرف يا ميجو، ولكن يجب أن أذهب إلى المشفى لأساعد تلك المرأة المسكينة على الولادة، هيا، ستلعب مع علي وتشاهدان جيمس بوند، وغدًا نسبح.

- وعد؟

- وعد.

حملت صغيرها وأخذت تقبله، ثم فتحت باب السيارة ونزلت معه وهي تحمل عنه شريط فيديو جيمس بوند وصندوق ألعابه.

نزلتُ أيضًا من السيارة، فلمحتني ناهد.

قبلت وجنتي بحميميتها الطاغية، وقالت إن قامتي طالت ما شاء الله، وإنني فقدتُ الكثير من وزني، ولماذا تركت شعري يطول حتى يلمس كتفيَّ، وكيف ماما وكيف بابا، وما أخبار نتيجة الثانوية العامة والتنسيق... حتى أكلت أذني ولاكتها بثرثرتها مسافة نزولنا من السيارة وحتى وصلنا إلى باب الفيلَّا مرورًا بحديقتها الأمامية.

طرقت الباب على عجَل حتى ينجدني تيمور من ثرثرتها، فتأخرت

الإجابة حتى ظننتُ أن المنزل خالٍ وكدنا أن نرحل، لولا أن أتانا صوته الخمل وهو يقول متثائبًا:

- آتٍ.

فتح الباب هذا الثلاثيني، إخناتوني الملامح، ولكن بشرته فاتحة تميل إلى الحمرة، وعينيه عسليتان، وشعره أسود قصير، فلطالما عجزت عن تحديد أي جين من جينات والدَيه أقوى: جين أبيه المصري، أم أمه الإنجليزية؟

كعادته، خرج لنا بطريقة بوهيمية، لا يرتدي سوى سروال منامته البرتقالي المزركش بالرسومات الهندية وردائه الحريري الذي يشبه الكيمونو الياباني.

نظر إليَّ بصوته النعس قائلًا:

- أهلًا آرام.

انتبه إلى أن ناهد واقفة بجواري، فربط طرفَي ردائه ليستر صدره العاري قائلًا:

- كيف حالكِ يا ناهد؟

- بخير يا تيمور، أعتذر منك إذا أيقظتك، ولكني اتصلت بكما كثيرًا بلا رد.

- الهاتف معطل منذ الأمس، تفضلي، جيهان ذهبت لشراء بعض البقالة.

- أنا على عجلة من أمري، هل لي أن أترك مجدي معكم حتى أنهي عملية الولادة المتعجلة تلك؟

- بالتأكيد.

ابتسم تيمور لمجدي الصغير وداعب شعره الكثيف:

- هيا يا بطل، صديقك يلعب في الحديقة الخلفية.

ركض الصغير بحماس إلى الداخل حتى ينضم لصديقه، بينما ابتسمت ناهد لتيمور بامتنان وهي تعطيه صندوق ألعاب مجدي وشريط الفيلم:

- أشكرك، لن أتأخر كثيرًا.

- لا داعي لذلك يا ناهد، نحن عائلة.

شكرَته مجددًا ثم خرجتْ، فتفرغ للحديث معي:

- أنت هنا للدرس أم للإيجار؟

- الإيجار.

- لم أدرك أن هذه الجمعة الأولى من الشهر، حسنًا، ادخل حتى آتيك بالمال.

- أنا على عجلة من أمري، سأنتظرك هنا.

- كما تشاء.

* * *

اختتمتُ حكايتي للمقدم قائلًا:

- عاد بعد خمس أو عشر دقائق وسدد الإيجار، فأعطيته وصل الدفع، ثم عدت إلى البيت.

- هل رأيت أي شيء غريب؟

- على الإطلاق.

- سمعت صوت إطلاق نيران؟

- لا.

- في العادة كنت تأخذ الإيجار من على الباب؟
- في العادة يضيِّفني تيمور أو جيهان بعصير أو كعك ثم أرحل، ولكني كنت على عجلة من أمري في ذلك اليوم.
- لماذا؟
- لأشتري شريط مادونا من كشك فتحي.
- أين هذا الكشك؟
- أمام سينما دوللي.
- قدت من المعادي إلى شبرا من أجل شريط كاسيت؟
- ليس أي شريط، إنه شريط مادونا يا حضرة المقدم!

رآني تافهًا، وربما ذم جيلي كله، رأيتُ ذلك في ابتسامته الساخرة وهزة رأسه.

أردف بسؤال آخر:

- منذ متى وهما يستأجران تلك الفيلَّا؟
- حوالي ثلاثة أشهر.
- هل تقتصر علاقتك بهما على استلام الإيجار؟

صمت لحظة، ونظرت إلى ليسا، يدها لم تترك يدي ولسانها لم يترك الجيلاتي.

أجبتُ المقدم بعد أن تدبرت إجابتي جيدًا:

- جيهان كانت تعطيني دروسًا في الدرامز صباح كل أحد.
- أليس لديك مدرسة يوم الأحد؟
- أدرس في الجيزويت، إجازتنا الجمعة والأحد.
- حسنًا. هل أخبرتك جيهان أن لديها أي مشاكل مع تيمور؟

- كلا، كانت كتومة وقليلة الكلام، أمضي ساعتين من التدريب على العزف ثم أرحل.

كانت هذه ثاني كذبة أقولها للمقدم بافاروتي، ولكنه لم يدرك أنني أستغفله، يبدو أنه لا يفهم في لغة الجسد مثل عمتي.

- وكيف كانت علاقتك بتيمور؟

- أكثر سطحية من علاقتي بجيهان.

- أكنت تعرف أنه مدمن عقاقير مهلوسة مثل الـ«LSD» وغيره؟

شهقت عمتي التي لم تتوقف عن هز قدمها ومَسْك يد سيران بعنف، حتى حبست دمه بين أصابعها الرفيعة.

تلك الشهقة الدرامية وتَّرتني، عمتي تضغطني.

أجبتُ المقدم:

- بالطبع لا.

الكذبة الثالثة.

- هل اشتكى لك الجيران من تيمور وجيهان لأي سبب منذ أن أجرا منكما الفيلَّا؟

- على الإطلاق.

- ولا حتى من أن تيمور يدير معملًا في القبو، يحضر فيه سموم ومضادات سموم كانت تبعث روائح كريهة؟

رفع سيران يده كتلميذ نجيب ممل، وقال:

- أيمكن أن أتحدث يا فندم؟

- تفضل يا سيد سيران.

- أتتنا شكوى واحدة من مدام شيرويت بخصوص انفجار صغير

في المعمل، كان حادثًا بسيطًا جدًّا، يشبه أن تنسى حلة على النار، ولكنه سبَّب صوت فرقعة سخيفة أصابها بالذعر وقت الفجر، هاتفنا السيد تيمور رحمه الله...

كررنا جميعًا وراءه فيما عدا المقدم:

- رحمه الله.

- وطلبنا منه أن يكون أكثر حذرًا.

- حسنًا، لقد أخذنا ما نحتاجه، شكرًا، يمكنك الانصراف الآن.

هممت أن أقف لأرحل، ولكن سيران رفع يده للمرة الثانية وكأننا في حصة كيمياء، وقال:

- المعذرة سيدي الضابط، لديَّ سؤال.

زفر المقدم بافاروتي، وقال بابتسامة سمجة:

- تفضل.

- هل أمسكتم السفاح الذي قتل الأطفال وجيهان وتيمور؟

- السفاح قتل الأطفال وجيهان فقط.

- السيد تيمور نجا من الموت؟

- أجل.

توقفت ليسا عن أكل الجيلاتي، هكذا عرفت مدى خطورة الموقف.

حدقنا إلى بعضنا حتى همست إليَّ:

- ستثير ريبتهم.

رسمتُ على وجهي ابتسامة مزيفة، بينما انفرجت أسارير سيران وهو يقول:

- حمدًا لله، السيد تيمور رجل طيب، لا يستحق تلك النهاية البشعة.

- شكرًا لك يا سيد سيران ولأسرتك الكريمة على وقتكم، سنتواصل معكم إذا أردنا شيئًا آخر.

خرجنا جميعًا، فأطلقت عمتي نفسًا أعتقد أنها حبسته منذ أن صفَّت سيارتها أمام القسم.

حقًّا لا أدري كيف لم يشك الضابط في أن لها دخلًا بتلك الجريمة، ألأن الله قسم له أن يكون لُغده أكبر من مخه، أم لأن عمتي لها حظ الحمقى؟

تركني سيران لأتقدمه أنا وعمتي، وبقي خلفنا حتى خرجنا من المكتب، ورأينا ناهد جالسة على المكتب تبكي بقلب مفطور.

فور أن رأتها عمتي، انطلقت صوبها تعانق صديقتها التي فقدت صغيرها في لمح البصر.

ربتت أمي على ظهرها وسألتها:

- أين ياسر؟

- في الطريق.

قال سيران:

- سنبقى معكِ حتى يصل.

جلست عمتي عن يمينها، وسيران عن يسارها، ثم دفعني للجلوس بجوار عمتي.

لم تتوقف ناهد عن البكاء، ألقت رأسها على كتف هيدي وأخذت تقص عليها ما صار في هذا الصباح اللعين، بعد أن تركتني لآخذ الإيجار من تيمور.

* * *

قادت على عجَل متجهة لمشفى «العزيز للنساء والتوليد».

كانت عملية ولادة فريدة من نوعها ولن تنساها، مريضتها وضعت ثلاثة توائم، وعلى الرغم من روعة تلك المعجزة إلا أنها كانت مُرهِقة وشاقة عليها.

خرجت من غرفة العمليات تجفف عرقها ملتقطة أنفاسها.

شربت بعض الماء ثم القهوة، ثم أخذت بعض السكاكر لتسترد طاقتها، وخرجت من المشفى عائدة إلى فيلَّا جيهان وتيمور.

رأت في شوارع متفرقة بمحيط الفيلَّا بعض سيارات الإسعاف والشرطة، ومجموعة من السكان والجيران والأهالي يبكون منهارين، فتوترت، ولكنها لم تفكر في الوقوف للسؤال عما يدور، بل حدسها دفعها للإسراع إلى منزل جيهان.

وصلت فصفَّت سيارتها البيضاء، ثم دخلت من باب الحديقة الأمامي المفتوح كالعادة.

طرقت الباب من دون أن تلاحظ أنه كان مواربًا، وبدلًا من أن تجد جوابًا من أهل الدار، فُتح الباب على مهلٍ مِن وَقْع طرقها.

دخلت متعجبة ونادت:

- جيهان، تيمور!

قابلها الصمت ورحب بها الارتياب، وكأن مجسات الإحساس بالخطر التي تصاحب غريزة الأمومة عندها التقطت إشارة ما.

- مجدي، علي!

لم تلقَ جوابًا، فبحثت في الصالة، ثم غرفة علي، ولكن لم تجدهما.

خمنت أنهم خرجوا جميعًا للنادي كي يُرفها عن الولدين بالمسبح، ولكن غريزتها قادتها للقبو.

كانت الإضاءة خافتة، والمكان ممتلئ برائحة سُكَّرية خانقة تخالطها رائحة معدنية ثقيلة تحفظها ناهد عن ظهر قلب.

رائحة الدماء!

لم يحتج الأمر سوى بضع خطوات كي ترى ناهد هذا المشهد بوضوح: تيمور ملقى على ظهره، بجواره أنبوب معملي فارغ، جسده بارد، أطرافه متصلبة، وشرايينه ناتئة من أسفل جلده الباهت، فأدركت أن هذه علامات تسمم.

بجواره كانت بندقية الصيد الخاصة بابنة عمها جيهان، وفوقه كانت جثتها ملقاة على ظهرها غارقة في دمائها إثر طلقتين: واحدة في صدرها، وأخرى في جبينها، وما زالت عيناها مفتوحتين.

لا تعلم ناهد كيف لم يُشق السقف وتتحطم الزجاجات المعملية التي تملأ القبو إثر صرختها المذعورة.

لم يكن لها رد فعل سوى الصراخ والركض خارج القبو وهي تنادي باسم وحيدها.

فتشت البيت كله، غُرف النوم والمعيشة والحمامات والمطبخ والصالة والحديقة الأمامية، ثم تذكرت الحديقة الخلفية.

حين وصلت، رأت ما لم يكن ليخطر ببالها، أو حتى يجرؤ على أن يراود أعتى كوابيسها المرعبة.

في الحديقة الخلفية، وبالقرب من أرجوحة الهاموك البرتقالية المربوطة بين شجرتين متينتين، رأت وحيدها.

كان مقلوبًا على وجهه بجوار علي صديقه، ومثله مثل علي: الدماء تغطيه حتى منتصف ظهره لدرجة غيرت لون القميص الذي ألبسته إياه هذا الصباح.

هناك من هاجمه من الخلف بأداة ثقيلة هشم بها جمجمته الصغيرة، ولم يكتفِ بهذا، أطلق أيضًا على رأسه رصاصة غادرة.

كان من المفترض أن تصرخ وتخر باكية بجوار ابنها القتيل، كما بكت صديقيها، ولكنها لم تفعل ذلك، تفاجأت بأن قوتها تضاعفت واندفعت لتحمل ابنها بذراع وعلي بالأخرى، فتبقعت ثيابها الزاهية بدمائهما المتجلطة.

ركضت حتى سيارتها، ووضعت الصغيرين في الأريكة الخلفية، وطارت على الأسفلت.

كانت تعلم أن الأوان قد فات، ولكنها حسبت أنها إذا دعت وتضرعت وناجت ربها بما يكفي، وهي تسرع للمشفى في دقائق معدودات، فسيُبعث وحيدها من الموت.

* * *

ظلت تبكي وتَنشِج على كتف عمتي التي لم تتمالك هي الأخرى دموعها فبقي سيران يربت على هذه وتلك، يعطي ناهد منديلًا، ويمسح لعمتي دموعها بأصابعه المشعرة.

نثرت ناهد ما في أنفها، ثم قالت بصوت أرهقه البكاء:

- دعوت طيلة الطريق أن تكون هناك معجزة كمعجزة موسى، فيقوما من موتهما، ولكنني نسيتُ أن زمن المعجزات قد ولى.

نعم، زمن المعجزات ولى، أشارك ناهد هذا الرأي، ولهذا فعلتُ ما فعلته داخل تلك الفيلّا البرتقالية الملعونة.

بقينا في القسم، عقلي يفكر في كل تفصيلة، وليسا تشكو من ملل الانتظار، حتى وصل ياسر.

عزاه سيران وبكى في حضنه، يا للإنسانية!

عمتي تواسي ناهد، وسيران يواسي ياسر، لو علموا ما فعلته من أجلهم لحملوني على الأعناق.

بقيتُ في هذه الكآبة وهذا الفرط من المشاعر والبكاء والمخاط واللعاب والعويل والنشيج حتى فرغت ناهد وياسر من التحقيق وعادا إلى منزلهما.

في الطريق إلى بيتنا، جلستُ بجوار ليسا التي فردت رجليها وأسندت ساقيها على فخذيَّ بقلة ذوق، وبقينا نسمع عمتي وسيران يتناقشان في تلك الفاجعة كما وصفاها.

قررا لعب دور شارلوك هولمز وواطسون ليحلا الأمر كما يليق بزوجين مستوى ذكائهما أدنى من مستوى ذكاء المانجو العويسي.

- لماذا سمم تيمور نفسه؟ صحيح أنني لم أكن أعرفه بما يكفي، ولكن لم يبدُ من النوع الذي قد يُقبل على الانتحار.

ضحكت ليسا على جهل زوج عمتي.

هل للمنتحرين سمات وملامح معينة يا سيران، أنوفهم على شكل مشنقة، وشفاههم على شكل أمواس يمزقون بها شرايينهم؟

- ربما خانته جيهان فقرر أن ينتحر؟

- لا تخُض في عرضها يا سيران.

- لا أقصد يا حبيبتي، أنا فقط أفكر بصوت عالٍ.
- ما الرابط بين مقتل جيهان، ومحاولة انتحار تيمور، وموت ابنهما وابن ناهد وهؤلاء الأطفال؟
- هل تيمور سفاح أطفال ونحن لا نعرف، يا إلهي كيف أجَّرنا له بيتنا؟!
بيتكما! بيت أبي وورثي صار بيتكما؟!
- هل هو سفاح أطفال مثل بيدرو لوبيز؟
- نظرية معقولة يا هيدي، قد يكون سفاحًا وجيهان اكتشفت جرائمه وواجهته بها، فقرر قتلها، ثم انتحر مثل...
قاطعته قائلًا ببرود:
- مثل ما فعله أبي بأمي؟
رأيتُ اضطرابه واختلاج ملامحه وهيدي تنظر إليه بلوم وعتاب وتقول:
- لا يا حبيبي، لا نقصد هذا بالطبع، نحن...
- في الواقع هذا تخمين لا بأس به، أعتقد أن هذا ما حدث فعلًا.
بالطبع لم يكن هذا تخميني، إنه تخمين لا يليق بطفل في الروضة، قمة في الاستسهال منهما أن يأخذا جريمة أبي ويطبقاها على تيمور، ويقارنا جيهان بأمي الغبية الفاشلة الساذجة التي لم تأخذ قرارًا صحيحًا واحدًا في حياتها سوى قتل زوجها الأول.
أمي مسؤولة عن سلسلة من الإخفاقات، أولها التزوج من أبي، وآخرها مواجهته بجرائمه حتى قتلها وأسال دماءها عليَّ وأنا وليد سويعات.

وصلنا إلى البيت، نزلت ليسا من السيارة أولًا، ثم صعدنا إلى شقتنا.

سبقتني إلى غرفتي، تبعتها خلسة وأوصدت بابي بالمفتاح بعد أن أخبرت عمتي وزوجها أن يتركاني بمفردي لأتخطى صدمة موت جيهان.

جلست على السرير، تجاورني ليسا التي ظلت تراقب تجهمي وصمتي، حتى قررت أن تكسر سكوني وتسألني:

- أكنت تحبها؟

- إنها تكبرني بعشر سنوات.

- هذه ليست الإجابة عن سؤالي.

تبًّا لعنادكِ يا ليسا.

- أنتِ لا تعرفينها.

- وتعرفها أنت؟

- أكثر مما أعرف نفسي.

- صفها لي إذن؛ فأنا لم أرها من قبل.

- كانت ثائرة أبيَّة كشعلة من النيران، لم تكن طيعة مسالمة تتبع القوانين والقواعد المفروضة على النسوة، بل كانت مرادفًا لكل الأفعال التي قد تنهاكِ أمكِ عن ارتكابها كي لا تخربي صورة الأنثى الأليفة التي ترغم الفتيات عليها؛ لهذا لم تكن محبوبة من نساء عائلتها، لأن سلوكها كان يثير حفائظهن وغيراتهن في الوقت ذاته، جميعهن كن يحسدنها على حريتها، لأنها كانت تفعل ما تريد كما ومتى وأينما تريده، كانت تدخن علانية

وتتكلم بصوت جهوري، وتسب وتتشاجر في الشارع كالرجال، وتمضغ اللبان بصوت عالٍ، وتضع طلاء الأظفار الأحمر وحمرة الشفاه المحرَّمين على بنات الذوات الراقيات، وتضع ساقًا فوق الأخرى أمام من تريد، وترتدي الجينز والسترات الجلدية السوداء، وتضحك ضحكة مجلجلة، إن كانت من قلبها فهي حتمًا ستنتهي بعينين دامعتين وصوت يشبه الشخير. كانت تقرع الدرامز، وتُجيد الصيد وركوب الدراجات النارية، وتسافر وترتحل وتسهر بالملاهي. قد نختلف في الحكم على فضيلتها من رذيلتها، ولكن لا شك أننا سنتفق على أنها كانت صادقة غير متصنعة أو متظاهِرة بعكس ما يؤمن به قلبها.

- لهذا أحببتها؟

- لهذا وثقت بها.

- وهي وثقت بك؟

- بالتأكيد، وإلا ما كانت حكت لي حكايتها منذ أن كانت مراهقة في مثل سني، وحتى هذه اللحظة التي يُشرحها فيها الطبيب الشرعي.

ربَّعت ساقيها واعتدلت في جلستها على السرير، وقالت بحماس يثير إعجابي:

- هيا، أخبرني بكل ما تعرفه عنها بالتفصيل الممل.

- لماذا؟

- لأفهم مدى تورطك في مقتلها.

٣

Whole Lotta Love(*)

ديسمبر، ١٩٧٣

لو استعان الجيش بخدع جيهان الاستراتيجية، لانتهت حرب أكتوبر أبكر من ذلك.

فالليلة، وضعت جيهان التكتيك السليم الذي أقنعت به ابنة خالها ناهد، أن تترك كتب الطب وتتخلى عن مذاكرتها، وتضرب بأوامر أهلها عرض الحائط.

أخذت جيهان تشرح لناهد الساذجة، أنها إذا اتبعت إرشاداتها والتزمت بتعليماتها، فستتمكنان بسهولة من أن تتسللا من البيت ليلًا لملاقاة ياسر في ديسكو «الكينج»، من دون أن يكشفهما أهلها.

تظاهرتا بالنوم في تمام السابعة مساءً، ثم أغلقتا الباب من الداخل، وحين تأكدتا من أن والد ناهد خرج لمناوبته الليلية بالمشفى، وأن والدتها ارتدت ثوب نومها ودخلت فراشها الدافئ، بمجرد أن اطمأنتا

(*) «الكثير من الحب»: أغنية روك لفرقة ليد زيبلين.

إلى أن الهدوء التام عم البيت، تسللتا لغرفة شقيق ناهد - الذي نام مشخرًا بعد ساعات طويلة من دفس أنفه في كتبه الطبية الثمينة - وسرقتا مفتاح سيارته، ثم غيرتا ملابسهما وقفزتا من النافذة التي لا تعلو عن الرصيف بأكثر من مترين.

أخذت جيهان المفتاح واتجهت إلى السيارة، ثم أدارت المحرك، بينما انزلقت ناهد بالمقعد المجاور لها بحماس طفولي وهي تقول:

- يا ويلي! لقد هربتُ حقًّا من المنزل.

طرقعت جيهان علكتها وأخرجت من سترتها شريط كاسيت دسته براديو السيارة، ليبدأ صخب موسيقى الروك.

- عليكِ أن تعتادي الأمر يا عزيزتي، فأنا أعدكِ أن هذه لن تكون المرة الأخيرة التي ستكسرين فيها قواعد عائلتكِ الرتيبة.

* * *

صفَّت السيارة عند ديسكو «الكينج» بالدقي.

قالت لي جيهان إن لحظة دخولهما من الباب كانت مثالية لملاحظة تباين مظهريهما.

ناهد كانت ترتدي معطفًا أبيض وثوبًا ورديًّا، وكان شعرها بُنيًّا منسدلًا على كتفيها، وقد أضافت لمظهرها قرطًا لؤلؤيًّا يطابق عقدها، تلك الرقة الأنثوية تضادت تمامًا مع جيهان.

كان شعرها الأشقر مربوطًا بعنف كذيل حصان، وإكسسواراتها غجرية تُخشخِش مع حركة يديها، وتتناثر السلاسل الفضية الكثيرة على صدرها فوق قميصها القطني المرسوم عليه شعار فرقتها المفضلة، وقد قامت بربط طرف قميصها الفضفاض كعقدة عند

وسطها أسفل سترتها الجلدية السوداء، كاشفة عن عودها المنحوت الذي يُبرزه جينزها العالي الخصر.

وقفت ناهد مندهشة، فهي لا تعرف عن الديسكو سوى أنه المكان الذي يرقص فيه ترافولتا بأفلامه.

لم تتخيل أنه سيكون بهذا الزحام وتلك الحرارة التي دفعتها لخلع معطفها، وللاختناق برائحة العرق الممزوجة بالنيكوتين والكحول.

انغمست ناهد في اكتشاف المكان بعينيها الواسعتين، بينما أخرجت جيهان علبة سجائرها وأخذت تتابع الشباب مرتدين الملابس اللامعة والأحذية البراقة، وهم يرقصون أسفل كرة الديسكو التي تضرب الحاضرين بأضوائها المتغيرة ألوانها مع إيقاع الموسيقى.

حين سألت جيهان عن رأيها في موسيقى الديسكو آنذاك، أخبرتني أنها كانت تجدها سطحية وتفتقد إلى إثارة، تمامًا كهؤلاء الحمقى الذين كانوا يتبارون في تلك الليلة بالرقص، وكأن أكثرهم إتقانًا لحركات الديسكو المبتذلة هو أكثرهم فحولة.

نفثت جيهان دخانها، ثم صاحت بناهد كي تسمعها:

- كفى تحديقًا في الناس كالقروية الساذجة.

- لم أدخل أي ديسكوهات من قبل.

- واضح، فلتبحثي عن خطيبكِ عِوضًا عن الوقوف كذات الرداء الأحمر التائهة في الغابة.

هزت ناهد رأسها موافقة، ثم علقت:

- أظنه بالكواليس، فمن المفترض أن تعزف فرقتنا بعد قليل.

حركت جيهان يدها غير مبالية، وظلت تشاهد الراقصين على أغنيات فرقة «Bee Gees».

كانت على وشك أن تشنق نفسها من رتابة الإيقاع، ولكنها رأت على المسرح ما جذب انتباهها وجعلها تغرق في أحلام اليقظة.

درامز لودفيج أحمر أسرت لمعته قلبها، وخطفت ماركته عقلها، فظلت تراقبه وتتأمله كتحفة نادرة، حتى قطع حبلَ أفكارها منظرُ ناهد وهي تركض صوبها باكية وتقول:

- يجب أن نرحل الآن يا جيهان.

- ماذا بكِ؟

- لا وقت للحديث.

- هل تشاجرتِ مع خطيبكِ الأبله يا فتاة؟

- كلا.

حاولت أن تهدئ من بكائها، ثم قالت بوضوح:

- هذا السافل الواقف عند ساحة الرقص.

نظرت جيهان حيث أشارت لها ناهد، لترى شابًّا يرتدي قميصًا بنفسجيًّا لامعًا إن نظرت إليه كثيرًا فستصاب بعمى مؤقت من قبح لمعته.

كان يترنح وزجاجة الويسكي بيده، ويدور كأنه يراقص شيطانًا خفيًّا.

- ماذا فعل بكِ؟

بكت أكثر، ثم اقتربت وهمست في أذنها:

- لمسني عن قصد.

مسحت دموعها وأردفت:

- لقد كان أبي محقًّا، الديسكو ليس مكانًا آمِنًا لفتاة مثلي، فلنرحل.

ألقت جيهان سيجارتها ودعستها بحذائها، ثم قالت بثقة:

- ليس بعد.

اتجهت صوب الدنيء الذي تحرش بابنة خالها، وناهد تتبعها مرتبكة، ولكن جيهان لم تمهلها، قامت بالأمر في غاية السرعة.

سحبت قارورة جعة فارغة من على إحدى الطاولات في طريقها إلى المتحرش، ثم طرقت على كتفه من الخلف ليواجهها، فالتفت إليها، وفي لمح البصر كانت قد هوت على منتصف رأسه بالقارورة، لتتطاير شظايا زجاجها ويشهق الناس متفاجئين، بينما يسقط المتحرش أرضًا وجبينه ينزف.

صرخت ناهد، ثم وضعت يدها على فمها مصدومة من رد فعل قريبتها العنيف.

نفضت جيهان يدها من الزجاج بحذر، ثم أخبرت ناهد:

- الآن يمكننا الرحيل.

ركضتا خارج الديسكو وناهد تسألها متوترة:

- أواثقة من أنه لن يموت؟

- ألستِ الطالبة بكلية الطب؟! أنتِ أدرى.

- يا إلهي، سنقع في مأزق كبير إن أبلغ الشرطة. سنُسجن حتمًا.

- كفاكِ جبنًا، حالته ليست بهذه الخطورة.

بمجرد أن ابتعدتا بضع خطوات عن الديسكو، تفاجأت ناهد بأن

خطيبها ياسر واقف في الزاوية عند الباب الخلفي ومعه شاب غريب لم تره جيهان من قبل.

كان شعره أسود طويلًا يتموج حتى كتفيه العريضتين، ويرتدي سروال «تشارل ستون» أبيض، وقميصًا من الشيفون مفتوحًا حتى منتصف صدره، فيُبرز ملامح جسده الرياضي، ويكشف وشمًا على يسار صدره يطابق لوجو الفرقة المطبوع على قميص جيهان القطني.

بدا كفرعون إنجليزي، أو لورد مصري. مزيج غريب بين وجه مصري قديم مكانه في المتحف المصري، وبياض بشرة مرمري وعينين ملونتين وشفتين رفيعتين ونظرة متعالية هربت من إحدى لوحات عصر النهضة الإنجليزية.

زفر الشاب العشريني، ثم قال لياسر بكتفين مرتخيتين من شدة الإحباط:

- يا صاح، أنت مدير الفرقة، لا يجوز أن تقبل بتلك الأعذار الواهية، نحاول العزف في هذا المكان منذ أشهر حتى منحنا القدَر فرصة، فماذا نحن فاعلون؟

- يا تيمي، الأمر أننا...

- الأمر أننا مجموعة من الجاحدين الكسالى، لن ننجح في أي شيء إذا ظللنا نفكر بتلك العقلية المتخلفة، من المفترض أن نبدأ العزف خلال خمس عشرة دقيقة، خمس عشرة دقيقة يا صاح، وعازف الدرامز الذي اخترتَه أنت وأصررت عليه، لم يأتِ بعد.

- يمكننا أن...

- يمكننا أن نذهب إلى الجحيم في صمت.
- اهدأ يا تيمي! أقترح أن...
- أعرف ما كنت ستقترحه والإجابة هي كلا يا عزيزي، لا يمكننا الصعود إلى المسرح بلا عازف درامز، أتتخيل ليد زيبلين بلا جون بونهام؟ سنجعل من أنفسنا أضحوكة.
- يا تيمور هؤلاء السكارى لا يعلمون من هو جون بونهام، ولا ماهية فرقة ليد زيبلين من الأساس.
- ولكني أعرف، أنا أحترم موسيقاي حتى وإن كانت تُعزف لمجموعة من الحمقى.
- حسنًا، إليك خطة أخرى، أنت ماطل الجمهور وأنا سأذهب الآن إلى بيت راضي، و...
- يا صاح، ذاك العاهر لن يأتي، الكوكايين والخمور أتلفا عقله الصغير. فلتعتذر منهم وتؤجل الحفل، لقد اعتمدنا على الشخص الخطأ.

كاد أن يتحرك ليترك الزقاق، ولكن جيهان قاطعتهما قائلة:

- يا شباب!

التفتا ليجداها تقترب منهما هي وناهد، فتوقف تيمور عن الكلام، واتكأ إلى الحائط مربعًا ذراعيه، بينما أقبل ياسر على خطيبته بابتسامة مشتاقة:

- ظننتكِ لن تأتي يا حبيبتي.
- ما كنتُ لأقدر على القدوم لولا جيهان.
- خير ما فعلتِ يا جيهان، ما كان ينقصني غياب عازفة التامبورين.

قبَّل جبينها وعانقها ممازحًا فضحكت، بينما زفر تيمور وعلق بابتسامة متهكمة:

- أكره أن أحبط أجواءكما الرومانسية، ولكن ما الغرض من التامبورين دون درامز؟

ردت عليه جيهان في ثقة:

- أنت محظوظ يا هذا.

تأملها من أخمصَي قدميها حتى رأسها، فلفت نظره لوجو فرقة ليد زيبلين، فقال بابتسامة ساخرة:

- تيمور.

- حسنًا يا تيمور، سأنقذكما من هذا المأزق، وأعزف أنا الدرامز عوضًا عن ذاك النذل الذي تهرب من موعده.

صفق ياسر مبتهجًا كمن وجد ضالته:

- صحيح، كيف نسيتُ؟! إن جيهان تجيد عزف الدرامز يا تيمور، و...

قاطعه تيمور:

- إجادة عزف الدرامز شيء، وأن تعزف كجون بونهام لهو شيء آخر.

وجه تيمور حديثه لجيهان وهو يتأملها ثانية، كأنه يفحص آلة موسيقية قبل شرائها:

- اعذريني يا صغيرة، لا أظن أن المراهقات الهاربات من آبائهن قادرات على العزف مثل بونزو، و...

- مثير للشفقة!

- المعذرة؟

طرقعت علكتها بغل، وتكلمت وعيناها تتقدان غضبًا وإصرارًا:

- أتظن لأنك فككت أزرار قميصك وأطلت شعرك كروبرت بلانت، صرت ببراعته في الغناء؟ تعد نفسك فنانًا يحترم الموسيقى وأنت تحكم عليَّ من دون أن تسمع عزفي، تظنني عاجزة عن قرع الدرامز مثل جون بونهام فقط لأني بنت تصغرك سنًّا؟ حسنًا، دعني أفاجئك يا غربي المظهر وبدائي العقل، مدرب الدرامز الخاص بي، يدعوني بونزو، ليس لأنني أحب جون بونهام وأحفظ كل مقاطعه الصولو، وليس لأنني أماثله براعة فحسب، بل لأني أبرع منه.

نظرت إلى ساعة يدها، ثم أردفت بالثقة ذاتها:

- والآن، أمامك عشر دقائق لتصعد معي إلى المسرح، وكلك إيمان بأن براعتي ستخطف منك الأضواء.

بصقت علكتها على حذائه متعمدة، ولم تنتظر إجابته، بل أدارت ظهرها وتركته لتعود إلى الديسكو ضاربة الأرض بكعبيها العاليين، واثقة من أنهم سيتبعونها.

وقد كان.

خلال عشر دقائق كانت الفرقة جاهزة.

صعدت ناهد إلى المسرح بالتامبورين النجمي، وأعد عازف جيتار الباص أسلاكه، بينما عدَّل تيمور ارتفاع الميكروفون وضبط أوتار جيتاره الإلكتروني، ووقف على مقربة من جيهان التي خلعت سترتها وإكسسواراتها كي لا تعرقلها، ثم أحكمت عقص شعرها.

مال تيمور عليها وهمس:

- سنبدأ بأغنية «Whole Lotta Love»، إن كان إيقاعها صعبًا عليك فيمكننا أن...

- يمكنك أن تذهب للجحيم، لا إيقاع يصعب عليَّ.

على الرغم من أن الغرض الوحيد من ردها هو إهانته، فإنه ضحك من فظاظة ألفاظها وردودها العنيفة، كما يضحك الكبار عند سماع الأطفال يسبون للمرة الأولى.

بابتسامة ساخرة، أنهى تيمور تحضير أسلاكه ونظر للجمهور المتلهف لموسيقى الروك.

قدم فرقته للحضور، ثم التفت وهمس إلى رفاقه الموسيقيين:

- واحد، اثنان... واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة.

بدأ أولًا بالعزف والضرب على أوتاره بهدوء، ثم تبعه عازف الباص، ثم بدأ تيمور بالغناء وهو ينظر إلى جيهان الممسكة بعصوَي الدرامز ومنتظرة لحظة العزف:

أنتِ في حاجة إلى الهدوء عزيزتي، أنا لا أخادعك
سأعيدك إلى المدرسة انظري بداخلك
فأنتِ بأعماقك يا عزيزتي تريدين حبي
سأعطيكِ حبي، سأعطيكِ حبي

ابتسم بتحدٍّ وهو يعرف أنه قد حان وقت عزفها للدرامز، فضربت الطبول كالصاعقة.

لقد كانت محقة، لم تكن تقلد جون بونهام الشهير ببونزو، بل كانت تفوقه براعة.

قرعت الدرامز مستخدمة طرفَي عصوَيه بخفة ساحرة، تضرب هنا بالطرف السفلي وهناك بالعلوي.

تتحكم في يُسراها كيُمناها، فطارت بدقة بين الطبول البلاستيكية المشدودة والصنوج النحاسية، وضغطت بقدمها على البدَّال ليضرب جلد الطبلة السفلية الكبيرة، وظلت تنتقل بتلك السرعة المدهشة بين قِطَع الدرامز كافة حتى تخيلها تيمور للحظة أخطبوطًا له ثماني أذرع، كي تتمكن من ضرب كل تلك الأجزاء بهذه السلاسة والخفة.

نظرت له رافعة حاجبها وكأنها تود أن ترى نظرة الخسارة على وجهه، ولكنه قابل ابتسامتها الظافرة المغرورة بنظرة ولهانة.

في تلك اللحظة، شعر أن كيمياء جسده تتغير، جسده أفرز كمية مهولة من هرمون الأوكسيتوسين فحذره عقله من الإعجاب بفتاة لم يعرفها سوى منذ عشر دقائق، ولم تبادله سوى كلمات التوبيخ.

ماذا يفعل، لقد نجحت تلك السليطة في اختطافه!

عزفوا ثلاث أغانٍ، وفي كل أغنية كانت تبهره فيراقبها بالتصوير البطيء، وذيل حصانها يتطاير، وعصاها تحلق فوق الدرامز، وشفتاها المزينتان بالحمرة تكرران كلمات الأغاني التي تحفظها عن ظهر قلب، وجبينها يتصبب عرقًا من فرط الحركة والتفاعل مع الشباب المتجمهرين حول المسرح يصفقون ويرقصون بحماس.

شعر تيمور بالنشوة وهو يعزف على جيتاره وينهي الأغنية.

عدل الرفاق آلاتهم، بينما أخذ يشرب بعض الماء وهو يراقب جيهان تمسح يديها بمنديل أعطته لها ناهد، وتنظر إليه في انتظار معرفة ما الأغنية التالية.

تجاهلت إشارات ناهد الطفولية وكلماتها التشجيعية وهي تخبرها أنها تعزف بشكل رائع، ولكن ما لم تستطع أن تتجاهله هو دخول الشرطة المفاجئ ومعهم الشاب الذي ضربته بالزجاجة، وقد عصب رأسه وهو يشير للضابط نحوها.

التفت إليها تيمور الذي لم يركز على أي شيء سواها، وقال:

- سأترك لكِ حرية اختيار الأغنية التالية.

نهضت جيهان عن مقعدها فجأة وتركت عصوَي الدرامز وهي تنتشل سترتها بسرعة عن الأرض، وتقول:

- يجب أن أهرب.

- مِمَّن؟

- من الشرطة، يا أذكى إخوتك.

قفزت سريعًا عن المسرح من الخلف في اللحظة نفسها التي لمحها فيها الشرطي.

همت ناهد أن تلحق بها، ولكن جيهان صاحت فيها:

- لا تتبعيني.

لم تكن تعرف المكان جيدًا، ولكنها تعلم أنه من المستحيل أن تخرج من الباب الأمامي؛ لأنها إن فعلت فسترتطم بالشرطي.

ركضت وسط الشباب تتلفت بين الجمع البشري الهلامي وهي تدفعهم بكل ما أُوتيت من قوة حتى تختفي عن نظر الضابط، إلى أن استطاعت أن ترى ممرًّا طويلًا لا تعلم إلى أين قد يؤدي، ولكنها خاطرت.

كادت أن تصل إليه حتى شعرت بيد تجذبها في الاتجاه المعاكس،

فانتفضت وكوَّرت قبضتها بشكل دفاعي، ولكنها اكتشفت أن صاحب اليد هو تيمور الذي قرر أن يرشدها للمَهرب قائلًا:

- من هنا.

قادها إلى زاوية في مؤخرة الصالة خلف المسرح، تؤدي للباب الخلفي.

خرجت معه من الدفء إلى برودة ديسمبر القارسة، فلبست سترتها وهي تجري برفقته، حيث هدوء الليل الذي لا يقاطعه سوى ثرثرة سكان البنايات المحيطة بالملهى.

قالت له:

- سيارتي عند الباب الأمامي.

- لن تجدي عند الباب الأمامي سوى الشرطة والأصفاد، اتبعيني.

جذبها إلى الزاوية حيث دراجته النارية برتقالية اللون، ركبها وأدار محركها وانتظر جيهان لتركب خلفه وهو يقول ساخرًا:

- أعتذر منكِ، لا أملك خوذة لأحمي رأسكِ الثمين.

- لا تقلق، رأسي أصلب من أي شيء قد يرتطم به.

صعدت خلفه على الموتوسيكل، وللمرة الأولى سمحت لغيرها أن يقود دربها.

* * *

لا أفهم لماذا تُفتن الفتيات بقائدي الدراجات النارية.

أعني، جيهان كانت تحكي لي هذا المشهد وهي ولهانة، تُداعب شعرها الأشقر وهي تصف لي كيف كانت تجهل وجهتها وإلى أين سيقودها تيمور، ولكنها استمتعت بالرحلة.

طيلة الطريق، ظل الهواء يراقص شعرها، والبرودة تلاطم ملامحها التي أعتقد أنها أجمل ملامح رأتها عيناي.

استمتعت بالأدرينالين وهو يداعب حواسها كلما زادت سرعة المحرك وعلا زئير عجلات الدراجة على الأسفلت، وما زالت الأغاني التي عزفتها مع تيمور على المسرح منذ دقائق تتردد في أذنيها، وما زالت تشعر بيديها تقرعان الدرامز، فبقيت على هذه الحالة مغلقة العينين لثلاثين دقيقة حتى شعرت بالمحرك يتباطأ.

فتحت عينيها وتلفتت حولها، لتجد نفسها على تلك الهضبة الصحراوية، التي تتناثر فوقها سيارات العشاق المتبادلين القبلات تحت غطاء الليل.

زفرت جيهان بضيق، بينما التفت تيمور إليها وهي تقول:

- أيها الوضيع!

- أهكذا تشكريني على حمايتكِ؟!

- لم أكن في حاجة إلى حمايتك.

- ومع ذلك كنتُ شهمًا وتطوعت.

- اسمع يا هذا...

- قلت لكِ اسمي تيمور، ولكن أحبابي ينادوني تيمي.

- أيًّا ما كان اسمك! إن كنت تظن أنك جلبتني إلى المقطم بعد أن لعبت دور المغوار الذي سينقذني من الأشرار، وستختلس مني بضع قبلات، فيالك من أخرق مثير للشفقة! الوصول إليَّ يتطلب أكثر من ذلك.

ثبت دراجته أرضًا ثم نزل من عليها وهو يعلق على كلامها متهكمًا:

- أتقصدين طلب يدكِ من أبيكِ؟

- ما أبغضك!

زفرت غير مرتاحة من الحميمية الطاغية على المكان، ثم قالت بنبرة متعجرفة:

- أعِدني إلى الديسكو.

- لِمَ التوتر؟ ظننتكِ مغامرة لا تحتاجين إلى الحماية.

- أنا كذلك، ألم ترَ ما فعلته بذاك المتحرش؟

- لا أظن العنف حلًّا لأي مشكلة، كان بإمكانكِ محادثته، توبيخه، أو إبلاغ أمن الديسكو.

- لِمَ لا توفر عظتك لنفسك وتعيدني إلى سيارتي يا صاحب الوشم؟

ابتسم وهو يغمزها:

- اختلستِ النظر إلى وشمي إذن، هل أعجبكِ؟

وضعت يدها على جبينها وقد أرهقتها محاولاته لإغاظتها، فهمست:

- يا إلهي!

- حسنًا، فقط لأوضح لكِ الأمور، لم أتعمد إحضاركِ إلى هنا، آتي إلى المقطم بعد كل عرض برفقة هذه الحلوة.

مد يده بجيب سرواله ليُخرج ظرفًا ورقيًّا صغيرًا مطويًّا، في داخله وريقات بحجم الأنملة مرسوم عليها جيتار صغير.

نظرت إليه جيهان بفضول فشلت في أن تخفيه وهي تسأله:

- ما هذه؟

- السيلوسيبين.
- اللعنة! أي اسم مُعقد ذاك؟
- إنها طوابع.
- أبي كان يحب جمع الطوابع، ولكني لم أرَ طابعًا بريديًّا بهذا الصغر من قبل.
ضحك بشدة حتى دمعت عيناه، فرأى البلاهة على وجه جيهان.
- لم أتوقع أنكِ بهذه البراءة يا بونزو، ليست طوابع بريدية، ألم تسمعي في حياتكِ عن الـ«LSD»؟
- مخدرات؟
- مهلوسات، شتان بين الاثنين.
- تعرف الكثير عن العقاقير بالنسبة لعازف جيتار.
- هذا يا صغيرتي لأنني تخصصتُ في الكيمياء بميديلسيكس، وهذه الطوابع هي نسخة حسنتُها بنفسي وعدلتها لتكون أقوى من الـ«LSD»، أتودين تجربتها؟
- أنا أحترم عقلي أكثر من ذلك.
- الإنسان الدائم السيطرة على عقله فظ، جاف، عديم الإبداع، الإبداع لا يولد إلا حين تُطلقين لعقلكِ العنان، على سبيل المثال: فرقة البيتلز وليد زيبلين وجيم موريسون وسلفادور دالي وفرويد وكل مبدع بالمجتمعات الحديثة، كان يتعاطى العقاقير المهلوسة ليدخل إلى عالم سريالي ويتوه في رحلة متفجرة الإلهام يخرج منها بعصارة الإبداع الفني، حتى الحضارات القديمة، فعلى سبيل المثال، حضارة المايا كانت...

- لِمَ تظنني مهتمة بالاطلاع على تاريخ العقاقير المهلوسة؟
- حسنًا، لا داعي للصياح، لا تفسدي على العشاق لحظتهم الحميمة.

وضع نصف طابع على طرف لسانه، وانشغل بامتصاصه وهو يعيد الباقي للظرف الورقي ودسه في جيبه.

- وصلتني رسالة أنكِ فتاة شرسة لا تُروَّض.
- وما الرسالة التي تود أن توصلها إليَّ وأنت تهلوس هكذا؟
- أولًا، أنني أعرف الجرعة المناسبة. ثانيًا أنكِ حقًّا تُجيدين عزف الدرامز، أقرُّ لك بذلك، وأسحب أي كلمة ساخرة تافهة تفوهتُ بها الليلة.

أخيرًا وللمرة الأولى منذ أشهر، ابتسمتْ راضية.

- أتجعلك الطوابع أكثر تهذيبًا؟
- بل أكثر صدقًا، أعني أنا في الحالة المناسبة لأعبر عن إعجابي بشخصيتكِ الجامحة ونظراتكِ الغاضبة، وحتى لسانكِ السليط الذي يجوز تطبيق حد القطع عليه.

اتسعت ابتسامتها وبدأت تنتبه أكثر لتفاصيل عازف الجيتار، على الرغم من قميصه البرتقالي المضحك، فإنها وجدته جذابًا وصاحب كاريزما طاغية.

أشاحت بنظرها بعيدًا حتى لا تفشي عيناها بسرها، وقالت بنبرة فشلت في المحافظة على حدتها:

- لست بكامل قواك العقلية.
- ولكني بكامل قواي الروحية، تلك الطوابع تجعلكِ تبصرين تفاصيلَ لا تراها عيناكِ اللتان في منتصف وجهك، ولا حتى

الكامنة بحصين عقلكِ، بل العين النابضة بقلبكِ التي تبصر حقائق الكون وتدرك أن كل النقاط المبعثرة في أقصى أطراف العالم يربطها خيط رفيع يمكنكِ أن تتحسسيه بروحكِ وليس بعقلكِ.

تنهد محملقًا بالأفق ثم قال:

- أتعلمين ما هو السوندر؟

- لم أسمع بهذه الكلمة في حياتي.

- إنه مصطلح يفسر الشعور المفاجئ الذي ينتاب المرء في أوقات الصفاء الذهني، ليدرك أن لكل من حوله حياة مفصلة ومعقدة تمامًا كحياته، وأن البشر ليسوا مجرد غرباء يمرون أمامك في الشارع، انظري حولكِ، تأملي عن كثب، هؤلاء ليسوا مجرد ذكور وإناث أتوا لاختلاس القبلات، بل هم أحبة، قصصهم كقصص الروايات والأفلام، وإن أنصتِّ لما يقولونه بين القبلة والأخرى فستدركين أنكِ في صالة سينما تتنوع بها العروض السينمائية.

- هذا إن كنت ترتاد سينما الأفلام الإباحية.

قالتها ساخرة متهكمة فقط لتغطي على إعجابها بتلك الفكرة الشاعرية. راقتها رومانسيته التي لم تألفها من قبل، ولكن درعها الدفاعي لم يرتخِ، فرفضت مجاراته وظلت تذكر نفسها بأنه تحت تأثير مخدر شاعري المفعول، وعلَّ كل تلك الترهات العاطفية والفلسفية التي ينطق بها ستختفي مع انتهاء مفعول ما ألصقه بلسانه منذ لحظات، وعليه، عاركت شعور الإعجاب الذي وخز قلبها.

- لا أظن أن الذي وضع مفهوم السوندر كان يفكر في عشاق هضبة المقطم.

لم ينزعج من تعليقها، توقف عن تأمل السماء ونظر إليها بابتسامة وصفتها جيهان بأنها ابتسامة يستكين لها القلب.

- ربما كان يفكر في جميلة مثلكِ، لها سحر يروقني وقصة أود أن أعرف أدق تفاصيل حبكتها.

- تظنني مثيرة للاهتمام فقط لأنك خسرت رهانك.

- أي رهان؟

- رهان أنني الشقراء البلهاء التي تحسب نفسها أمهر من الأسطورة جون بونهام، أنت لم تعجب بي، لقد راقك شعور التحدي فحسب.

- لِمَ تظنين نفسكِ غير جديرة بالإعجاب يا جيهان؟

ضرب وترها الحساس فضحكت ضحكة ساخرة مزيفة، ثم صمتت وأطرقت للأرض.

أردف وهو يتابع تفاصيلها بعينيه الناعستين التي تحاشتْ النظر إليهما:

- صوتكِ العالي وألفاظكِ النابية ليست سوى صرخة وطلب للاهتمام، وبالطبع لا أعني النوع السطحي من الاهتمام كي أمدح حسن عينيكِ وشعركِ وشفتيكِ، بل ذاك الاحتواء الصادق الذي أظنكِ حُرمتِ منه مبكرًا، أعني، اللعنة، كم عمركِ؟

- ثمانية عشر عامًا.

- أنتِ في بكيرة عمرك، لِمَ جعلتكِ الحياة بهذا العنف يا صغيرتي؟

تلاشت ابتسامتها وتبدلت نظرات الإعجاب إلى شعور بالخطر حين أدركت وتيقنت من أنه اخترقها واستخرج المشاعر التي دفنتها في أعماق شخصيتها.

همست له وهي تركل بعض الحصى بعنف:
- أود الرحيل.
- تقصدين الهرب؟
صاحت به غاضبة:
- أتظن نفسك فرويد لتحللني بتلك الطريقة؟
- بل أظن أنني أماطل معكِ في الحديث كي نبقى معًا أطول فترة ممكنة.
هدأت ثورتها وواتتها الجرأة لتبادله النظرات.
راقبت ملامحه وهواء ديسمبر يداعب شعره المموج، وكلما أطالت النظر إليه شعرت بالسكينة، على الرغم من أن صوتًا بمؤخرة رأسها يحذرها من الصلة التي بدأت تُخلق بينهما، ولكنها تمكنت من إخراس ذاك الوسواس ولم تعد تسمع سوى دقات قلبها وحفيف الرياح ووقع همساته.
اتسعت ابتسامة تيمور لتضاعف حُسن غمازتيه وهو يهمس إليها:
- أتودين أن أعرفكِ على كلمة جديدة؟
هزت رأسها متظاهرة باللامبالاة، فأردف:
- أوبيا؛ الإحساس السحري الذي يجعلكِ تشعرين بالحماس المفرط الممزوج بالضعف والتوتر بسبب النظر المطول في عينَي شخص يُعجبكِ بشدة، وهذا ما أشعر به تجاهكِ الآن.
ودت أن تخبره أنها تبادله الشعور ذاته، وأنها لم تشعر يومًا بالسكينة والقلق في آنٍ واحد كالليلة.

كادت أن تتمكن منها الشاعرية، أحست تيمور يقترب منها أكثر من اللازم ناظرًا لشفتيها مائلًا بعنقه صوبها، فقررت أن تصفعه لتوقظه من تأثير ذاك المخدر الذي هيأ له أنها ساقطة قد ينفرد بها في المقطم بعد التعرف عليها ببضع ساعات.

ولكنها لم تفعل، لم تصفعه، كل ما فعلته أنها قالت:

- أخبرتك أن الأمر سيتطلب أكثر من ذلك.

ابتسم وكأنه قبلَ تحديها، وأرجع رأسه بكياسة وهو يخبرها:

- أهذه دعوة لمقابلة أبيكِ؟

ضحكت ساخرة:

- توقف عن الهذيان.

- أنا لا أهذي، متى يمكنني أن أقابل والدكِ؟

- بهذه البساطة، وكأننا في فيلم قديم؟!

- ولِمَ التعقيد، هل القدَر جمعنا مصادفة؟ لِمَ لا نقتنص الفرصة التي وهبنا القدر إياها؟ أعلم أننا في سبعينيات القرن العشرين، والعالم يشتعل، ولكنني اخترتُ أن أظل المؤمن بحب الأربعينيات ورومانسية الخمسينيات وسلام الستينيات. أنا أستحق أن أحيا حبًّا مثيرًا كالذي يتحاكون عن جنونه في الروايات والأفلام والأغاني.

توقف عن الكلام للحظة، وحدق إليها كثيرًا بتلك الابتسامة التي سرقت لب جيهان كما تقول، ثم قال لها جملة أخبرتني أن من بعدها قررت أن يكون فؤادها ملكًا لتيمور إلى الأبد.

- أتودين أن تصبحي بطلة أغنيتي الرومانسية؟

جملة مبتذلة، مثل قصة حبهما الركيكة التي لو كانت فيلمًا لفشل في السينمات بعد عرضه بساعة.

- حسنًا يا تيمي، إن كنت تؤمن بأن القدَر هو الذي جمعنا، فلِمَ لا نترك له أن يُقرر إن كنا بطلَي قصة رومانسية ألفها، أم مجرد شخصيتين ثانويتين في خلفية قصة حب اثنين من المنشغلين بتلثيم شفاه بعضهما هنا.

- وكيف هذا؟

- فلندع القدَر يدبر لنا موعدًا، سنترك الكون يجمعنا من دون تدخل منا، وليكن ذلك في وقت ومكان نجهلهما، أي أننا إذا التقينا مجددًا في ديسكو الكينج فلن نعد هذا إشارة، ولن أعطيك عنواني أو رقم هاتفي، سندع الصدفة تسطر أغنيتنا.

- يمكنني أن أحصل على بياناتكِ كافة من ناهد وياسر.

- هل ستتحمل عاقبة أن تغش القدَر؟

تنهد مفكرًا وصمت ليزن كلامها، حتى انتهى به الأمر وهو يسألها:

- وماذا إذا لم نلتقِ أبدًا؟

- إذًا، فليس من المقدر أن يتقاطع دربانا.

ليتهما لم يلتقيا ثانية.

٤

Communication Breakdown(*)

نظرت ليسا إليَّ وهي تمسح زاوية فمها التي تلطخت بالجيلاتي، ثم سألتني:

- وماذا بعد؟

- أحقًّا تتساءلين إن كانا سيتقابلان مجددًا؟ أنتِ تعرفين مسبقًا أنهما تزوجا!

- ولكني لا أعرف كيف.

- قصة حبهما لزجة ورومانسية، و...

- وتتمنى أن تعيش مثلها. تذمها، لأنك محروم منها.

هممتُ أن أعترض، ولكن اقتربت ليسا مني وقبلت وجنتي، ثم ألقت رأسها على كتفي وأمسكت يدي، وقالت وهي تتنهد بنعومة:

- سأجعلك تعيش قصة حب أعظم من قصتهما، فقط أخبرني كل تفصيلة سمجة ومبتذلة، فأنا أعشق الركاكة الرومانسية.

(*) «انهيار في التواصل»: أغنية روك لفرقة ليد زيبلين.

- لكِ ما شئتِ يا مختلة!

* * *

تقاطع درباهما في ربيع ١٩٧٤، في حفل شم النسيم، بنادي المعادي الاجتماعي.

قررت جيهان أن تنعزل عن عائلة خالها، فتركت الأطباء الأربعة يناقشون خطورة الفسيخ على الجهاز الهضمي وضغط الدم والأملاح، وجلست على المقعد الخشبي أمام حلبة التزلج التي تتوسطها نخلتان متعانقتان ظهرتا في فيلم «بنات اليوم».

لم تمانع أن تختلس سيجارة في الزاوية حتى تنفس عن الضجر والوحدة اللذين يصاحبانها أينما كانت.

أنهت سيجارتها ومضغت علكتها لتغطي على رائحة النيكوتين، ثم قررت أن ترتدي حذاء تزلجها.

انطلقت تفصل نفسها عن الواقع، تملأ أذنيها بأغاني ليد زيبلين، ولكن ليس بصوت روبرت بلانت كما اعتادت، بل بصوت تيمور.

امتلأ أنفها برائحة عطره الذكوري، وبدأ وجهه يسود رؤيتها، حتى لم تعد ترى غير ملامحه في وجوه المتزلجين حولها.

ظلت تفكر فيه وتعيد تخيل الأغاني، ويداها تتحركان في الهواء كأنها تقرع الدرامز حتى آلمتها ساقاها بعد ساعات طويلة من تلك الرياضة الممتعة، فخرجت من الحلبة.

ذهبت إلى حديقة النادي، وجلست على مقعد تشاهد شمس المغيب المنعكسة على بحيرة البجع الغنَّاء باللوتس والزهور،

وظلت تتساءل، لِمَ سمحت للشاعرية والبلاهة أن تقوداها لذاك القرار الغبي؟

لِمَ لم تعطه ميعادًا لتلقاه ثانية كما تفعل باقي البنات فحسب؟

لامت نفسها وهي تطرقع علكتها غيظًا، بينما رمقتها إحدى المسنات شزرًا على تلك الحركة قليلة الحياء، فزفرت جيهان وقررت أن تتسلل من النادي لتتجول في الشوارع.

لم تكن تأتي إلى حي المعادي إلا لبعض التجمعات العائلية الرتيبة في النادي، ولكنها أحبت شوارعها الأوروبية الطراز، حيث الفيلَّات المتفرقة التي يحيطها شعور العزلة الغربية، ورائحة العُشب والشجر المزهر، وكأن الحي حديقة ضخمة نبتت فيها المنازل متوارية على استحياء بين جريد نخيله وأغصان أشجاره، لتجاور أعشاش البلابل والحمَام في سلام.

لا تعلم كم مر عليها من الوقت وهي تتجول، ولكن الليل خيّم فقررت أن تعود إلى النادي قبل انتهاء الحفل واكتشاف خالها لغيابها عنهم بلا استئذان.

اختلست سيجارة أخيرة أنهتها قبل دخول النادي، ورشت عطرها ومضغت علكة جديدة، واتجهت إلى الحديقة الرئيسية حيث من المفترض أن تجد عائلتها، ولكنها لم تجدهم بين الجالسين.

أدركت السبب فور أن سمعت موسيقى الروك التي يعدونها ضجيجًا شيطانيًّا ويأبون الإنصات إليه.

نظرت صوب المسرح لترى العازفين، ففهمت!

فهمتْ لِمَ أصرت ناهد على أن تأتي جيهان معهم إلى النادي، ولِمَ حاولت بكل قوتها أن تجبرها على ارتداء فستان ووضع بعض مساحيق التجميل، وانزعجت حين التزمت جيهان بالجينز والسترة الرياضية وذيل الحصان.

وعتْ لِمَ أقسمت لها ناهد على أن الحفل المسائي لن يكون مملًّا هذا العام.

تداركت تدابير ناهد حين نظرت للمسرح ورأت تيمور يغني ويعزف على إيقاع أغنية «Since I've Been Loving You»، فخفق قلبها وتعرقت يداها بشكل لاإرادي.

مغمض العينين ونسمات ليل الربيع تمشط شعره الأسود، وقف تيمور يغني وهو يعزف أوتاره بريشة جيتاره غائبًا عن عالمه، لا يسيطر شيءٌ على حواسه سوى الموسيقى وهو ينشد:

لقد فعلتُ ما بوسعي
لأنني أحبكِ يا حبيبتي
أحبكِ يا عزيزتي

انغمس في عزف الجيتار، ثم فتح عينيه فرآها.

وجَّه نظراته إليها وحدها، وكأنها بوصلته التي سترشده إلى سبر أغوار الكون بعد أن كان شاردًا في بقاع الأرض.

ابتسم وهو يبادلها النظرات ويكمل غناءه، وكأنه يهمس في أذنها:

كيف لي ألا أحبكِ يا حبيبتي
يا أمي، يا حبي
يا فتاتي الصغيرة

ترك الميكروفون ونزل عن المسرح حاملًا جيتاره بين يديه وهو يواصل العزف، ليمشي بين الشباب المتحمسين للموسيقى، والفتيات المفتونات بكاريزما هذا الموسيقي الهائم، ولكنه اخترق الجمع على مهل واقترب منها بتؤدة.

كانت فاغرة الفم، لامعة العينين، تجاري خطواته وهي تتمايل على الموسيقى التي كانت سببًا في أن يجمعهما القدر بعد أربعة أشهر من لقائهما الأول الذي فجر في داخلها مشاعر لم تظن يومًا أنها قادرة على الإحساس بها.

هكذا وصفت هذا المشهد في مبالغة رومانسية درامية تخنقني، قالت إن الكون تشوش فلم يعودا يدركان سوى وجود بعضيهما، فهو يبتسم، وهي قلبها ينبض بقوة، وكأنه يود أن ينفذ من صدرها ليقدم نفسه قربانًا لذاك الفيلسوف الموسيقي.

مال عليها هامسًا، لتطغى رائحة أنفاسه الطيبة وعطره المثير عليها مجددًا، وهو يقول:

- فرقتي ينقصها عازف درامز، وقلبي ينقصه حبيبة، فما رأيكِ أن تكوني الاثنتين؟

لا أدري لماذا أحبت فتاة فريدة من نوعها مثل جيهان، شابًّا مبتذلًا مثل تيمور!

* * *

أمست تتسلل كل ليلة من شقة خالها لتجد تيمور ينتظرها.

يتلقفها وهي تقفز من النافذة، ثم تصعد خلفه على دراجته البرتقالية، يطيران حتى ديسكو الكينج ليعزفا الروك طيلة الليل، إلى

أن يتساقط الشباب على الساحة من فرط الرقص بانتهاء فقرتهما، التي صارت ثابتة ومدفوعة الأجر.

بالفترة من الربيع وحتى الصيف، كانت قصة حبهما الملتهبة نبتة تحتاج إلى الكثير من الاهتمام لتزهر بشكل صحيح، فانشغل الاثنان بالتعرف على بعضيهما عن كثب.

حكى لها أنه مصري من أم إنجليزية، أمضى طفولته في مصر حتى الابتدائية، ثم سافر مع والديه إلى لندن حيث تطلقا بعد استقرارهما في إنجلترا بعامين، فقضى مراهقته وسنواته الجامعية مترددًا بين مسكن أبيه الصيدلي في لندن، وبيت والدته أستاذة الفلسفة في أوكسفورد.

درس تيمور الكيمياء في جامعة «ميديلسيكس»، حيث الردهات الفسيحة والأسقف الزجاجية، التي اعتاد أن يستلقي على المقعد أسفلها ليتأمل ضوء السماء وينصت لخرير الأمطار الهاطلة عليها.

كان يرى مستقبله بمعطف أبيض في أحد المعامل المصرية بالقاهرة، فهو لم يحب الحياة في لندن الرمادية المطيرة، وكان يتوق لشمس مصر الدافئة.

كان مصممًا على الارتقاء بمجال مضادات السموم، وطمح أن يحقق رقمًا عالميًّا في اكتشاف أكبر عدد من الترياقات المحاربة للسموم، ولكن خطته كلها تغيرت في الخامس والعشرين من أكتوبر لعام ١٩٦٨.

انفصل صديقه المقرب جوناثان عن حبيبته ماري، فظلت معه تذكرة إضافية لحفل فرقة ناشئة اسمها «ليد زيبلين».

بمعنويات محبطة، طلب جوناثان من تيمور أن يصاحبه للحفل حتى لا تُهدر التذكرة.

وبالفعل، ذهب الصديقان إلى القاعة الكبرى في جامعة سُري.

كانت الحفلة الأولى للفرقة، ولم يكن تيمور قد سمع عنهم من قبل، بل لم تكن تستهويه سوى موسيقى الچاز التي يسمعها مع أمه، ولكن في ذاك اليوم، وجد أربعة شباب طوال الشعر والسوالف، غريبي الملبس، يعزفون موسيقى دخيلة عليه، ويقومون بحركات مريبة مطوحين رؤوسهم ذهابًا وإيابًا، ومطرب فرقتهم يغني بطبقة صوت كان يدندن بها تيمور في حمامه ويظنها مثيرة للضحك، ولكنه تفاجأ حين وجد إيقاع قلبه يتغير مع تغير إيقاع الجيتار.

أصابته لعنة الروك حين سمع أغنية «Communication Breakdown» للمرة الأولى.

في اليوم نفسه، اشترى أسطوانتهم، وذهب لمتجر الموسيقى وابتاع جيتارًا إلكترونيًّا باهظ الثمن، يعلم أن أباه سيوبخه على شرائه بهذا الثمن بغير فصال.

ظل ينصت إلى موسيقاهم طوال الليل في القبو، وبات يحاول فهم طريقة عزف الجيتار، ولم يهدأ حتى استطاع أن يطنطن ببعض أوتاره.

حمل جيتاره مع طلوع الصباح وذهب إلى مدرسة لتعليم الموسيقى، ليلتحق بدورة مكثفة للمبتدئين في الغناء، وعزف الجيتار، وفي الظهيرة قرر أن يؤسس فرقة روك في الجامعة.

كآلاف الشباب آنذاك، صارت فرقته تعزف في بعض الحانات

الرديئة التي لا يبالي مرتادوها السكارى بالهراء الذي يُعزف في الخلفية، ولكن تيمور لم يهتم باستحسان من حوله له، كل ما كان يريده هو الاستمتاع بشغفه الموسيقي الجديد.

مع كل وتر يضربه وكل كلمة يغنيها، تآكل حلمه وتلاشى طموحه في أن يصبح عالمًا كيميائيًّا.

صار يرى نفسه عازف جيتار ومطربًا ينشر الروك في مصر، ليُدخل تلك الموسيقى الدخيلة على مسامع الشرق.

شجعته أمه، ولكن عارض أبوه الفكرة.

بعد الكثير من المناقشات الوجودية، والتأكيد على حرية الفرد في اتخاذ قراراته واختيار مستقبله وتحديد مصيره، لان الأب وترك وحيده يحمل حقائبه ويعود إلى القاهرة بعد أن أنهى دراسته، ليقطن بشقتهم القديمة في الدقي.

فور أن وصل تيمور لشقتهم التي لا يذكر أي شيء عنها من طيلة بُعده عن مصر، انشرح صدره حين فتح النافذة للمرة الأولى وتفاجأ أنها تطل على ديسكو «الكينج»، وقرر أنه سيكون المنصة التي سيبدأ منها في نشر شغفه، ولكنه كان في حاجة إلى فرقة.

اتبع طريقة الهيبي، وطرق كل باب في عمارته باحثًا عن موسيقيين، ليقابله معظم سُكان العمارة أصحاب الحمالات البيضاء والبيجامات الكاستور بنظرات ممتعضة وهم يدعونه في سرهم بالمخنث ذي الشعر الطويل.

لم يفقد الأمل، أكمل بحثه، حتى فتح له ياسر الباب، ذو السوالف السخيفة والدوجلاس المضحك.

قدم له تيمور نفسه، وشرح له حلمه باقتضاب، ولأول مرة لاقى إجابة غير النبذ والسخرية:

- بالطبع أعرف موسيقى الروك، أنا من محبي فرقة «كوين»، فكرتك عظيمة يا سيد تيمور، ولكني لا أجيد عزف أي آلة للأسف.

- لا بأس، شكرًا للتشجيع على أي حال.

- انتظر، يمكنني مساعدتك، أعرف بعض الموسيقيين في الجامعة، كما أنني بعامي الأخير في كلية التجارة، ولا شك أن فرقتك ستحتاج لشخص مثلي يدير أعمالها وجولاتها، أليس كذلك؟

اختار مع ياسر أعضاء الفرقة، وقد فرض عليه خطيبته ناهد التي بالكاد تفهم كيفية الضرب على أتفه الآلات الموسيقية التي صنعها الإنسان؛ التامبورين.

ظلوا يعزفون في حفلات الجامعة والنوادي الاجتماعية، وقد لاقوا استحسانًا من الشباب المفضلين للموسيقى الغربية عن الطرب الشرقي، ولكنه كان يضع ديسكو الكينج نصب عينيه، بسبب نوعية مرتاديه من الفنانين والمنتجين، حتى أتت الليلة السحرية التي نال فيها فرصته في الفن، وكذلك في الحب.

كانت جيهان الساذجة تحب الإنصات إلى هذا المتهور الذي يكبرها بأربعة أعوام.

تراقب إيماءاته وحركة أصابعه وهو يتكلم كأنه يعزف آلة خفية، وتتوه في ملامحه حين يسند وجهه على كفه لينصت إليها باهتمام

لا تألفه، وهي تشاركه أفكارها وتحدثه عن أبيها ومشفى الولادة الذي أنشأه مع خالها.

حين حكت لي عن تلك الفترة، سألتها كيف تحول افتتانها المفهوم وقتها، أعني، شاب وسيم، صاحب كاريزما يعزف الجيتار ويغني ويقود دراجة نارية، الفتيات يقعن في فخ تلك الهيافات، ولكن كيف تطور الأمر وصار الافتتان ولعًا؟ أجابتني بأنها أحبته فقط لأنه يجيد الإنصات إليها!

إجابة غبية تليق بامرأة محرومة من الحنان مثلها!

قالت لي إن الأمر تطلب بضعة أشهر حتى تمكن تيمور من اختراق أحاديثها السطحية عن عائلتها، واكتساب ثقتها حتى تبوح له عن عقدتها.

أنا وجيهان مقتنعان بأن كل شخص على هذه الأرض لديه عقدة يحملها في جوفه منذ فترة طفولته.

كل ما يقال عن التربية السوية والطفولة السعيدة هو محض هراء!

كل الأطفال يعذبون بطريقة أو بأخرى، أبٍ قاسٍ، أم ظالمة، جدة رجعية، عمة متنمرة، خيانة، وفاة، مشاكل عائلية، ضائقة مالية، عنصرية، طبقية، حرب، ثروة، وباء، احتباس حراري.

العالم سيجد طريقة لخزوقتك وإفساد براءتك، فهنا، لا أحد ينجو بطفولته.

أنا عقدتي كانت حين أتى حسام إلى حفل الربيع في المدرسة ومعه جريدة قديمة لا أدري أتى بها من أي داهية وعرضها على كل شخص في مدرستنا. كانت جريدة تخص تفاصيل جرائم أبي، الجراح سليم

رشدي، تشرح كيف قتل اثني عشر شخصًا بسبب ثأر شخصي، كيف لفق التهم لوالدتي شويكار جلال عبد الحي، التي كانت تعاني من انفصام الشخصية، ثم قتلها في النهاية وزيف انتحارها، وكيف حل الضابط حسين الألفي وصديقه المحمدي القضية، وكيف شُنق أبي.

والدي سفاح، والدتي مختلة عقليًّا، الجميع ينظر إليَّ ككلب مسعور سينهشهم في أي لحظة، هذه عقدة طفولتي.

عقدة طفولة جيهان كانت أبسط بكثير، على الأقل لم تكن وصمة عار؛ ألا وهي أن أباها كان يريد ولدًا.

الطبيب الشهير عزيز، كان يطمح في أن تنجب له زوجته ولدًا يحمل اسمه، ويرث ثروته ويدير مشفاه بعد عمر طويل، وكل هذا الهراء والمرار الذي يسقونه لنا عن فوائد إنجاب الصبيان بدلًا من البنات.

إليكم المفاجأة، الاثنان خراء!

جيهان أخبرت تيمور أنه حين لم تُنجب أمها سواها، قرر أبوها أن يرضى بالمتاح ويعدله على ذوقه، فعامل جيهان على أنها ابنه.

علمها لعب الكرة وركوب العجل والرماية والملاكمة وصيد البط الفيومي، حتى إنه كان يناديها جو عوضًا عن جيجي كما تفعل أمها.

كان يمنعها من شراء الدمى وألعاب الفتيات، ويصطفي لها أصدقاءها من الصبية أبناء أقاربه وأصدقائه المقربين، ولا يُلبسها سوى السراويل والملابس الرياضية، بل وحتى إنه كان يجبرها على قص شعرها، ليقنعها أن المظاهر والملابس الأنثوية ليست سوى دليل على ضعف عقل مفضليها.

حفَّظها أن عليها بقوة المظهر والبنيان، لا الدلال والإثارة كفتيات الليل الرخيصات، وحتى حين لاحظ اهتمامها بالموسيقى، قرر أن يختار لها الآلة الأكثر ذكورية، فهي تذكر حين نصب لها الدرامز أخبرها أن عزفها عليه لهو تمرين ممتاز لعضلات الكتفين والمرفقين، وهكذا سنمزج بين الفن والرياضة لنزيد جسدكِ المرتخي قوة.

علَّه الشيء الوحيد الذي امتنت لأبيها فيما بعد لفرضه عليها.

وعلى الرغم من أنه حولها لذكر بديع الحُسن، وجعلها منبوذة وسط المجتمعات الأنثوية والذكورية كافة؛ لنظرتهم الدنيوية لها ولتصرفاتها الفظة غير المقبولة، فإنه لم يتوقف عن محاولات إنجاب صبي.

والدة جيهان كانت ضعيفة البنية، فقيرة الصحة، لم يتم لها حمل منذ أن وضعت جيهان، حتى رُزقت بصبي في صيف ١٩٧٢، ولكنها لم تنجُ من ولادته المتعسرة.

لم تستطع جيهان أن تغفر لأبيها إجباره لأمها على الحمل، على الرغم من وعيه الطبي بوضعها الصحي المضطرب.

لم تقوَ على الحياة معه بعد أن راحت أمها، تركته وانتقلت للعيش في بيت خالها، الذي لا يقل صرامة عنه.

حين قصت عليَّ هذه الحكاية، كانت متماسكة، ترويها وكأنها مجرد ذكرى قديمة ثقيلة الظل، ولكن حين كانت في الثامنة عشرة من عمرها، وتتحدث عن هذا الأمر للمرة الأولى مع تيمور، لمعت عيناها حزنًا وحاربت حتى لا تبكي.

عانقها تيمور الحبوب، وهمس إليها بأنه حِصنها الآمن، ولا داعي

لأن تظل رافعة درعها أمامه حتى تخفي عنه دموعها، ولكنها أبت أن تلقي بكبريائها عرض الحائط، واكتفت بأن عانقته وابتسمت بامتنان.

أعادها إلى بيت خالها قبيل الفجر بسويعات، وشبك أصابعه لها لتصعد إلى نافذتها، ثم لوحت إليه وألقت إليه قبلة في الهواء، وراقبته حتى ابتعد بدراجته النارية.

ألقت بنفسها على الفراش بجوار ناهد، حتى انبثقت الشمس وحل الصباح مع زقزقة طيوره، لتستيقظ جيهان بصعوبة على صوت حصى تلقى علي شرفتها خلسة.

خرجت مسرعة، لتجد تيمور واقفًا في الشارع أسفل نافذتها بعينين خضبتهما قلة النوم بالحمرة، وهو يحمل بين ذراعيه كل ما وقعت عيناه عليه في محل لعب الأطفال؛ من دُمى ودببة محشوة، وهمس إليها:

- لا أظن أن الأوان قد فات على اللعب بالدُّمى يا صغيرتي.

لفتة رومانسية تفقع المرارة!

* * *

على الرغم من أنها كانت دائمة التملص من الأعراس، فإنها كانت متحمسة لزفاف ناهد.

ليس فقط لأنها ستحضر النهاية السعيدة لقصة حب ناهد وياسر، بل لأنها ولأول مرة ستحضر الفرح ومعها رفيق.

أرتني صور هذا الزفاف، جيهان كانت جميلة. هي دائمًا جميلة، سواء الآن وهي على مشارف الثلاثين، أو حين كانت في التاسعة عشرة من عمرها في صيف ١٩٧٤.

كانت ترتدي ثوبًا برتقاليًّا، لأنه لون تيمور المفضل، وكانت تفصيلته تكشف الظهر والصدر، فظهرت سمرة جلدها التي قالت إنها اكتسبتها لأنها أمضت أغلب الصيف على شواطئ الإسكندرية وقتها.

في أغلب الصور، كانت تعانق تيمور وترقص معه، كانت تقول لي: «انظر يا آرام، كيف كان ينظر إليَّ بحب!».

لم أرَ في نظراته لها في تلك الصورة سوى شبق ذكوري فاضح، ولكنني لم أُرِدْ أن أفسد عليها ذكراها الوهمية، فهززت رأسي وقتها بلا تعليق، وتركتها تستأنف حكايتها.

لم يستسِغْ خالها وقتها رقصها مع غريب، فلفت انتباه زوجته.

نكزَتها أكثر من مرة وجذبَتها حتى الزاوية، ونهَتها عن تلك الممارسات الخليعة، ولكنها لم تُبالِ ولم تسمح لكلمات زوجة خالها اللاذعة ولا حتى رؤية أبيها - الذي أتى متأخرًا بعد أن أنهى عمله بالمشفى، فبارك ورحل من دون أن يبادل ابنته كلمة واحدة - أن يعكروا صفوها، أو يخترقوا هالتها الرومانسية.

عناد المراهقات!

ودعت العائلة العروسين، ثم عادت جيهان للمنزل، وطيلة الطريق لم يتوقف خالها عن توبيخها:

- لقد قلَّلتِ من شأننا أمام الحضور، كيف لكِ أن تسمحي لغريب أن يراقصكِ ويلامسكِ علانية؟!

أجابته بسخرية باردة:

- حاولت أن أقنعه بالذهاب إلى مكان سري مثير للشبهات، ولكنه أصر على الرقص بنزاهة أمام الجميع.

- متى ستتوقفين عن التحدث إلينا كفتيات الشوارع، أنتِ كريمة آل عزيز وآل مخيون، ألا تدركين مكانة العائلتين؟! لو كانت أمكِ حية لكسرت ضلوعكِ على أفعالك المشينة.

قطبت حاجبيها ولمعت عيناها بالدموع حين سمعت تلك الجملة، ولكنها أبت أن تسمح لهما بهزيمتها في تلك المعركة، فابتلعت دموعها وكوّرت قبضتيها وأجابتهما بعنف:

- حسنًا، سأحسم لكما المسألة، أنا وتيمور سنتزوج.

- إن كان يود أن يتخذكِ زوجة، فلِمَ لم يقابل والدكِ؟

- كنا ننتظر حتى أنهي امتحانات الثانوية العامة، وقد كان، أنا الآن مستعدة للتزوج منه.

- ما مؤهلاته، ما وظيفته، ما مصدر دخله؟ ما...

- ما دخلكما بهذه الأمور؟ الأمر يخصني وحدي.

- أيتها النمرودة الجاحدة! إن كنتِ تعيشين تحت سقفنا وتُطعَمِين من خبزنا، فتسكُّعكِ مع غريب ورغبتكِ في الزواج منه لهو أكيد من شأننا.

- إن كانت معيشتي معكما هي ثمن حريتي، فلتذهبا أنتما وخبزكما وسقفكما إلى الجحيم.

* * *

لم تتفاجأ كثيرًا حين طردها خالها من منزله بعد أن تطاولت عليه. كانت تعلم أنها لن تمكث معهما للأبد، وأن بطارية تحملهما للسانها السليط ستنفد عاجلًا أم آجلًا؛ لذا، وبلا جدال، لمَّت رحالها واتجهت إلى فيلَّا أبيها.

فتحت لها مربيتها وعانقتها، ثم أخبرتها أن أباها في غرفته بالطابق العلوي.

وجدته جالسًا في فراشه، بجوار أخيها نبيل، الذي حُرم من حنان أمه وليدًا.

كان الرضيع يغط في نومه العميق، بينما انشغل أبوها بقراءة أحد المراجع الطبية المتخمة.

لمحها عزيز بطرف عينه وهي واقفة عند باب الغرفة، حاملة حقائبها، فسادت لحظات من الصمت الثقيل حتى قررت أن تقطعها جيهان وهي تبدأ حديثها:

- أبي لقد...

- اعتذري لخالكِ وعودي لبيته.

- ألا تحتمل وجودي في المنزل لهذه الدرجة؟

- لا أحد يحتمل معاشرتكِ يا جيهان، وطرد خالكِ لكِ أكبر دليل.

للمرة الثانية كبتت دموعها، وأجابته بنبرة عنيفة تخالف ما تشعر به من وهن:

- هناك من يحتملني، بل ويحبني ويود أن يقضي الباقي من عمره معي.

- أشفق على ذاك المخنث ذي الشعر الطويل، إنه يجهل ما هو مقبل عليه.

- بل أنت الذي تجهل قيمتي.

استشعرت رعشة في صوتها، فحاولت أن تستعيد قوتها، وقالت:

- على أي حال، لستُ هنا للإقامة معك، وددتُ أن أعلمك أنني سأتزوج من تيمور.

- لا أبالي.

- حسنًا. فقط تذكر أنني...

- أتعلمين يا جيهان...

أخيرًا رفع عينيه عن الكتاب والتفت لها، للمرة الأولى منذ أن وطئت غرفته.

- كثيرًا ما أتساءل كيف أنبت رحم أمكِ الصالحة، بذرة شيطانية مثلكِ، وكيف انتهى الأمر بأن انتشل الله روحها الطاهرة وحرم وليدها منها وأبقاكِ أنتِ حية تعيثين فسادًا في الأرض.

هربت منها دمعة رغمًا عنها، فمسحتها سريعًا بظهر يدها ببأس حتى لا يلمحها، وقالت:

- وأنا أسأل الله السؤال ذاته في كل ليلة، لِمَ جعلني يتيمة الأم وليس الأب!

* * *

طُردت للمرة الثانية.

ساعدتها مربيتها على استعمال الهاتف خلسة، ثم خرجت في صمت ورفضت أن تأخذ منها أي نقود أو طعام، وجلست على جانب الرصيف كالمشردة منتظرة الفرج.

لم يطل انتظارها حتى وصل البطل المغوار على دراجته، والريح تتسلل من أسفل أزرار قميص الفرح الذي لم يلحق أن يُغيره.

نزل عن دراجته مصدومًا حين رآها جالسة على الرصيف بمفردها في الظلام بتلك الساعة المتأخرة، فسألها:

- لِمَ لمْ تنتظريني في الداخل كما أخبرتكِ؟

اقتربت منه وهمت أن تصعد دراجته وهي تعافر لحبس دموعها، فخرج صوتها مختنقًا مهزوزًا:

- أبعدني عن هذا المكان فحسب.

أخذ عنها حقيبتها، وقبل أن تتمكن من الجلوس على الدراجة جذبها وهي في حالة الضعف تلك، وعانقها بحنان وصفته أنه كان أبويًّا يخلو من أي شهوة. عانقها برفق لم تحسه من قبل، فألقت برأسها على صدره بوهن، وانكمشت بين ذراعيه كورقة خريف واهية وهو يهمس إليها:

- لستِ مضطرة لكبت دموعكِ أكثر من ذلك، هنا الأمان.

استسلمت ودفست وجهها في صدره، وبكت بصوت مكتوم، لتتدفق دموعها على قميصه.

وصفت جيهان نفسها بأنها كانت في هذه اللحظة، قنبلة موقوتة، وتيمور خبير المفرقعات الوحيد الذي استطاع أن يحتوي انفجارها بحرفية.

* * *

أعطاها مفتاح شقته بعد أن هدَّأ من روعها، وأحضر لها عشاءً حسَّن مزاجها، وخرج كفارس نبيل لا ينقصه سوى حصان أبيض، ليبيت عند أحد أصدقائه.

نامت بعد ساعات طويلة من الأرق، حتى استيقظت على طرق

الباب، فعدلت ملبسها وخرجت متثائبة تفرك عينيها متوقعة أن قارع الباب هو تيمور، ولكنها تفاجأت حين وجدت ناهد العروس واقفة على عتبة الباب بابتسامة بلهاء، تحمل ثوبًا مغلفًا في كيسه المغلق.

سألتها جيهان مرتبكة:

- ما الذي تفعلينه هنا؟

- أنسيتِ أنني أقطن في تلك البناية؟

- كلا، ولكن أليس من المفترض أن تكونِي في شهر عسلكِ الآن؟

- يمكن للإسكندرية أن تنتظر يومًا إضافيًّا، فالليلة زفافكِ.

قفزت ناهد بحماس طفولي:

- أنتِ وتيمور ستتزوجان الآن.

فقدت جيهان النطق، بينما دفعتها ناهد لغرفة النوم لتصفف لها شعرها وتضع لها زينتها، وتُلبسها ثوب الزفاف الأوروبي التصميم الذي حملته معها.

عرفتْ لاحقًا أن تيمور بعد أن تركها هاتفَ والديه ليخبرهما عن قراره بالتزوج منها، وأن عليهما الحضور غدًا لزفافه.

لم تتباطأ الأم التي ورَّثت لابنها روحها الشابة المغامرة، وهرعت إلى المطار، ولكن وبخه أبوه لإقدامه على خطوة مثل هذه من دون الرجوع إليه، أو إلى العادات والتقاليد الشرقية الحميدة، ولكن بعد أن عبر تيمور عن حبه الشديد لجيهان وروى لهما ما بدر من أبيها وخالها في حقها، تعاطف الأب معها وتبنى قضية ابنه العاطفية، ولاقى طليقته الإنجليزية في المطار ليصلا للقاهرة صباحًا.

عرَّج تيمور على شقة ياسر ضاربًا بتقاليد «الصباحية» عرض

الحائط، وطلب منهما أن يساعداه على تحضير العرس، ففاجأه أنهما أكثر حماسًا منه، بل وسيؤجلان شهر عسلهما ليوم إضافي كي يحضرا العرس.

بمساعدة ناهد ووالدته، اختار ثوب زفافها وبدلته، وعاونه أبوه وياسر وأعضاء الفرقة وبعض الأصدقاء على تحضير سطح البناية وفرشها بالسجاد والأضواء الليلية الرقيقة ورص الكراسي.

حين هاتف صاحب ديسكو «الكينج» ليدعوه للعرس، قرر أن يكرمه بإرسال زجاجات الستيلا وأمهر راقصاته الشرقيات لتؤدي فقرة مجانية للمدعوين.

ببساطة، وبمعونة إلهية ثم دعم عائلي، تمت خطته بالدقة والعشوائية نفسيهما التي رسمها بها.

انتهت ناهد من تزيين جيهان، ونظرت للمرة الأخيرة لنفسها في المرآة، ولأول مرة شعرت أنها حقًّا أنثى فاتنة الحُسن، كما يدعوها تيمور.

صعدت العروس مع صديقتها إلى السطح وشمس المغيب.

تقول إن كل شيء في زفافهما كان بسيطًا، وحميمي الأجواء بشكل يأسر الحواس.

رائحة الورود الموضوعة حول كرسي العروسين، ضوء المصابيح المعلقة برقة، لحن عازف الكمان الواقف عند مدخل السطح والذي بدأ عزفه فور أن أطلت عليهم متأبطة ذراع ياسر الذي قرر أن يلعب دور وكيلها.

أرتني الصور، ثوبها الذي ينساب على عودها الممشوق، القبعة البيضاء التي يتدلى شعرها الأشقر من أسفلها مفترشًا ظهرها كأميرة

إنجليزية، وتيمور يرتدي بدلة نعتتها هي بأبهى حلة ذكورية رأتها في حياتها، بينما قلتُ أنا في عقلي إنها أبشع من بدلة فطوطة!

أخذت تصف لي كيف سالت دموعها وخفق قلبها حين استقبلها تيمور بابتسامة متلهفة، وهو يحمل باقة من زهور الأقحوان البرتقالي، أهداها إياها ليتوِّج طلتها كعروس بهية.

ظلا ينظران لبعضيهما متحادثين بلغة العيون، وكأن كل كلمات الكون في هذه اللحظة باهتة باردة لا تليق بحالة الابتهاج والحميمية التي أصابتهما.

شاهدت صدره يعلو ويهبط وهو يبتسم أكثر قائلًا:

- لقد جهزتُ خطابًا شاعريًّا طويلًا لأفضي إليكِ بمكنون فؤادي، ولكن طلتكِ بالثوب الأبيض وإدراكي المفاجئ بأنكِ حقًّا صرتِ زوجتي، جعلا الكلمات تتبخر من عقلي وتذوب على طرف لساني.

اقترب أكثر وأحاط خصرها بيديه، وأكمل هامسًا:

- لذا سأحاول أن أعبر لكِ عن حبي وامتناني للقدَر الذي وحَّد دربينا بلغة أخرى تخيلتُ ممارستها معكِ كثيرًا، وأظنني اليوم قد استحققتُ تطبيقها على أرض الواقع عن جدارة.

مال عليها ولثم شفاهها بشغف.

ألم أقل إن كل نظراته لها في صورهما هي نظرات رجل شبق؟ مَن يلومه، أهناك امرأة أكثر إثارة وجمالًا من جيهان عزيز؟

أخذ يُقبل عروسه حتى قطع حميمتهما فلاش الكاميرا المزعج الذي جعل جيهان تجفل، بينما ضحك تيمور هامسًا لها:

- إنها كاثرين؛ أمي.

أنزلت كاثرين كاميرتها الضخمة ذات الفلاش الفظ عن وجهها، لترى جيهان ملامحها الإنجليزية، التي ميزها أنفها الحاد وشفتاها الرفيعتان وأسنانها البارزة وبشرتها البيضاء، وعيناها الزرقاوان الواسعتان اللتان ورثهما عنها ابنها.

لمعت عينا كاثرين بدموع الفرح، التي انهمرت وهي تعانق وحيدها ثم زوجته، مرحبة بها بلكنة إنجليزية دافئة:

- أهلًا بكِ في العائلة.

توترت جيهان وهي تقابل والدَي تيمور للمرة الأولى، وظنت أنهما سيعدَّانها لقيطة ساقطة انتشلتْ ابنهما الوحيد وتزوجته من دون موافقة أهلها، ولكن ترحيبهما الحار بها، وكلماتهما الطيبة، لم تعكس سوى مدى سعادتهما لابنهما الذي وجد حبه وتمسك به ببسالة.

هذا الوغد المحظوظ!

٥

Stairway To Heaven(*)

رفعت ليسا رأسها من على كتفي، وتركت يدي ونهضت عن السرير.

خرجت إلى الشرفة تشاهد غروب الشمس والجيلاتي اللعين لم ينتهِ بعد!

جاورتها مستندًا إلى سور الشرفة، أشاهد هدوء الشارع ورتابة إيقاعه وملل المشاة وصمت المغرب.

سألتها:

- مللتِ من رومانسيتهما الدبقة؟
- أحب طريقة سردك، هل فكرت أن تكتب رواية من قبل؟
- لا أحب القراءة.
- لأن أمك كانت تحبها؟
- لماذا تصرين على استفزازي بأسئلتكِ؟

(*) «سلم إلى الجنة»: أغنية روك لفرقة ليد زيبلين.

- أحاول أن أكتشفك كما اكتشف تيمور جيهان.
- وما كانت نهاية تلك الاكتشافات؟ كلاهما دمر الآخر.
- توقف، لا تحرق لي الأحداث، أكمل بالتفصيل!
- ما خطبكِ والتفاصيل؟
- السحر في التفاصيل يا آرام، أنا أومن بأن تفاصيل حياتنا كمسدس تشيخوف، كل تفصيلة تظهر في البداية ستنعكس أهميتها في النهاية، والآن، أكمل بأدق التفاصيل.
- حتى التفاصيل الرومانسية، التي أطيق العمى ولا أطيقها؟
- بل خصوصًا التفاصيل الرومانسية، التي تطيق العمى ولا تطيقها.

* * *

تفننت جيهان في أن تقص عليَّ المفاجآت والهدايا التي أعدها لها تيمور، وكأنها تزوجت بابا نويل!

ساعدها على تحضير الأوراق اللازمة، وسافرا لقضاء شهر العسل في لندن.

لم يقتصر الأمر على أخذ الصور الفورية عند معالم بريطانيا، بل كاد قلب جيهان أن يتوقف من الغبطة حين فاجأها بتذكرتين لحفل «ليد زيبلين» بحديقة فينسبيري العامة، فظلت تقفز في مكانها، وتصيح بحماسة لم تشعر بها يومًا.

حضرا الحفل، وكادت جيهان أن تفقد عقلها حين رأت الفرقة على المسرح، ثم تسللت مع تيمور إلى الكواليس وحصلت على توقيعه.

فقدت النطق ولم تقدر حتى على التعبير عن مدى إلهامهم لها، بعكس تيمور فصيح اللسان الذي ظل يحدث جون بونهام عن مهارات

زوجته بقرع الدرامز، ونسي حتى أن يذكر أنه يعزف أو يغني. لم يُبالِ سوى بتعويضها عن الاهتمام الذي حُرمت منه، وأن يخلق لها ذكريات لا تُنسى بإنجلترا وفرنسا وإيطاليا، حتى عادا للقاهرة.

عاشا قصة حب جامحة، لم تشُبها أي مُعكرات على حد تشبيهها.

تنقلا بين المدن الساحلية صيفًا للعزف على الشواطئ، وعزفا بالأقصر وأسوان في إجازة منتصف العام، وباقي أيام السنة تفرغا للعزف في القاهرة.

قضيا الليل يعزفان في ديسكو «الكينج» حتى الفجر، ثم يتجولان بالطرقات والشوارع وصولًا لكوبري الجلاء لمشاهدة بزوغ قرن الشمس وإشراقتها، وهي تستيقظ من مضجعها على صفحة النيل الرقراق.

مثل الفيديو كليب العربي المبتذل، ظلت تشرح لي كيف كانا يتبادلان الضحك والهمسات حتى يستقر نجم الصباح، فيمرا على عربة الفول ليبتاعا الفطور الذي يلتهمان نصف ما به من فلافل ساخنة في الطريق إلى شقتهما من حلاوة طعمها الطازج.

يفطران على طاولتهما متجاذبَين أطراف الحديث على صوت سكان العمارة النازلين لأعمالهم وتوصيل أطفالهم للمدرسة، وكان أولهم ياسر وناهد، الذي رزقهما الله بمجدي الصغير.

اعتاد ياسر أن يطرق بابهما كل صباح قبل الرحيل لمكتب المحاسبة الذي يعمل به، وقبل أن يوصل ناهد التي لم تعد تذوق النوم بسبب مناوباتها المتغيرة بمشفى النساء والولادة الخاص بوالد جيهان، وكذلك ساعات نوم رضيعها المتذبذبة.

على الرغم من أن ساعات نوم جيهان وتيمور تعاكس باقي البشر،

وأن حين ينشط ساكنو الشارع يكون تيمور في ذروة نعاسه وتشوقه لملاقاة الفراش، فإنه يجبر نفسه على البقاء مستيقظًا والتدخين في الشرفة كل صباح متابعًا خروج آخر طفل من البناية ليذهب مع أبيه إلى المدرسة.

صارت عادة تُشعره بجانب بريء من الكون لا يأنسه بعمله في الديسكو، وبكل مرة يسمع فيها تيمور بكاء الرضع أو ضحكات الأطفال وهم يسرعون على السلالم للحاق بالأتوبيس، يتساءل متى سيكون أبًا.

أنهى سيجارته وأغلق الشرفة، ثم خلع قميصه وهيأ الغرفة كي ينام، بينما انشغلت جيهان بغسل الصحون في المطبخ.

حاول أن يغفل، ولكن ألم رأسه كان غاشمًا من حفل الأمس، فقرر أن يبحث عن مسكنات الصداع التي ابتاعها منذ فترة حتى نسي مكانها.

سأل جيهان بصوت عالٍ وصل إلى المطبخ:

- جيهان، ألم تري مُسكِّن الصداع؟

- كلا.

ظل يبحث في الأدراج، ثم تذكر أنه أخذه معه للديسكو ذات مرة وتركه في جيبه، ففتش بين ملابسه، ولم يجد شيئًا.

ظن أنه من المحتمل أن يكون قد طلب من جيهان أن تحمله معها، فبدأ يفتش في ملابسها في الخزانة، فلم يعثر على ما قد يُسكِّن صداعه، ولكنه وجد ما زاده حدة حتى شعر أن رأسه سيُشق إلى نصفين!

انعكس ضوء الصباح المنبثق من نافذة المطبخ على وجه جيهان المنشغلة برص الأطباق، حتى دخل تيمور فسألته قبل أن تلتفت إليه:

- هل وجدت مُسَكِّن الصداع؟
هز رأسه نفيًا، فنظرت له بقلق حين استشعرت صمته:
- ماذا بكَ يا تيمي؟
- كنت أراقب الأطفال وأتساءل لِمَ لم ننجب بعد!
- عزيزي، لم يمر على زواجنا سوى عامين.
- هذه ليست مدة قصيرة، خاصة وأننا لا نستخدم أي موانع للحمل، انظري إلى ناهد وياسر، تزوجا قبلنا بليلة وأنجبا مجدي.
ابتسمت وهي تجفف يديها:
- الله لم يُقدر لنا الإنجاب بعد.
تركت المنشفة وأردفت:
- سأنزل لأحضر لك مُسكِّنًا من الصيدلية، كي تقوى على النوم بسلام.
همت أن تتركه، فأمسك رسغها ليستوقفها، وأراها ما وجده مُخبأً في خزانتها، وهو يسألها:
- لماذا تتناولين حبوب منع الحمل؟
ازدردت ريقها بصعوبة وارتبكت، ولكنها قررت أن تقلب السحر على الساحر.
أكره تلك الخصلة الملعونة فيها!
- كيف لك أن تفتش في ثيابي؟
- هذه ليست الإجابة عن سؤالي.
- حسنًا، إليك الإجابة: هذا جسدي، ولي مطلق الحرية أن أتناول ما أريد، أنا لا أسألك لِمَ تتناول طوابعك المهلوسة تلك.

ألقت تلك الجملة الاستفزازية ثم خرجت من المطبخ، فتبعها تيمور إلى الطرقة وهو يضحك ساخرًا، ثم صفق صفقة عصبية متهكمة:

- أحسنتِ، رد ممتاز، أعجبتني فكرة إيمانكِ بحرية تصرف كل إنسان في جسده، إذًا، لو قررتُ أن أضاجع تلك النادلة المثيرة التي تغازلني كل ليلة في الديسكو، فليس من حقكِ أن تعترضي، أليس كذلك؟!

استشاطت غضبًا، وصرخت به كالرعد:

- أقسم لك، إن فكرت حتى أن تبادلها النظر، لحشوت بندقيتي بالرصاص الحي وقتلتكما.

- لِمَ يا صغيرتي، هذا جسدي ولي مطلق الحرية في أن أشاركه مع من أريد!

قفز غضبها لذروته، ففقدت السيطرة على نفسها وقامت بركل الطاولة التي تتوسط الصالة، فسقطت المزهرية الخزفية التي تعلوها وتكسرت وهي تصيح في وجهه:

- أنا أحذرك يا تيمور، إياك واختبار غيرتي.

سد فمه بيده محاولًا ألا يفقد السيطرة على لسانه، وأن يلتزم بدور الناضج في هذا الزواج.

قال بغضب مكتوم:

- هذه المزهرية التي هشمتِها، عائلتي تتناقلها عبر الأجيال منذ العهد الملكي.

زفر في محاولة للترويح عن ضيقه:

- ألا تستطيعين النقاش بطريقة متحضرة؟

- كلا، فأنا الهمجية وأنت الراقي ذو التعليم الأوروبي.

- ثورتكِ العارمة تلك لن تشوش على الموضوع أو تحيدني عن سؤالي يا جيهان: لماذا لا تودين الإنجاب مني؟

- لأني لم أُنهِ تعليمي الجامعي بعد.

- ليس مبررًا، ناهد كانت تخوض امتحاناتها وهي حامل بأشهرها الأخيرة.

- إن كنت معجبًا بقوة ناهد إلى هذا الحد، لِمَ لم تتزوجها بدلًا مني؟

وضع يده على رأسه وكأنه يمنع عقله من الانفجار:

- يا إلهي، كُفي عن استفزازي.

أخذ نفسًا عميقًا أخرجه ببطء محاولًا أن يخاطبها بهدوء:

- لا تتحججي بدراستكِ، فأنتِ لا تبالين بها على أي حال.

- حسنًا، إليك السبب: الأطفال في حاجة إلى دخل ثابت، ونحن وضعنا المادي مُزْرٍ وغير آمن.

- ترهات، وضعنا المالي جيد.

- هذا ما توهم به نفسك.

- ما الذي ينقصكِ، أخبريني وسأشتريه لكِ على الفور!

- طبعًا، ستشتريه لي بمصروف أبيك الذي يرسله إلينا شهريًّا.

أغضبته كلماتها المقللة من كبريائه، ولكنه أصر أن يتمسك بخيط الرزانة، وأن يتشبث بصبره الذي بدأ يتآكل ويذوب، إلى أن يضعها في خانة اليَك.

- حسنًا، إن كان هذا ما يقلق عقلكِ الكبير، ويجعلكِ تظنيني

غير مؤهل للأبوة فإليكِ الأمر، إذا تخليتُ عن شغفي وتركتُ الموسيقى ورفضتُ أموال أبي ووجدتُ وظيفة كيميائي في معمل السموم المصري، وأصبح لنا دخل ثابت ووافٍ، أحينها ستُنجبين لي طفلًا؟

توترت حين وضعها بين شِقَّي الرَّحى، فصاحت به:

- أنت تتصرف بصبيانية.

- كفاكِ إسقاطًا، فالتصرف بصبيانية هو ماركتكِ المسجلة.

قررت أن تنهي النقاش، فهربت لغرفتهما.

تبعها حيث وقفت عند الخزانة لتخلع ثوب نومها، وتخرج سروالًا وسترة.

- إلى أين؟

- دعني وشأني.

- كفاكِ هربًا من مشاكلكِ.

انفجرت بوجهه صارخة:

- وما الذي تعرفه أنت عن مواجهة المشاكل؟ أنت تيمي المدلل الذي يتسابق والداه على كسب رضاه كي يُخرسا شعورهما بالذنب لطلاقهما وتشتيته بين بيتين، وأنت تعرف ذلك جيدًا وتستغل تلك الحرب النفسية في اعتمادك عليهما في كل شيء.

حسنًا، أنا أكره تيمور، ولكن تلك الجملة كانت شديدة القسوة ولا داعي لها.

نظر إليها بمرارة وعلق بنبرة تنطق بخيبة الأمل:

- لم أتخيل أنكِ ستدرسين تاريخي وتحفظين عيوبي التي استأمنتكِ عليها، لتستخدميها ضدي في أول جدال بيننا.

أشعرتها كلماته بالخزي، فصمتت حتى لا تزيد الطين بلة، بينما أردف هو:

- إن كنتِ حقًّا ترينني فتى اعتماديًّا ومدللًا، فلِمَ قبلتِ بالزواج من رجل مثلي غير جدير بشخصيتكِ المستقلة الفتاكة؟

- أنا لم أقل إنك...

قاطعها غاضبًا ساخرًا منها بنبرة مستفزة:

- لِمَ قبلتِ عظمتكِ بالزواج من الفتى تيمي الذي يعيش على مصروف أبيه؟

- لأني أحبك، والحب هو قبول عيوبك قبل محاسنك.

- ظننتُ أن الحب هو ألا ترى بشريكك أي عيوب!

- يبدو أن ترجمتينا للحب مختلفة.

أطرقت للأرض ثم شعرت بوطأة التوتر الذي يتمدد في الغرفة حتى غطاهما، فهمَّت أن تضع ملابسها لتهرب، ولكنه منعها جاذبًا ثياب خروجها بعنف.

- لن ترحلي!

ألقى بثيابها بعيدًا حتى لا تطالها، فزاد عنادها وصاحت به عارية:

- إذًا سأخرج للشارع هكذا.

مستفزة!

كادت أن تخرج من الغرفة بملابسها الداخلية، ولكنه جذبها بقوة

وأوصد باب الحجرة بالمفتاح، وألقى به من النافذة بلا تفكير، وهو يصيح بغضب لم تستشعره منه من قبل:

- حاولت أن أتشبث بما تبقى من عقلانيتي ونضجي، ولكنكِ قادرة على دفع بوذا لانتشال مطرقة لتكسير رأسكِ عديم الحكمة هذا، هذا النقاش سيُحل وستعطيني إجابة الآن بأي طريقة.

جذب مصباح طاولة الفراش، فانفصل عن مقبضه الكهربائي وألقاه بغل صوب الحائط، فتهشمت قاعدته وهوت أرضًا.

التفت إليها مردفًا بالصياح الغاضب ذاته:

- فلنتبع طريقتكِ الغوغائية، ونحطم الأشياء كالبهائم، ونتبادل الصياح والسباب والإهانات كالهمج. لكِ ما تريدين يا صغيرتي، ولكننا لن نغادر تلك الغرفة حتى أفهم لِمَ ترفض المرأة التي أحبها بصدق ووفاء أن تجعلني أبًا لأبنائها.

شاهدت صدره يعلو ويهبط بعد أن صاح في وجهها كالوحش الكاسر برهبة.

حاولت أن تجيبه بهدوء حتى لا تثير غضبه ثانية، فأتت كلماتها مهتزة بينما تجمعت الدموع في عينيها:

- الأمر ليس هكذا، أنت لا تفهم.

- لست مشعوذًا لأفهم ما تتعمدين إخفاءه عني.

- أتعمد إخفاءه عنك لأني أرتعب من مجرد التفكير في إمكانية خسارتك.

جلستْ على الفراش وولت ظهرها له وبدأت تبكي.

- ألا تظنين أن عدم رغبتكِ في الإنجاب مني، وتناولكِ لتلك

الحبوب اللعينة، حتى من دون أن تناقشيني في الأمر، ليس بسبب كافٍ لخسارتي؟

- صدقني، ما أخفيه عنك لهو أبشع من عدم إنجابنا.

- لم أعد أفهم معتقداتكِ الملتوية يا جيهان، ولكني أفضل أن تبصقي في وجهي الحقيقة البشعة على أن تُزيني زواجنا بكذبة بديعة الحُسن.

- حتى وإن كانت الحقيقة أنني كدتُ أزهق روحًا؟

نظر لها تيمور مرتبكًا وهى تضيف:

- تريد الحقيقة مهما كانت بشاعتها؟ حسنًا، وجهي هذا الذي تنعته بالملائكي يختبئ أسفله وجه قاتلة، أتريد أن تعرف المزيد؟

دفست وجهها بين كفيها وأخذت تهتز باكية، بينما ظل واقفًا ينظر لها متخبطًا كالوطواط الأعمى.

حاول أن يبلع ربكته، وتمسك بدور الزوج الحكيم، فيكفي أحمق واحد أسفل ذاك السقف.

جلس بجوارها على الفراش وحاول أن يهدئ بكاءها، واختلق نبرة مطمئنة كي يشجعها على الحديث بلا خوف:

- عن أي قتل تتحدثين يا صغيرتي؟

رفعت وجهها عن كفيها، ولكنها ظلت تنظر للأرض وهي تمسح دموعها وتُرجع شعرها الأملس خلف أذنيها حتى تروي له.

- حين ماتت أمي، أصابتني حالة من الغضب الجارف، لم أتخيل أنها دفعت حياتها ثمنًا لميلاد ذاك الكائن الباكي المزعج، ذي الرائحة الكريهة، لم أكن أحب الأطفال بطبعي، ولكني لم أتخيل

أن هذا الطفل سيسلبني أمي، الشخص الوحيد الذي تقبلني كما أنا وأحبني بلا تعديل، حين أذاع عليَّ أبي نبأ وفاتها، وضع أخي نبيل بين يديَّ وأخبرني: «من اليوم، ستصيرين أنتِ أمه وستعوضينه عن وفاة والدتكِ». كنتُ مصدومة وغاضبة وناقمة على قدَري، ولا أعرف كيف.

لم تستطع أن تكمل، وانفجرت باكية مرتعشة، فاقترب أكثر وأحاط كتفيها بذراعه، وربت على يدها لتهدأ، فأردفت متفوهة بكلمات متقطعة:

- واتتني نوبة غضب حين سمعته يبكي، أكره بكاء الرُّضَّع، صوته أثار جنوني وضاعف غضبي على فراق أمي، ففقدتُ السيطرة ولم أشعر بنفسي إلا وأنا أضع يدي على فمه لأكتم بكاءه، لو لم يدخل أبي وينتشل نبيل من بين يديَّ، لاختنق.

اهتزت بقوة وهي تبكي:

- نعتَني أبي بالقاتلة وطردني من البيت حتى يحمي نبيل مني، لا لوم عليه، فأنا لا أعلم حتى هذه اللحظة كيف أقبلتُ على جريمة شنعاء كتلك، كيف تركتُ الشيطان يهيئ لي قتل شقيقي!

- عزيزتي، لا تلومي نفسكِ.

- إذًا من ألوم على جريمتي، أخي وليد الأيام؟! أتخالني لا أود أن أنجب لك طفلًا أرى فيه ملامحك وطباعك، أتخالني لا أتمنى أن أصير أمًّا لأبنائك؟ أريد أن أهبك كل ما تتمناه، ولكنني أخاف نفسي، أخاف أن يكون أبي محقًّا، وأنني حقًّا سفاحة ذات نزعة إجرامية لا تُؤتمن على الأطفال.

إنها تلك الجملة، خوف جيهان من أنها وُلِدَت بفطرة إجرامية كما وصمها أبوها، كانت عجلة الفخار التي شكلت علاقتي بجيهان.

قال تيمور المدلل الذي أحبه والداه بما يكفي حتى صار سويًّا قادرًا على استيعاب المحطمين المنبوذين أمثالي أنا وجيهان:

- أي ترهات تلك، لقد كنتِ صغيرة ووحيدة ومفجوعة لوفاة أملكِ، كيف سمحتِ له أن يثقل كاهلكِ بنظرته الجاحدة لكِ، أنتِ تقسين على ذاتكِ لأنكِ جعلتِه المرآة التي ترين نفسكِ من خلالها كل هذه السنوات.

- ماذا تعني؟

- أعني إن كانت هذه حجتكِ الوحيدة فأنا كافر بها، بل وكلي ثقة أنكِ ستكونين أمًّا عطوفة.

- وماذا إذا كان أبي محقًّا، ماذا إذا فقدت السيطرة على نفسي في لحظة ضعف وآذيتُ ابني؟

- لن يحدث، لن أسمح للظروف أن تجعلكِ تمرين بهذا الأسى والحزن ثانية، ولن أقلد أباكِ وألقي لكِ بطفل وأحملكِ مسؤوليته بمفردكِ، سأشاركِ كل لحظة حتى وإن تطلب الأمر أن نتشارك مدة حمله ورضاعته!

ضحكتْ على الرغم من الدموع المنسابة من عينيها، فابتسم لها حين أشرقت شمسها، وأخذ يمسح دموعها وهي تسأله:

- كيف لك أن تؤمن بي بعدما قصصته عليك، ألا تخافني؟

- لقد اخترتكِ بماضيكِ وحاضركِ ومستقبلكِ، وعيوبكِ ومميزاتكِ، دفعة واحدة بلا تجزئة، لست بجبان يبحث عن

الكمال المستحيل بلوغه في شريك حياته، لعلي أحمق يبالغ في تفاؤله، ولكني سأظل أرى الضوء الكامن في الكون رغم أنف ذاك الظلام الدامس الذي يكتنف العالم.

تنهد وهو يقترب من جيهان أكثر حتى التصق بها:

- والآن، كيف لي أن أومن بالإنسانية وأتفاءل بالحياة من دون أن أومن بأن حبي لكِ قادرٌ على إصلاح كل ما أفسدته الدنيا بداخلكِ يا صغيرتي؟

وهكذا أقدما على أغبى فعل يمكن أن يقدم عليه شخصان مثلهما. أنجبا!

* * *

انزعجت ليسا من تعليقي الأخير، فالتفتت إليَّ وهي تعدل شعرها، وقالت:

- ألا تريد الإنجاب؟

- لن أنجب وإن كان آخر يوم في عمري.

- لماذا؟

- لأن الجنون أمر وراثي.

- لا تخلط الأمور ببعضها، الوراثة من العناصر المسببة للاضطرابات العقلية، وليست هي أساس الجنون. ممَّ كانت تعاني أمك؟

- انفصامًا في الشخصية.

- مثل سعاد حسني في «بئر الحرمان»؟

لم أكن أعلم إن كانت تسخر مني، أم أنها تسألني ببلاهة وجهل،

رأتني أرمقها بغيظ فضحكت وخبطت كتفي بغزل ودلال، فابتسمتُ رغمًا عني، يستحيل أن تبقى عابسًا أمام مرح ليسا!

قالت من دون أن تختفي ابتسامتها:

- أمك كانت تعاني من انفصام الشخصية، على الرغم من أن أمها وأباها كانا سليمين.

- كيف تعرفين؟! لم يكن تعريف انفصام الشخصية قد ظهر وقتها، عاشت وماتت من دون أن يتمكن أحد من تشخيص مرضها.

- فليكن، هأنتذا عاقل لم ترث جنون أمك.

- عمتي وزوجها يريان عكس ذلك.

- أتثق بهما أم بي؟

أحب حين تصل ابتسامتها إلى عينيها الفيروزيتين الواسعتين اللتين تسعان مخاوفي وشكوكي.

كيف تفعلها، كيف تجمع بين الجنون والرزانة في الوقت نفسه؟!

أجبتها من كل قلبي:

- أثق بكِ يا ليسا.

- هل انتهت حكاية تيمور وجيهان؟

- انتهى طورهما الرومانسي، وصلنا إلى الجزء المثير للاهتمام.

- لا تشوقني أكثر من ذلك.

- حسنًا، هذا الجزء حكاه لي تيمور صباح اليوم، قبل أن ينتحر!

* * *

سطعت شمس السادس من نوفمبر على تيمور، وهو يحمل صغيره علي في غرفة الولادة.

طغت عليه مشاعر الأبوة، وإذ به يبكي فرحًا على تلك النعمة التي وهبه الله إياها.

شعر أن نظام الكون تغير حين نظر في وجه ولده للمرة الأولى، وفطن سبب وجوده في الحياة، وعرف نوعًا جديدًا من الحب أيقظ به غريزة كان يجهل ضراوتها، لتكون المعجزة أن يصهر الله روحه ويربط قلبه بكائن ضئيل مستعد أن يحرك الجبال من أجله، ويخلق عنده حدسًا يجعله يشعر بصغيره قبل أن يبكي، فيترجم لغته بشكل غرائزي.

لم يكن يمانع أن يستيقظ كل ساعتين على بكاء علي ليغير له حفاضته، ويغني له ويتمايل به على مهل وهو يرضعه من زجاجته حتى يغط في النوم، ويعيده إلى مهده.

ظل أبًا وزوجًا مثاليًّا حتى العاشر من نوفمبر، حين انتهت الإجازة التي أخذها من الديسكو للعناية بأسرته.

وضع سترته ورش عطره، بينما بقيت جيهان في الفراش تراقبه وعلي نائم بجوارها.

- لِمَ لا تمد إجازتك؟

- سأفعل، ولكن الليلة عيد ميلاد ياسين راغب، لقد حجز الديسكو كله واختار فرقتنا للعزف.

جلس على الفراش بجوارها لربط حذائه:

- كنت أودكِ أن تشاركيني المسرح، ولكن لراحتكِ الأولوية.

- منذ متى وأنت تعير رجال الأعمال اهتمامًا؟

- منذ أن كان عم صاحب الميلاد أهم منتج كاسيت، قد تكون الليلة انطلاقتنا.

- تلك العائلة مشبوهة، والجميع يعرف متاجرتهم في السلاح.

- وما دخلي؟! أنا مهتم بالشق الفني لعائلتهم فحسب.

أمسكت جيهان بيدَي تيمور، وتجلى الإرهاق في عينيها اللتين أحاطتهما هالتان سوداوان:

- تيمي، لا تتركني.

أصابه القلق، فأحاط وجهها بكفيه الدافئتين:

- ماذا بكِ يا صغيرتي؟

- يساورني شعور غريب هذه الليلة، لا ترحل.

- أود أن أظل معكما، ولكننا في حاجة إلى هذا الحفل؛ لنوفر حياة أفضل لصغيرنا.

داعب ابنه ثم أردف:

- سأجعل ناهد تجالسكِ، وسأنهي فقرتي وأعود على الفور.

- لستُ في حاجة إلى جليسة.

- عزيزتي اهدئي، أنا في الشارع المقابل لكِ.

قبَّلها ثم قبَّل صغيره:

- أعدكِ أنني لن أتأخر.

* * *

بسط الليل غطاءه الأسود في الأفق، فأتت نسمة صيفية لطيفة داعبت شعر ليسا الوردي.

قالت بابتسامة ناعمة:

- أرأيت كيف أن الأبوة شعور جميل يجعل المرأة يـ...

- لا تستبقي الأحداث، ستعرفين حالًا أن هذا الطفل كان بداية النهاية!

* * *

خرج تيمور وترك جيهان بالفراش تحملق في السقف بحزن.

سألتُ جيهان لاحقًا، لماذا أصرت على ألا يغادرها تيمور في تلك الليلة، فأخبرتني أنه بمجرد أن خرج، أخذت تبكي بشكل لاإرادي وكأن مات لها ميت.

لم تكن تلك المرة الأولى التي تنهمر فيها دموعها بهذا الشكل الهستيري، فمنذ أن وضعت مولودها وهي تجد نفسها تبكي بلا مبرر، شاعرة بضيق غير مفسر يجعلها تفقد شهيتها في الحياة كلها.

بكى صغيرها فزادت وطأة حزنها الذي يتغذى على صوت بكائه.

سحبت الوسادة ووضعتها على أذنها كي تحجب أنينه عنها، ولكن بلا فائدة.

انسلت من أسفل الوسائد وتركته على الفراش يبكي وحيدًا، ثم أغلقت باب الغرفة وخرجت للصالة لتبكي بدورها في صمت، حتى طُرق باب شقتها، ففتحت لتجدها ناهد.

كانت باسمة الثغر، هادئة كعادتها، ولكن فور أن رأتها تبكي ارتبكت:

- عزيزتي، ماذا بكِ؟

ألقت جيهان بنفسها بين ذراعَي قريبتها وهي تصرخ:

- أنا متعبة.

جلست جيهان في الصالة تدخن سجائرها بأصابع مرتعشة وعينين محتقنتين بالدموع، بينما أعادت ناهد علي لفراشه بعد أن غيرت له حفاضته وهزته حتى نام.

جلست بجوار جيهان على الأريكة، وهي تتأمل عظام وجهها التي نتأت بسبب الوزن الذي خسرته من قلة الطعام.

- النيكوتين سيزيد حالتكِ سوءًا.

نفثت جيهان دخانها، ثم سألت ناهد:

- أكنتِ تصابين بالأرق والضيق والاكتئاب المستمر، بعدما وضعتِ مجدي؟

- نعم، باستمرار.

- وهل كان بكاؤه يدفعكِ للجنون ويجعلكِ تتمنين الموت أو الإصابة بالطرش؟

انقبضت ملامحها ولم تجد إجابة، ولكن جيهان أردفت بنبرة مرتعشة:

- أنا لن أخنق ابني كما حاولت خنق أخي.

- لم أشك بذلك، ولو لحظة واحدة.

- نظرتكِ تقول غير ذلك.

بكت بقوة مرة أخرى دونًا عن إرادتها، فصاحت:

- اللعنة! ما خطبي؟ لا أقوى على التوقف عن البكاء، كل ليلة آخذ وسادتي وأنسل إلى الحمام، وأوصد الباب على نفسي لأدفس وجهي بالوسادة حتى ينكتم صوت بكائي ولا يلاحظه تيمور.

- حبيبتي، هوني عليكِ، الكثير من السيدات يصبن بحالات كتلك بعد الولادة، يجب أن تناقشي الأمر مع تيمور، فأنتِ في حاجة إلى الرعاية.

دفست سيجارتها في المرمدة بأصابع مرتعشة:

- كلا، إذا استشعر أي اضطراب من ناحيتي، فسيظن أنني قد أُقدِم على إيذاء ابنه، كما صار مع شقيقي.

- هذا مستحيل، تيمور...

- تيمور فعل ما يكفي لأجلي، والآن سأرهقه بالمزيد من اضطراباتي اللعينة، أنا أم وزوجة بشعة، لقد ألقيتُ بمسؤولية ابني كلها على عاتق تيمور بمفرده وهو لم يشكُ، أنا لم أغير لابني حفاضة واحدة حتى الآن، تركت تيمور يفعل كل شيء، وهو...

- وهو سعيد بذلك، لا تفكري بتلك الطريقة، أنتِ أقوى من حالة الاكتئاب المسيطرة عليكِ.

- كلا، أنا ضعيفة ووحيدة وخائفة، ولا أستطيع أن أتوقف عن البكاء، والليلة بالتحديد لديَّ شعور تشاؤمي شديد وكأن شيئًا لعينًا سيصيبنا.

* * *

عزف تيمور الأغنية الرابعة مع فرقته، وقد حضر كل أفراد آل راغب فيما عدا عمه المنتج.

قلقَ من ألا يأتي، ولكنه كان متيقنًا أن الليلة ستُغير مستقبله، وقد كان حدسه صحيحًا.

دخل العم البدين المتحلي بالذهب متأخرًا، فتحمس تيمور وانتعش، وظل يتابعه وهو يسلم على ابن أخيه ويعطيه هدية عيد ميلاده التي كانت شيكًا لم يلمح تيمور عدد أصفاره، ثم حيا شقيقه وزوجته وانضم لطاولتهم المقابلة للمسرح.

غمز تيمور باقي أعضاء فرقته، ففهموا مقصده، وغيروا اللحن إلى الأغنية التي أجلوها لإبهاره.

ظل تيمور يتابع العم على المائدة الرئيسية لآل راغب، ولو كان يعلم ما هو على وشك الحدوث، لما تعلق نظره بتلك الطاولة، ولما حضر الحفل من الأصل.

دقت الساعة الثانية فجرًا، ضربت الأضواء بعين تيمور، أبعد نظره عن المائدة ونظر لأعلى وهو يغني هائمًا، لمح خمسة رجال ضخام البنية يقتحمون البلكون الأسطواني العلوي للديسكو، تفرقوا في الزوايا، أشهروا رشاشاتهم الآلية، بلا مقدمات، ضغط كلٌّ منهم على زناده وأمطر السقف رصاصًا يخترق رؤوس الجالسين في الأسفل غدرًا.

في لحظة طالت كالدهر، رأى تيمور آل راغب يُصَفون واحدًا تلو الآخر، وأولهم الجالسون على الطاولة الرئيسية المقابلة له، فتناثرت دماؤهم المتفجرة من أدمغتهم على وجهه، فارتجف.

كان اغتيالًا مباغتًا، فلم تتسنَّ لهم حتى فرصة إشهار أسلحتهم لتبادل إطلاق النيران.

تصاعد صياح الرجال وصريخ النساء وتوقفت الموسيقى، وتدافع آل راغب صوب الباب، ولكنه كان موصدًا؛ فلم ينجُ أحد من الموت.

اقتنص المسلحون أرواح كل مَن في الصالة بلا هوادة، ففاحت رائحة الدماء المتدفقة كالنهر على ساحة الرقص.

تخشبت أطراف تيمور، فلم يجد ما يكفي من القوة ليحرك طرفًا، ولا ما يكفي من الأكسجين ليأخذ نفسًا.

لم يستطع أن يستوعب ما يدور، فكل شيء حدث بسرعة مباغتة، كان الموت أسرع من البرق، ووَقْع الطلقات أفجع من الرعد على حد وصفه.

شلَّه هول الموت، إلى أن قرر أحد القناصة أن يحول طلقاته صوب المسرح، فاقتنص عازف الأورج، فالباص، فالبديل الذي أتى ليعزف الدرامز مكان جيهان.

حين وجد تيمور أعضاء فرقته يتساقطون من حوله كأوراق الخريف، باغته تدفق الأدرينالين لينجو بنفسه.

حمل جيتاره وركض بأقصى سرعة نازلًا عن المسرح.

انزلق في بِركة الدماء الدبقة فسقط على وجهه، ليقابل تلك النادلة التي اعتادت أن تغازله فتُشاجِرها جيهان كل ليلة.

كانت ملقاة أرضًا، تلفظ أنفاسها الأخيرة بعد أن اخترقت رقبتها رصاصة وتفجرت الدماء من فمها، ثم رأى تيمور الحياة تتخلى عنها والبريق يفارق عينيها، وزبد الموت يسيل من بين شفتيها.

قرر ألا يموت الليلة.

انتفض فنهض أسفل أزيز الرصاص وصريخ الاستنجاد، وجرى على سجاد الدماء.

ركض صوب باب الموظفين الخلفي فدفعه بكل قوته، ليجد أن هؤلاء القتلة سهوا عن إيصاده.

أغلق الباب الثقيل نفسه فور أن خرج تيمور ليقابله الصمت.

لم يسمع سوى صوت أنفاسه اللاهثة، ضربات قلبه الصارخة، وَقْع قدميه الهاربتين على الأسفلت.

كل هؤلاء المقيمين في البنايات المجاورة كانوا في غفلة عن المجزرة الدائرة خلف حوائط الديسكو السميكة العازلة للصوت.

لم يقطع ذاك الصمت سوى بكاء طفل مدوٍّ كغارة، ينبعث بعنف من إحدى شرفات الشارع المؤدي للديسكو.

تابع الركض في الشوارع والدماء تملأ وجهه وملابسه وجيتاره.

هرب من دون أن ينظر خلفه، ولكن سيطر عليه هاجس أن هناك من يتبعه.

تخطى كل الشوارع الخلفية الضيقة التي يغطي بكاء ذاك الطفل الحاد عليها، حتى وصل إلى الشارع الرئيسي الفاصل بين الديسكو وشقته.

استمر في الركض، بينه وبين عمارته بضع خطوات.

تثاقلت أنفاسه التي تعلو وتهبط في صدره، لاحقه الصوت الغاشم لبكاء الطفل، عبر الحارة الأولى من الطريق السريع. شعر أن هناك من يتبعه، نظر خلفه عابرًا الحارة الثانية، لم يرَ مُلاحقَه الذي توهم وجوده، صدح صوت فرامل وبوق، باغتته مصابيح سيارة مسرعة، ثم رأى الدنيا مقلوبة رأسًا على عقب.

ارتطم وجهه بالأسفلت، ثم سيطر الصمت وعمَّ الظلام وسكن كل شيء، فيما عدا بكاء الرضيع!

٦

Highway To Hell(*)

يقول تيمور إنه يتذكر هذه المقتطفات السريعة: دماء غزيرة، أزيز رصاص، صرخات استنجاد، رائحة ثقيلة، بكاء طفل، ألمًا حادًّا...

ثم انتفض في فراشه وهو يصرخ:

- لا تقتلوني!

نظر حوله بعينين منتفختين ورأس مترنح وألم يعتصر بدنه.

اكتشف أنه مستلقٍ على ظهره في فراشه بالمشفى، وذراعه ملفوفة بجبيرة، ورأسه مربوط بالشاش، والكدمات تملأ بدنه، وأمامه ناهد وياسر، وجيهان تجثو على ركبتيها بجواره واضعة رأسها على كفه وهي تبكي شاكرة ربها:

- تيمي حبيبي، لقد نجاك الله!

* * *

(*) «الطريق السريع إلى الجحيم»: أغنية روك لفرقة إيه سي/ دي سي.

سألتُ عمتي وزوجها عن تلك الواقعة حين حكتها لي جيهان، فأكدت لي الأمر.

قالت لي إن تلك الواقعة قلبت الرأي العام، وإن تيمور كان الناجي الوحيد من مجزرة ديسكو الكينج، فتسارع الصحفيون والمذيعون ليظهر معهم، ولكنه رفض.

علمتُ من جيهان أنه لم يظهر في الإعلام لسبب بسيط، وهو أنه لم يتذكر لا وجوه القتلة ولا القتلى، كانت تفاصيلهم مبهمة يسودها الدماء والصريخ.

كلما حاول تذكر أي تفصيلة قد تفيد الشرطة، تسارعت أنفاسه وأصابته حالة من الذعر، فيتوقف عن الكلام ويطلب من الجميع أن يتركوه بمفرده.

سمح له الطبيب بالخروج بعدما استقرت حالته الجسدية، فترك غرفته مع جيهان التي باتت الليالي بجواره على الكرسي حاملةً رضيعها الهادئ.

في طريقهما للشقة، مرت سيارة الأجرة على الديسكو الذي ما زال مغلقًا إثر الحادث، وتهيأ لتيمور أن الدماء تتفجر في داخله كالسيول، ساحقة الزجاج الأمامي مفترشة الأسفلت. اضطربت أنفاسه، فأبعد نظره ونزل من السيارة ليساعد جيهان على حمل الحقائب.

دخلا الشقة فأجلسته جيهان على السرير، وفتحت له الشرفة لتدخل النسمات الرقيقة ملاطفة وجهه الذابل.

وضعت علي بجواره مبتسمة وهي تداعب شعره:

- الليلة سأطعمك وليمة تُقسم بروعتها.

لم يكن منصتًا لها، كان يتأمل جيتاره المحطم، الملقى في الزاوية خلف باب الشرفة، فانتبهت.

- لا تقلق بشأن الجيتار، سأشتري لك واحدًا جديدًا، و...

- أود النوم.

- أمنياتك أوامر يا سيد تيمي.

جثت على ركبتيها لتخلع عنه حذاءَيه، وأعانته على خلع سترته وقميصه كي ينام عاري الصدر كما يفضل، ثم غطته وأخذت علي وتركته.

حاول أن ينام، ولكنه ظل يحملق في الجيتار المحطم، ويافطة الديسكو التي انطفأت مصابيحها.

كاد يقسم إنه رأى الدماء تتقطَّر من بين أوتار جيتاره، ويسمع الصريخ الحاد خارجًا من الديسكو ليخترق أذنيه ويعتصر وجدانه.

ابتلعته ذكرى تلك الليلة، خفق قلبه وتمكن منه هاجس أن هناك من يمشي في الغرفة بنية أن يقتله؛ لأنه الناجي والشاهد الوحيد على المجزرة.

أتى من الخارج بكاء علي حادًّا مؤلمًا.

تسارعت نبضات قلب تيمور وارتعشت أوصاله، وتمكن منه شعوره بالخطر.

إن لم يركض الآن، فسيُقتل كباقي أعضاء فرقته.

انتفض من على الفراش بقوة آلمت ذراعه المكسورة، وخرج من الغرفة راكضًا.

نادته جيهان وهي تراقبه يفتح الباب ليخرج، ولكنه غاب عن واقعه ولم يسمعها.

نزل الشارع يركض عاريًا حافيًا، فتبعته وظلت تناديه، ولكنه لم يتوقف عن العَدْو والناس يشاهدونه في عجب.

حاولت أن تلحقه بأنفاس ضعيفة متقطعة، حتى وقفت أمامه وكلَّمته لاهثة:

- تيمور، ماذا يحدث؟!

- سيقتلونني.

- كلا، أنت في أمان يا حبيبي، لا تخف، أنا معك.

عانقته كأم تحتضن طفلها الذي أفزعه كابوس.

همس:

- لا أريد أن أموت.

انهار باكيًا، فشعرت به يرتعش بين ذراعيها، واستشعرت منه ما لم تألفه من قبل: الخوف.

* * *

لم يتم تعريف أو اكتشاف أو تشخيص، أو أي مما يفعله مختصو الأمراض العقلية، اضطراب كرب ما بعد الصدمة إلا في عام ١٩٨٠.

لذلك، عانى تيمور مما عانت منه أمي، لم يحصل على ما يستحقه من مساعدة؛ لأنه مصاب باضطراب غير مُشخَّص وغير معروف للمختصين آنذاك.

كتبت له ناهد بعض المهدئات كي يتمكن من النوم، فابتلع القرص ونام حتى اليوم التالي.

لم يستيقظ إلا على ضوء الظهيرة الباردة يطرق جفنيه، وصوت موسيقى ليد زيبلين يملأ الخلفية، ثم يد تباغته ضاغطة على صدره.

انتفض لاإراديًّا ودفع صاحب اليد بعنف، ثم نهض عن السرير ليتدارك الموقف.

سمعها تتأوه وهي متكورة على الأرض.

اقترب ليجد أن جيهان هي التي كانت توقظه، فظنها عدوًّا.

- هذه أنا، كنتُ...

صاح بها آمِرًا:

- إياكِ ومباغتتي هكذا ثانية!

خرج من الغرفة غاضبًا، واتجه إلى المرحاض صافعًا الباب خلفه.

كانت يداه ترتعشان وقلبه يخفق، فأبسط صوت أو حركة صارا يرعبانه ويشكلان خطرًا عليه.

غسل وجهه، ثم خرج ليجد جيهان واقفة عند الفراش تبكي وهي تضع جيتارًا برتقاليًّا جديدًا ابتاعته له، ليطابق ذاك الذي خرب في المجزرة.

مسحت دموعها حين شعرت به يقف خلفها، وهمت أن تخرج، ولكنه همس:

- لم أقصد الصياح بكِ.

- أعرف، ولكنك في حاجة إلى مساعدة يا تيمي، ناهد تعرف طبيبًا نفسيًّا، و...

صاح فيها:

- لستُ مختلًّا، أنا في حاجة إلى الهدوء والراحة فحسب.

- قد يكتب لك الطبيب بعض العقاقير التي...
- التي ستزيد الطين بلة، أنا كيميائي وأعي ما أقوله.
- حسنًا، لِمَ لا نسافر قليلًا؟ أعتقد أن الوقت قد حان كي يعرف والداك ما حدث، و...
- الآن تودين أن تعتمدي على والديَّ لحل مشاكلنا، أصرتُ عبئًا عليكِ؟
- كلا البتة، أنا فقط...

شعرت بالعجز والخوف منه وعليه، تجمعت الدموع في عينيها وهي تترجاه منكسرة:

- أود أن تتحسن حالتك أيًّا كان ثمن ذلك.

انفجر صائحًا:

- اللعنة، تضغطون عليَّ وكأن التحسن أمر بيدي، أنتِ لم تكوني هناك ولم تري ما رأيته، الدماء كانت كثيرة، كثيرة جدًّا، لقد غطى الدم كل شيء، الرصاص اخترق الرؤوس كلها، استنجد الجميع ولم يجدوا منقذًا.

بكت بشدة وهي تحيط وجهه بكفيها:

- حبيبي، لقد نجوت، أنت الآن في أمان.
- كلا، سيأتون لقتلي، هم فقط ينتظرون أن تهدأ الأمور وينسى الجميع الأمر، عاجلًا أم آجلًا سينتشلون روحي، تمامًا كما فعلوا مع البقية.

شعر بالوهن الشديد وتسارعت أنفاسه، ثم أتى بكاء ابنه من الصالة ليسوء الوضع.

تذكر اللحظة التي خرج فيها من الباب الخلفي والدماء تغطي جسده وملابسه، ثم الصمت الثقيل الذي لم يخترقه سوى بكاء الطفل الحاد القادم من إحدى الشرفات المجاورة لشارع الديسكو الخلفي، ثم السيارة المسرعة التي أتت لتصدمه بالأسفلت.

غطى أذنيه بيديه، ثم صاح بجيهان:

- أيمكنكِ أن تقومي بدوركِ كأم، وتُخرسي ذاك الرضيع؟

خرجت من الغرفة سريعًا مصدومة من حدته، وحملت علي ودخلت الغرفة الأخرى وأوصدت الباب عليهما بعيدًا عن تيمور.

* * *

ظل وحيدًا في الغرفة حتى غطاه الليل بظلامه، وبقيت جيهان في الغرفة الأخرى حتى لا تزعجه ببكاء علي.

استلقى أسفل غيمة الدخان التي خلقتها سجائره، وفشل في مباغتة الأرق واختلاس سويعات للنوم.

كاد الدخان أن يخنقه، فخرج إلى الشرفة لاستنشاق الهواء البارد، وحاول أن يغض طرفه عن الديسكو، ولكنه فشل.

أتت اللقطات سريعة غاشمة: عينا النادلة وهي تفارق الحياة، وجوه أصدقائه العازفين تملأها الدماء، الصريخ، الرصاص، الناس تتدافع عند الباب الخلفي، فرامل السيارة، صوت طرقعة عظام ذراعه تتحطم تحته، وصدمة ارتطامه بالأسفلت.

تسابقت أنفاسه، بينما تسارعت دقات قلبه وهي تلكم صدره، ليسيطر عليه شعور قاتل بقلة الحيلة والوهن، حتى ارتخت ركبتاه فسقط يشهق بصعوبة، وكأنه على وشك الاختناق.

لم يتمنَّ في حياته أي شيء مثل أن تتوقف نوبة ذعره الآن.

حاول تنظيم أنفاسه، فنهض ليبحث عمَّا يعرف أنه سيُسكِّن مخاوفه.

بخطوات مترنحة ويدين مرتعشتين، فتح درج الطاولة المجاورة لفراشه وقلب به، حتى وجد مسرحية ماكبث.

قلب صفحاتها حتى عثر على هدفه: طوابع السيلوسيبين، التي حسَّن مفعولها وطوَّر تأثيرها.

ألصق اثنين بلسانه، وظل يمتصهما كي يُعجِّل مفعولهما.

كانت أكبر جرعة يأخذها منذ أن عرف ذاك المخدر.

أصابته القشعريرة حين شعر بحركة الكون تتباطأ، ارتعشت عيناه وأصابه الدوار، ثم بدأ يتعرق وترتفع حرارته، ولكن على الأقل هدأت أنفاسه وارتخت أوصاله وانتظمت دقات قلبه.

ظل في الزاوية يراقب الغرفة التي بدت له أرضيتها وكأنها تموج. اتضح كل شيء: صوت دقات الساعة، تفاصيل ورق الحائط، النمل الذي يسير في خط منظم متجهًا إلى طبق التفاح المتروك على الكومود، انعكاس القمر على كوب الماء الموضوع على المنضدة.

اتضحت كل الأصوات، ثم صمت كل شيء فجأة.

شعر بروحه تغادر جسده وتحلق صوب السقف، وتشاهده من أعلى، بدا لها ضعيفًا مهزومًا، فامتعضت وتمنعت عن مراقبته وعادت لجسده ثانية.

تحولت سخونة جسده لبرودة، فنهض بصعوبة شاعرًا أن الأرض تهتز أسفل قدميه، كأنه على سطح سفينة، فترنح وتعثر بالكرسي ثم

الطاولة ثم الأريكة، حتى وصل إلى الشرفة وكاد أن يغلقها، ولكنه رأى ما استوقفه.

رأى السماء تمطر دماء دبقة على الديسكو، فوقف يتابعها مشدوهًا.

رأى نفسه يركض في الشارع بالملابس نفسها من ليلة الحادث، وعلى ظهره جيتاره، ووجهه ملطخ بدماء الضحايا.

لمح أحد القتلة الخمسة، مفتولي العضلات ذوي البدلات السوداء، يخرج من الديسكو ويتبعه بسلاحه الموجه صوب رأسه.

ارتعب تيمور، وذهبت عنه حالة الخدر والخمول التي أعطاها له المخدر وأصابه الذعر.

حاول أن يحذر نفسه من ذاك العدو الذي يود قتله، فصاح:

- خلفك، احذر، سيقتلك!

انتبه طيف تيمور الذي يركض في الأسفل إلى أن تيمور الحقيقي الواقف في الشرفة يكلمه، فرمقه بنظرة مرعبة.

فجأة، قفز في الهواء وبدأ يتسلق البناية، وصولًا لشرفته كالعقرب السام.

زادت ربكة تيمور حين رأى صورته المتقطرة بالدماء تدنو منه، وعلى وجهها نظرة مرعبة أكثر من نظرة القاتل الذي كان يلاحقه.

وصلت صورة تيمور التخيلية إلى شرفته.

وقف أمامه مبقعًا بالدماء والشر يطغى على عينيه، وبلا مقدمات أخرج من جيبه مسدسًا وجهه صوب رأس تيمور الحقيقي.

- لا تقتلني!

قالها في اللحظة نفسها التي استشعر فيها يدًا تباغته من الخلف.

استدار فوجد القاتل الذي كان يلاحقه في الشارع واقفًا خلفه ومعه رشاشه.

لن يهرب تلك المرة، سيواجهه، ركل صدر القاتل المسلح القصير فأسقطه، ثم انقض عليه، اعتلاه وأخذ يلكمه وهو يصيح:

- لن أموت!

كل أصوات المجزرة باغتت مسامعه، فوصله صريخ أنثى ثم بكاء طفل، ولكنه لم يُرخِ قبضته أو يوقف لكماته.

استمر في ضرب القاتل ومقاومته حتى تخضبت بَراجِمه بدماء المجرم الصارخ كالنساء.

سمع طَرْق باب الشقة، ثم زجاجًا يتهشم، ثم وَقْع أقدام وصياحًا يقترب من غرفته:

- تيمور، توقف!

خاف أن ينهض عن القاتل ليتفقد ما يدور في الخارج، فيباغته ويطلق عليه الرصاص من الخلف؛ لذا ظل مكانه حتى دخلت ناهد وياسر للغرفة وأشعلا الضوء.

قام ياسر بجذب تيمور بكل قوته، وهو يصرخ به:

- كفى، اتركها، ستقتلها!

ارتبك تيمور، فزادت دقات قلبه وهو يرى التهيؤات تتلاشى من حوله تدريجيًّا.

اختفى شبيهه الممسك بالمسدس في الشرفة، وجفت أمطار السماء الدموية، وتوقف أزيز الرصاص والصريخ الذي سمعه، وتبينت ملامح من اعتلاه وأبرحه ضربًا مميتًا.

عينان عسليتان وشعر أشقر، وملامح رقيقة تورمت من وحشية لكماته لها.

من هيأت له هلاوسه أنه قاتل مأجور، ليس سوى جيهان زوجته وحبيبته التي امتلأ وجهها بالكدمات والدماء، وهي تنظر له نظرات مرتعبة لن تُمحى من خَلَده ما حيا.

لهذا يمنعكم أهلكم من المخدرات، لهذا مثلت مدام نادية الجندي فيلم «الباطنية».

لهذا لا يجوز تعاطي المهلوسات أو المخدرات، ولو على سبيل التجربة؛ فقد تكون سببًا في أذية امرأة جميلة مثل جيهان.

* * *

تقطعت كلماته ويداه ترتعشان وهو يشرح لياسر:

- الطابع شوش إدراكي، لم أكن أعرف أنني أهاجمها.

بكى تيمور:

- يا إلهي، كدتُ أن أقتلها، و...

ربت ياسر على كتفه مهونًا عليه:

- يجب أن تنتقلا من هذه الشقة، فكلما رأيتَ تلك اليافطة من نافذتك ستعاودك الذكريات.

نظر ليديه المبقعتين بدماء جيهان:

- كيف وصلتُ إلى هذه الدرجة؟ لقد آذيتُ صغيرتي.

- لقد نجوتَ من ساحة حرب يا رجل، من الطبيعي أن تتأثر حالتك النفسية، ولكن بداية التعافي هي أن تدرك أن الأمر قد ولَّى.

- الشرطة لم تقبض على المجرمين بعد، فكيف لي أن أجزم أنهم

لن يلاحقوني ويقتحموا شقتي ليلًا ويتسللوا لغرفتي ليمطروا رصاصهم عليَّ أنا وأسرتي.

- تيمور، لقد انتهى الأمر، أسرتك في حاجة إليك، أنت الآن زوج وأب، فخذ نفسًا عميقًا وأعد حساباتك وأصلح الوضع، فما حدث اليوم لا يمكن أن يتكرر أبدًا.

* * *

نزل تيمور إلى شقة ناهد حيث ضَمَّدَت جراح جيهان.

استغربت سؤاله عنها، فمن المفترض أن جيهان عادت لشقتها منذ ساعتين، ومعها علي.

ارتبك تيمور، ونزل باحثًا عنها في المستشفيات والأقسام المحيطة، ولكنه لم يجد لها أثرًا.

نصحه ياسر أن يبقى في المنزل منتظرًا إياها، فعلَّها خرجت لاستنشاق الهواء كي تهدأ أعصابها من بشاعة ما صار.

ظل يدخن ويذرع الصالة ذهابًا وإيابًا، حتى سمع صوت المفتاح، فالتفت ليجد جيهان تدخل حاملة رضيعهما ابن الثلاثين يومًا.

فُجِعَ حين رأى الكدمات التي افترشت ملامحها، وعينها اليسرى التي انتفخت حتى أُغلقت، وشفتها التي شُقت إثر دبلته المعدنية.

ضغط رأسه بكفيه، وكأن عقله سيفر من جمجمته بسبب الذنب الذي ينهشه حتى بكى:

- يا إلهي، ما الذي اقترفته يداي؟

قال لي إنه لم يستوعب أنه آذى من اتخذها وطنًا وأهلًا وشريكة

بتلك الطريقة البشعة، فغطى وجهه بكفيه هاربًا من الحقيقة التي لطمته، وهو يقول:

- يجب أن ننفصل، تلك الليلة قتلت مني جزءًا لن يُبعث من قبره، لم أعد الرجل الذي استأمنتِه على نفسكِ، لقد فقدتُ السيطرة على نفسي.

اقتربت منه وأنزلت كفيه عن وجهه برفق، رأى في ملامحها قوة وبأسًا مُريبين.

- احمل ابنك وأمعن النظر في ملامحه.

أعطته صغيره فتأمل وجهه الوردي، لقد تغيرت ملامح الرضيع وقل وزنه، وبدا مختلفًا عن آخر مرة حمله فيها بين يديه.

- ستقاوم مخاوفك وتستبدل ساقيك المهزوزتين بأخريين ثابتتين من أجله، لن تخذل صغيرك.

- ولكني خذلتكِ لقد صرتُ...

مسحت له دموعه وهي تقول:

- حتى وإن صرت مسخًا، فلن أتركك يا تيمي.

عانقته وهي تهمس إليه بقوة:

- لقد اتبعتُ عقيدتك، وصرتُ مؤمنة مثلك بأن حبي لك قادرٌ على إصلاح كل ما أفسدته الدنيا بداخلك، وهذا إيمانٌ لن أفقده مهما توحشتْ ظروفك.

٧

Rock ’n’ Roll Suicide(*)

اعتزل الروك.

استبدل ثيابه المزركشة الصاخبة ببدلات رسمية قاتمة، ودراجته البرتقالية بإحدى سيارات شركة النصر، وساعات عمله من الليل حتى الفجر بديسكو الكينج، للعمل من الثامنة صباحًا حتى الثانية ظهرًا بمعمل السموم المصري.

استبدل موسيقى الروك بأغاني وردة وفيروز، والسفر والترحال بحل الكلمات المتقاطعة.

وعملًا بمبدأ أن التعافي يبدأ بالخروج من البيئة التي تؤذيك، ترك الزوجان شقة الزوجية بالدقي وانتقلا على مدار السنوات لأكثر من شقة صغيرة، حتى ترقى تيمور في عمله وزاد راتبه، وقرر أن يستأجر فيلَّا إيجارها معقول.

بما أن ناهد صديقةٌ عزيزة لهيدي، سألتها إذا كانت تود تأجير فيلَّا

(*) «انتحار الروك آند رول»: أغنية روك لديفيد بوي.

أخيها السفاح، فعرضت عمتي عليَّ الأمر بما أني الوريث الوحيد، أؤجر بيت أبي الملعون لتيمور وجيهان.

لم تكن جيهان الجميلة أو تيمور اللعين ضمن أصدقاء عمتي وزوجها، ولكني كنت أذكر اسميهما لأني حضرت لهما حفل شم النسيم وأنا في الإعدادية، عمتي قالت إنني حضرت لهما حفلًا آخر وأنا أصغر من ذلك، وإنني تصورتُ مع جيهان.

أرتني الصورة، كنت أشبهها وكأنني أخوها الصغير، العينان الواسعتان والأنف الرفيع والوجه النحيل.

أخبرتني أنها تركتني أعزف على الدرامز الخاص بها، فتساءلت: هل أحب الدرامز من وقتها بسبب جيهان؟

وافقت على المبدأ، فأخذني سيران لأتم معه الإجراءات، وكانت هذه المرة الأولى التي أقابل فيها الزوجين العاشقين للروك، ومن بعدها بدأت أخذ دروس الدرامز مع جيهان.

روت لي كل شيء عن حياتهما، كيف تعارفا، كيف تزوجا، كيف نجا هو من الموت، وكيف ماتت هي بنجاته!

على الرغم من أن تيمور خصمي، إلا أنني أشفق عليه، فكما شرحتْ لي جيهان، نحن شهود على موت نجم، لا خفوت ضيِّه فحسب.

حكت لي كيف تحول تيمور من نجم روك واعد إلى كيميائي ممل.

لم تقل مملًّا، تلك الإضافة من عندي.

ولكنها شكت لي من انشغاله الدائم بأبحاثه في قبو الفيلَّا الذي حوله لمعمل، ومن هوسه بالبحث عن ترياق لأحد السموم ذي الرائحة السُّكرية.

كانت تشكو لي كيف أن الحياة سلبتها توهجها، وحولتها من ثائرة جامحة إلى زوجة تتضرع ليلًا كي لا يصاب زوجها بنوبة هلع، إذا رأى مشهدًا لتبادل إطلاق النار في أحد الأفلام، أو سمع موسيقى الروك مصادفة في الراديو الأوروبي، أو وصل إلى أذنيه بكاء طفل في الشارع.

كانت تعيش أيامًا ثقالًا من دون أي تحسن في حالة تيمور.

كانت تخبرني أنه ينام بعينين مفتوحتين وينتفض من مكانه إذا أحس بحركة مفاجئة، ولا تنقطع عنه الكوابيس الملغمة بالدماء والصريخ.

كثيرًا ما يسير بنومه هربًا من أحلامه، حتى توقظه جيهان بحنان وتعيده لفراشه برفق.

ينتابه يوميًّا إحساس خبيث بأن هناك من يراقبه من خلف سياج الحديقة، منتظرًا اللحظة المواتية للانقضاض عليه وقتله، لأن قضية ديسكو الكينج ظلت ملفًّا باردًا مقيدًا ضد مجهول، فلم تسكن مخاوفه.

صحيحٌ أنه لم يعد مصدرًا للخطر، ولكن جيهان كانت تموت يوميًّا كلما لاحظت بريقه يخفت والخوف ينهشه مبتلعًا روحه المغامرة وسلامه الداخلي ونظرته الفلسفية المتفائلة للكون، ولكنها لم تتوقف عن حبه، بل تلك الفاجعة حولتها من جيهان حبيبته الصغيرة المدللة، إلى أمه التي يجنح إليها ويبكي على صدرها كلما انتابه الهلع.

إنها الحقيقة، لقد فقدت حياتها وهويتها للمرة الثانية، وانطفأ شبابها الثائر مبكرًا، إلا أنها كانت تُصبر نفسها كلما ذهب تيمور للعمل بأن تدخل غرفة الروك كي تقرع الدرامز سرًّا، وتسمع أغاني

ليد زيبلين خفية، وتتأمل صورهما، وتسرح مع ذكرياتهما حتى تُذكر نفسها بعازف الجيتار المثير وسيد الميكروفون الجذاب الذي أثار بداخلها أنوثة وعاطفة لولاه لما عرفتهما.

وأنا الوحيد الذي كان يعاضدها في تلك الفترة.

* * *

آلمتنا سيقاننا أنا وليسا من الوقوف، فجلسنا على بلاط الشرفة البارد نحدق إلى الأفق، هي تأكل الجيلاتي وأنا أكمل الحكاية:

- حين وصل تيمور إلى حافة الهاوية، ظهرتُ أنا في الصورة. لم يكن الأمر مجرد جمع الإيجار كل شهر أو أخذ درس موسيقى كل أسبوع. لا أدري أينا كان يشعر بالوحدة أكثر من الثاني، لهذا صرنا صديقَين على الرغم من أنها تكبرني بعشرة أعوام. كلانا يتيم منبوذ، كلانا يخفي وصمة تؤرقه، ولكنه يتظاهر بأنه بارد ومستفز ولا يهتم برأي من حوله فيه.

- وكلاكما متعطش للعاطفة، ولكنه يصر على إبعاد كل من حوله؛ لأن الوحدة لا تُكسر إلا بالألفة، والألفة هي تعلُّق، والتعلق خطر، لذلك تهربون، فالوحدة على الرغم من أنها موحشة، فإنها على الأقل مضمونة لا خيانة فيها.

- ولكني لم أحاول أن أبعدكِ عني، على الرغم من أنني أعرف أنني سأتعلق بكِ تعلقًا لن أتخلص منه ولا بالطبل البلدي.

- هذا لأنني الاستثناء الوحيد في حياتك يا آرام.

- هذا صحيح. في البداية كنت أخاف التعلق بجيهان، لدرجة أنني كنت سأوقف دروس الدرامز.

- إذن أنا محقة، أنت أحببتها.

ترددت في الرد عليها بصراحة، لا أريد أن أكذب على ليسا؛ لهذا آثرتُ الصمت.

تحسستْ ذراعي وقالت بابتسامة عذبة:

- الحقيقة لن تغير مشاعري تجاهك.

- كنت مفتونًا بها في البداية. جيهان كانت شمعة أنارت ظلمتي، ولكن لا يجب أن تنسي أن الشمعة في رأسها نار، ستدفئكِ إن اقتربتِ منها، ولكن إن لمستِها فستحرقكِ. كنت أدرك مشاعري التي تتطور تجاهها، ومع ذلك جاهدت ألا أشِي لها بها.

- لماذا؟

- لأنها متزوجة يا ليسا!

- أم لأن أمك وقعت في غرام أبيك وهي متزوجة؟

- تبًّا لكِ!

نهضتُ بغضب وتركتُ الشرفة عائدًا إلى الغرفة.

لحقتني وهي تقول:

- لطالما تمنيتَ أن تقابل فتاة تقرأ أفكارك، ترى حقيقتك بشفافية، تقبل ماضيك وتتعايش مع حاضرك وتسبر معك أغوار مستقبلك. وهأنذي، أعرف عنك كل شيء قبل حتى أن تقوله. لماذا تكره أن أواجهك بالحقيقة؟

- لأن هذه ليست الحقيقة.

- اكذب على مَن تشاء، ولكنك تعرف أنك لا تقدر على الكذب عليَّ، هذا ضد قواعد اتفاقنا يا آرام.

جلست على مقعد الدرامز الوطيء، فجثت على ركبتيها بجواري وربتت على كتفي تقول:

- استسلم للحقيقة يا حبيبي، أحبك كما أنت من دون زيف ومن دون تجمل.

زفرتُ بضيق، ثم قلتُ وأنا أنظر إلى بقعة الشوكولا الجافة على السجاد حتى لا تلتقي أعيننا:

- الحقيقة أنني أحببت جيهان، وهي لم تحبني.

- هل واجهتها بمشاعرك؟

- نعم، يوم الأحد الماضي.

* * *

كنا نجلس في العلية، نتشارك سيجارة قبل درس الدرامز.

كانت منشغلة بلَم شعرها لأعلى كذيل حصان، ولكني لمحتُ شيئًا حول رقبتها حين رفعت شعرها:

- ما هذا يا جيجي؟

- ماذا؟

- رقبتكِ، تبدو وكأنها علامات أصابع! هل تتعرضين للعنف الزوجي؟!

- لا تُعطِ الأمر أكبر من حجمه يا آرام.

- ولكنها...

- قلت لك الموضوع بسيط، توقف عن إزعاجي!

كانت المرة الأولى التي تفقد فيها أعصابها أمامي بتلك الحدة.

لم تقبل كرامتي أن يصيح عليَّ أي إنسان، حملتُ حقيبتي على كتفي وأنا أقول:

- لست في مزاج للعزف اليوم، سلام.

زفرت ثم قالت وهي تفرك عينيها:

- آرام، انتظر!

وقفتُ مكاني والتفت إليها، فقالت بنبرة حزينة:

- تيمور قرأ خبرًا عن بيع ديسكو الكينج، ففتح الأمر علينا أبواب الجحيم، زاد رهابه ونوبات هلعه، تغيب عن العمل أربعة أيام حتى يتماسك، عاد يسمع أصوات الرصاص والصريخ، ويرى الدماء وكل هذا الهراء، أتته تلك الهلاوس البصرية، وظن أنني أهاجمه أو شيئًا من هذا القبيل، فحاول خنقي. لم يكن يقصد، ما كان ليؤذيني أبدًا.

تركت حقيبتي وذهبت للجلوس أمامها بجوار الدرامز، وأنا أقول:

- اتركيه يا جيجي.

- هل تمزح يا فتى؟

- ستظلين معه حتى يفقد وعيه في مرة ويقتلكِ أنتِ وعلي؟!

- الأمر لن يتصاعد إلى هذه الدرجة أبدًا.

- كيف تتكلمين بهذه الثقة؟

- لأنني أعرف زوجي، أعرف الشخص الذي أمضيت معه عشر سنوات.

- لم يعد الشخص نفسه يا جيهان الذي وقعتِ في غرامه بالديسكو، وأنتِ تعرفين ذلك.

ابتسمت ابتسامة مُرة ثم سألتني:

- هل وقعت في الغرام من قبل يا آرام؟

- ربما.

- تلك التي أغرمت بها: أتحبها لذاتها أم لأنها جميلة، أو لأنها موهوبة، أو لأنها تُجيد الإنصات إليك؟

- لا أفهمكِ.

- مَن هي مطربتك المفضلة؟

- مادونا.

- ماذا ستفعل إذا فقدتْ مادونا صوتها؟

- سأظل أنصت لأغانيها القديمة.

- هل ستكرهها؟

- لا أظن.

- انظر حولك، هذا ما أفعله بالضبط.

قالتها وهي تشير إلى أرجاء العلية من حولنا.

هذا ما تفعله جيهان طيلة ساعات غياب تيمور، تحبس نفسها في كبسولة الزمن التي بنتها في العلية، حيث صورهما القديمة، أسطواناتهما، آلاتهما الموسيقية.

كانت تخبئ حبهما في تلك العلية، وكأنها قلبها المكلوم.

- تيمور في حاجة إلى المساعدة.

- أعرف، ولكنه يرفض ذلك.

- لقد تطور الطب النفسي في الآونة الأخيرة، اعتمدوا تشخيص كرب ما بعد الصدمة، أعتقد أن هذا ما يعاني منه تيمور.

- لماذا تتابع تطور الطب النفسي في هذه السن يا آرام، ألست صغيرًا على الجنون يا عزيزي؟

ضحكتْ ضحكة متوترة، فابتسمتُ وقلت:

- أريد أن أتخصص في الطب النفسي، إنه علم مثير للدهشة.

- عظيم، سنجد من يعالجنا بالمجان.

- لا أمزح يا جيهان، يجب أن تساعديه.

صاحت:

- ومَن يساعدني أنا؟! على الأقل تيمور نجا من الموت، ولكنني أموت في اليوم مائة مرة، لم أتخيل يومًا أن تكون حياتي بهذه الرمادية، كنت فرسًا أصيلًا جامحًا حتى روضتني الدنيا، انظر إليَّ، أمضي الأيام بين تنظيف البيت وتعليم الموسيقى لحفنة من الهواة لا أملَ فيهم، ومراعاة طفل لا يشعر أنني أمه، الكل قلق على تيمور، وماذا عني؟!

هربت منها دموعها، فثارت ثائرتها وألقت عصوَي الدرامز بعنف نحو الحائط، ثم ركلت الدرامز فسقطت مُحدثة جلبة مزعجة.

ألقت وجهها بين يديها، وانهارت تبكي بأنين مسموع وكتفين تهتزان بقوة.

ربتُّ على كتفها، فألقت برأسها على صدري.

كانت المرة الأولى التي تحتمي فيها امرأة بي وتبكي، وتفضي إليَّ بمكنون قلبها، الوحيدة التي بكت على صدري قبل ذلك هي

عمتي، وكانت تبكي لأن بطل روايتها المفضلة مات؛ لذلك لا تُحسب.

أما جيهان، تلك الأبية التي لا تُظهر عجزها وضعفها لأحد، قررت أن تبكي على صدري أنا.

أنا ابن سليم وشويكار، أنا ابن السفاح والمجنونة، أنا اليتيم الذي أعطوه اسمًا؛ جنسيته غير جنسية صاحبه، أنا الذي أُجبر على مناداة عمته بماما، وزوجها الذي سرقها من أسرتها ووصمهم بالعار ببابا.

أنا الذي وقعت بين يديه مذكرات أبيه، فقرأ أدق تفاصيل شروره، أنا الذي وُلِد أبوه في واقعة اغتصاب، فأتى إلى الدنيا رغمًا عن أمه، وأنا الذي وُلِد في سجن النساء، وقَتل أبوه أمَّه قبل أن يلتقم ثديها.

أنا المنبوذ، الموصوم بعار لا يد له فيه، أنا الذي يثور كي يشعر أنه حي، أنا الذي يرى ويسمع ما لا يراه ولا يسمعه غيره، أنا الذي يضج رأسه ويزدحم بأصوات لا يعلم أصحابَها، أنا آرام سليم رشدي، ابن الثمانية عشر عامًا من العار والجنون والكراهية، تقبلتني جيهان كما أنا، واختارت أن تبكي على صدري!

ربتُّ على شعرها بيد، ومسحت دموعها باليد الأخرى.

أمسكتُ ذقنها ورفعتُ رأسها عن كتفي، وتأملت وجهها. كانت أجملَ من بكى.

لم أعد أحتمل الكتمان. ثلاثة أشهر من التظاهر بأن جيهان ليست أكثر من شقيقة كبرى تشاركني خبرتها في الحياة، وأشاركها خزيي ومعاداتي للمجتمع.

في هذه اللحظة، قررتُ أن أعلن لها عما يُضمره قلبي لها، وكان هذا أغبى قرار أخذته في حياتي.

وضعتُ وجهها بين كفيَّ وملتُ عليها، فصدتني بكفيها لتشل حركة رأسي، وهي تقول بملامح جامدة:

- ماذا تفعل يا آرام؟!

تجمدتُ في مكاني، خفق قلبي كلصٍّ غسيلٍ أُمسك متلبسًا في منتصف الليل.

صاحت فيَّ بحدة:

- هل جننت؟!

- جيجي، انتظري، أنا لم...

نهضت وركلت الكرسي الذي كانت تجلس عليه، وأمسكتني من تلابيبي بعنف وهي تصرخ:

- اعتبرتك أخي الصغير وصديقي الوحيد، أشكو لك وحدتي وحزني، وأبكي على صدرك، فتستغل ضعفي وتحاول تقبيلي؟!

- لا، لا. لم أقصد!

- لم تقصد ماذا، أن تعدَّني ساقطة ستخون زوجها مع طفل مراهق؟!

دفعتني بعنف لا يليق بحجمها الضئيل، فتراجعت عدة خطوات وأنا أراقبها تحمل حقيبتي عن الأرض وتلقيها صوبي، وتفتح الباب وهي تقول:

- أيها القذر اللعين، اخرج من بيتي!

خرجتُ كجرو ذليل، وسمعتها تصفق الباب خلفي وتركل أثاث العلية وتكسره بعنف وغضب، حتى تركتُ البيت ورحلت.

* * *

تجنبتُ النظر لعينَي ليسا طويلتَي الأهداب؛ لأنها إما ستُشفق عليَّ لأن جيهان فطرت قلبي، وإما ستشمئز مني؛ لأنني فطرت قلبها، ولكنها فعلت شيئًا ثالثًا: ضحكت. ضحكت بقوة أدمعت عينيها، فنظرتُ لها شزرًا وقلتُ:

- ما المضحك؟!

- هل تورطت في هذه المصيبة فقط لأن جيهان لم تبادلك المشاعر نفسها؟

- ما أغباكِ، لم تكوني معي يومها، لا تعرفين ماذا حدث!

- لماذا فعلتها إذن؟

- لأنقذ أرواحهم، و...

طُرِق الباب، فتوقفت عن الكلام، وتمالكتُ أعصابي التي أتلفتها ليسا لي.

همست لها:

- اختبئي في الخزانة.

- ألا يعرفان أنني هنا؟

- ليس حتى هذه الساعة، اذهبي، ولا تتركي أي بقع جيلاتي على ملابسي إذا تكرمتِ!

دخلتْ إلى خزانة الملابس وهي تمازحني، وتتظاهر بأنها ستسقط الجيلاتي على ملابسي، حتى صفقت الباب في وجهها.

نهضت أفتح باب غرفتي، فوجدت عمتي تقف عند الباب وتقول:

- هل نمت؟

- كنت على وشك أن أغفو، ما الأمر؟

- أنا وسيران سنذهب إلى منزل ناهد وياسر، وقد نبيت معهما.

دخلتْ إلى غرفتي، وأمسكت بيدي بحنان وقادتني إلى السرير كي أجلس بجوارها وهي تقول:

- تيمور استفاق. لم يتعافَ كليًّا بعد، ولكنه كان في حالة جيدة لتأخذ الشرطة أقواله، قال إنه كان تحت تأثير تلك الطوابع المهلوسة المسماة «MSD».

- «LSD» يا ماما.

- كيف تعرف اسمها يا آرام؟ هل عرض عليك هذا المدمن أن...

- سمعتُ عنها في فيلم أجنبي، تيمور لم يتناول هذه الأشياء أمامي قَطُّ، ولم أكن أعرف أنه يدمنها، كما أخبرتكِ وأخبرت الضابط، كانا زوجين كتُومَيْن قليلَي الكلام.

ظلت تنظر إليَّ بشك، فقلتُ بفتور:

- هيا، أكملي من فضلكِ.

- تحت تأثير تلك المهلوسات، خُيل لتيمور أن ابنه وابن ناهد وحْشَان، فقتلهما، ثم أخذ بندقية صيد جيهان وقتل كل الأطفال الذين يلعبون في الشارع، وحين عاد إلى البيت قابلته جيهان، كانت تشتري البقالة، فقام بقتلها هي الأخرى في القبو. حين أدرك فعلته، بعد أن انتهى تأثير المخدر، انتحر بأحد سموم معمله.

- أهذا ما قاله تيمور؟!

- نعم.

- هل سألته الشرطة عني؟

- لا أدري يا حبيبي، هذا كل ما قاله ياسر لنا الآن، هو وناهد في صدمة، لا يصدقان أن صديق عمرهما قتل ابنهما.

قتل ابنه وزوجته، حبيبة عمره، صغيرته كما كان يدعوها، ويستغربان أنه قتل ابنهما، أنانيان!

كورت قبضتي وأخذت أهز قدمي، وضعتْ عمتي يدها على ظهري وسألتني:

- أنت بخير يا آرام؟

- سأكون بخير، إنها حكاية كئيبة، جيهان لا تستحق أن تموت هكذا، لم تتم حتى عامها الثلاثين.

- اقرأ لها الفاتحة، وادعُ لها بالرحمة. لم أكن مقربة لها، ولكني كنت أحب أنك تعود بعد كل درس درامز من عندها مبتسمًا، سأدعو لها لأنها كانت تُسعد أهم إنسان في حياتي.

قبّلت خدي بحنان، وداعبت شعري ووضعته خلف أذني.

أتساءل: أكانت ستُقبلني وتربت على رأسي بالحنان نفسه، لو عرفت الحقيقة؟!

- فلتنم قليلًا يا بني، كان يومًا كبيسًا، الحمد لله الذي سلمك، لا أتصور ماذا كنتُ سأفعل لو كنتَ موجودًا في البيت وهذا المختل أصابك بمكروه!

- الحمد لله.

- قبل أن تنام، ما قصة ليسا التي ذكرتها اليوم؟

- أيمكن أن نتحدث عن هذا الأمر لاحقًا؟

- طبعًا يا حبيبي.

طبعتْ قُبلة إضافية على جبيني بحنانها المبالغ فيه، وخرجتْ وأغلقت الباب خلفها.

بقيتُ في مكاني حتى سمعت ليسا تهمس إليَّ:

- يجب أن نذهب لتيمور.

انتفضت! للحظة نسيت أنها تختبئ في خزانة الملابس.

أخذت نفسًا عميقًا ثم سألتها:

- لماذا؟

- ألا يساورك الفضول لتعرف لماذا لم يشِ بك؟

* * *

ليسا أفكارها شيطانية أكثر من جيهان.

نصحتني ألا أقع في الخطأ الذي وقع فيه أبي، حين قتل أمي في المشفى وسجل زيارته مع عامل الاستقبال كالأحمق.

خمنا أنه قد يكون هناك عسكري عند الباب، بما أن تيمور اعترف بأنه السفاح. وبما أن الدخول من الباب فيه الكثير من المخاطر، آثرنا الدخول من الشباك.

دخلنا المشفى، ولكننا لم نسِر في ممر الغرف، سِرنا في الحديقة التي تطل النوافذ عليها حتى وجدنا الغرفة المنشودة.

تيمور كان مستلقيًا على سرير يقابل شرفة الغرفة ويتأمل السقف.

رآني وليسا، فتحرك بما تسمح به الأصفاد التي كبل بها في قضبان السرير الحديدية، وراح يستغرب اقترابنا منه. وباقترابنا منه، رأيته عن كثب.

كان جلده شاحبًا، وعيناه حمراوين كالشيطان، ويشخص بنظره كمن فرَّ من الجحيم.

قلتُ له وأنا أقف أسفل الشرفة:

- تيمور، أنا سعيد لأنك ما زلت حيًّا.

- أنت هنا حقًّا؟

- أجل، لستُ هلاوس بصرية.

تلفتُّ حولي، لا أحد في الحديقة في تلك الساعة. قفزت إلى الشرفة، وعبرت منها إلى الغرفة حيث فراش تيمور الكئيب، وكذلك فعلت ليسا.

وقفت أمامه أسأله همسًا حتى لا يسمعنا العسكري الذي يقضي خدمته على باب الغرفة:

- لماذا قلت إنك السفاح؟

نظر إليَّ بعينيه الجاحظتين، وقال برعشة مرعبة:

- لأنها الحقيقة، صحيح؟

- كلانا يعرف أنها ليست كذلك.

- ليس من الضروري أن يعرف أحد غيرنا.

- من أجل جيهان؟

- ومن أجلك.

توترت، وفشلت في إخفاء ذلك، فوضعت ليسا يدها على كتفي لأتماسك.

سألته ببلاهة مصطنعة:

- ماذا تقصد؟

- أعرف ما فعلته يا آرام.

٨

Psycho Killer(*)

كما قلتُ للضابط، ذهبت في العاشرة صباحًا لأخذ الإيجار، رأيت ناهد، تركت مجدي ورحلت.

لم أكذب في التفاصيل السابقة، ولكن كل ما تلاها كان كذبًا، فقد دخلتُ البيت أنتظر تيمور يجهز لي الإيجار.

كان علي ومجدي يقفزان في الصالة أمام التلفاز، وهما يغنيان مقدمة برنامج «سينما الأطفال»:

واتعلموا واتمتعوا يا حبايب يلَّا اتجمعوا

ونشوف حواديت، حواديت، أجمل حواديت، حواديت

يا كبار، يا صغار، يلا يا كت كت كتاكيت

لا أدري عن أي كتاكيت يغني هذان الشيطانان اللذان أخذا يدفعان بعضهما وهما يغنيان تلك الأغنية الملائكية حتى انتهت! فجلسا أرضًا ملتصقَين بالشاشة التصاق العثة بالمصباح، وأخذا

(*) «قاتل سيكوباتي»: أغنية روك لفرقة تاكينج هيدز.

يلوحان للمذيعة عفاف الهلاوي كالأحمقين، ويناديانها بماما عفاف، وهي تتفاعل مع جماهير الأطفال وكأنها تستطيع أن تسمعهما من التلفاز.

جلستُ على الأريكة أتأمل تسريحة المذيعة الأنيقة، ذات الشعر القصير الكثيف، وأتجنب التعامل مع الطفلين قدر المستطاع، حتى انتهت فقرة المذيعة والجماهير، وبدأ عرض الكرتون، فأخذا يصيحان ويعلقان على كل مشهد وكل جملة حتى أفقداني سلامي النفسي.

نهضت أبحث عن تيمور، كان في المطبخ يُخرج المثلجات من المبرد، كي يتناولها الطفلان في أثناء مشاهدتهما للتلفاز، وأعطاني بعضًا منها.

قبلتها منه وهو يسألني:

- ألديك أي مشوار مهم الآن؟

- كلا.

- أتمانع في مجالسة علي ومجدي، بينما أنام قليلًا؟

كنت أمانع، أُفضِّل مجالسة أمنا الغولة عن مجالسة طفل!

لا أكره الأطفال، لا أتمنى لهم الأذى، ولكن لا صبر لي عليهم، إلا أنني تخيلتُ مشهد دخول جيهان وهي تراني أجالس ابنها وابن قريبتها، بينما زوجها عديم الفائدة ينام مشخرًا في غرفته. قد تكون بادرة تُعيد علاقتنا لسابق عهدها.

- حسنًا، جيهان ستعود قريبًا؟

- لا أدري.

- هل تشاجرتما؟

رمقني بحدة وكأنني سبَبتُ أمه وقال:

- لا تتدخل في شؤون الكبار يا فتى!

- لم أقصد، أعرف أنك تمر بتوقيت صعب، فوددتُ أن أطمئن عليك.

ليت لساني قُطع قبل أن أقول ذلك.

إن الراشدين يستجدون الاهتمام بطريقة ألعن من الرضيع الذي يصرخ ويبكي ويُكدر صفو أهلنا حتى تُرضعه أمه.

بمجرد أن أعربت له عن قلقي عليه، عرض عليَّ زجاجة ستيلا باردة، وظل يثرثر ويتمتم ويغمغم ويقص عليَّ تفاصيل فيما يخص واقعة ديسكو الكينج التي سئمتها.

بعد ما يقارب الساعة من الصعبنيات والمأساويات، أعطاني ظرف الإيجار، فأعطيته الوصل، فقال:

- اتركه عندك على المنضدة. إن جعتَ، فهناك بعض الشطائر على المائدة، شكرًا لاستماعك يا آرام، كنتُ في حاجة إلى الحديث مع أحدهم.

خرجت من المطبخ، فوجدت الطفلين انتهيا من مشاهدة الكرتون، وبدآ يلعبان ماتش مصارعة فاشلًا، نتج عنه سقوط مزهرية من فوق التلفاز، لملمَ تيمور بقاياها من على الأرض بلا تعليق أو توبيخ للطفلين.

قررت أن أشغلهما بتشغيل شريط جيمس بوند في جهاز الفيديو، وجلستُ أشاهد معهما الفيلم باندماج بينما تركَنا تيمور نشاهد الفيلم ودخل لينام.

انتهى الفيلم، وجيهان لم تعُد بعد.

أخذ الولدان ألعابهما وخرجا إلى الحديقة، الجو كان حارًّا حارقًا، فقررتُ ألا أتبعهما، بقيتُ في المنزل.

كان هادئًا مريحًا، بدأتُ أفكر جديًّا في عدم تجديد الإيجار لهم، ربما آنَ الأوان لأنتقل إلى بيتي وأترك الحياة مع عمتي وزوجها وعواطفهما التي تخنقني.

سمحتُ لنفسي أن أدور في البيت كما يحلو لي.

فتحت ثلاجة المطبخ، مليئة بالخضر والفاكهة، وكأنني في بيت أرنبَيْن.

صعدتُ إلى العلية، كانت موصدة بالمفتاح، نسيتُ أن جيهان تغلقها حتى لا يلمح تيمور الدرامز والجيتار ويُجَن جنونه مرة أخرى.

نزلت القبو، غيَّرا بابه، جعلا المقبض عاليًا، أظن ليتجنبا دخول علي إليه واللهو بالسموم.

فتحت الباب ودخلت.

حوَّل قبوي إلى معمل فرانكنشتاين، الكثير من الزجاجات والأدوات المعملية المتنوعة، والمواد الكيميائية، والدفاتر والملاحظات المبعثرة على طاولة المعمل والمكتوبة بالطبشور على السبورة السوداء الكبيرة المقابلة للطاولة.

على اليسار، بالقرب من الباب، كانت خزانة ضخمة، بها بالطو وقفازات طبية فقط.

استغربتُ وجود خزانة تسع رجلين متكاتفين، فارغةً هكذا من دون ملئها بأي شيء.

خرجتُ من القبو كي أتفقد الصبيان، ولكن بمجرد أن فتحت الباب، سمعتُ صوتًا غريبًا.

صراخ الطفلين بعنف، وصوت يلهث، وصوت شيء يرتطم بشيء صلب، وأحدهم يقول:

- ضبع، خنزير، لن أموت الليلة!

ركضت صوب الباب الخلفي المؤدي إلى الحديقة، فوجدتُ ما جعلني أجمد في مكاني.

كان تيمور جاثيًا على ركبتيه مُمسكًا ببندقية صيد جيهان، ووجهه وصدره وكفاه مُلطخة بالدماء، وجمجمتا علي ومجدي مهشمتان.

كتمت فمي بيدي حتى لا تخرج مني أي صرخة، ولكن تيمور رآني، نهض مستندًا إلى البندقية التي كان كعبها داميًا بعد أن هشم بها رأسَي الصبيَّيْن.

كانت عيناه زائغتين، واتجه ناحيتي مصوبًا فوهة البندقية إليَّ، سيقتلني!

ركضت فسبقني وهو يقول:

- اتركوني في غابات الأمازون مع نساء المايا اللاتي يستحممن أسفل الشلال.

عبرتُ الصالة وقد ارتطمت ساقي بالمنضدة، ولكني لم أتمهل.

- كيف وجد الضبع تلك البندقية، ولماذا اتفق مع الخنزير على قتلي؟

نزلتُ السلم المؤدي إلى القبو.

- قتلتُ الضبع والخنزير، ها قد حان دور الثعبان!

دخلتُ القبو وأغلقتُ الباب خلفي، وأسندتُ ظهري عليه حتى لا يحاول فتحه.

استعددتُ لمعركة ستُظهر أينا عصبُه أقوى من الثاني، وإن كان سيَقدر على فتح الباب أم سأغلبه أنا وأبقى مستندًا إليه لأحمي حياتي.

لم تقم المعركة، فقد سمعته يتعثر ويسقط على السلم ويتدحرج.

تأوه وأنَّ حتى استقر على الأرض، وساد الصمت.

كانت فرصتي للهرب، حاولتُ فتح الباب، ولكن تبين أن تيمور سقط بالعرض عند الباب فسده ببدنه الفاقد للوعي، فلم أقدر على الفرار.

بقيتُ داخل القبو، أشعر بتوعك شديد، أنفاسي تتلاحق، قلبي ينبض بعنف.

ألتفتُ حولي، لا يوجد شيء يصلح كسلاح في هذا المعمل اللعين.

بقيتُ على هذه الحالة ربما لعشر دقائق، حتى سمعتُ صوت جيهان تصرخ.

جذبتُ كرسي المعمل، وقفتُ عليه حتى أصل إلى النافذة الوحيدة في القبو، التي في أعلى جزء من الحائط، وتطل على الحديقة الخلفية.

رأيتُ جيهان جاثية على ركبتيها، تتفقد الطفلَين الميتَين الغارقَين في دمائهما وتبكيهما، وحقائب البقالة ملقاة حولها.

نهضتْ وركضت إلى داخل البيت، تصيح وتنادي على تيمور، حتى تبين مكانه عند باب القبو.

نزلتُ عن الكرسي، وألصقتُ أذني بالباب.

ظلت تبكي وتصرخ حتى سمعته يئن.

- ماذا حدث، ماذا فعلتَ يا تيمور؟

- ماذا تقصدين، ما الأمر؟

- هل تناولتَ أحد مهلوساتك؟

سمعتُ صوت لسعة عنيفة، تبعها صياح جيهان في تيمور. فخمنتُ أنها صفعته.

- أفق، لماذا قتلتهما؟!

- كانت هلاوس، قتلتُ ضبعًا وخنزيرًا كانا يُهددانني ببندقيتكِ.

- لم يكونا ضبعًا وخنزيرًا، كانا علي ومجدي يا تيمور، اللعنة، لماذا تناولتَ تلك المهلوسات في غيابي؟ لقد قتلتَهما، اللعنة يا تيمي، اللعنة!

- ماذا تقولين؟! أنا لم...

- انظر إلى كعب البندقية، انظر إلى يديك!

صمت تيمور للحظة، بينما ظلت جيهان تبكي. تخيلتُه يتفقد يديه الداميتَين وكعب البندقية التي تتقطر منها دماء ضحيتَيه.

صرخ صرخة عميقة غطت على بكاء جيهان.

- يا إلهي، لقد قتلتُ وحيدي، علي مات يا جيهان!

أخذ يكرر الجملة نفسها بالنبرة المفجوعة ذاتها، ثم سمعته يلقم البندقية فصرخت جيهان:

- إياك!

- اتركيني أموت، لقد قتلتُ ابننا يا جيهان، حطمتُ رأسه بيدي!

- قلت لك لن تموت، أعطني تلك البندقية.

- ماذا عن مجدي، لقد سلبتُ ناهد وياسر وحيدهما، طلبتْ مني أن أعتني بمجدي، فإذ بي أقتله!

- الذنب ليس ذنبك، استمع إليَّ يا تيمي، ما كان يجب أن تترك ناهد ابنها معك وأنت حالتك غير مستقرة هكذا، كانت تعلم أنك ما زلت مريضًا. وأنا مخطئة، نعم الخطأ خطئي، لم يكن من المفترض أن أترك علي معك، لا تنتحر، أنا المذنبة.

- ما من مذنب غيري، ليتني لم أعاندكِ، ليتني أودعت نفسي بمشفى المجاذيب. يا ويلي! كيف لي أن أعيش بعد أن قتلتُ طفلين، كيف لي أن أتنفس بعد أن قتلتُ ابني، ابني يا جيهان، فرحتي وسعادتي، قتلتُ ابني، دعيني أموت وأستريح!

- توقف، ليس ابنك!

ساد الصمت للحظة، أنا نفسي حبستُ أنفاسي بدون قصدٍ مني. هدأ صراخ جيهان، ثم قالت:

- لا داعي للانتحار يا تيمور، فأنت لم تقتل ابنك.

- ماذا تعنين؟

- ابنك مات في أول ليلة هاجمتني فيها، وكدتُ أن أموت من ضربك المبرح لي، أخبرتك أنني لا أُسْتأمن على الأطفال، ولكنك لم تصدقني، رويتُ لك عن مدى كرهي لهم، ولكنك أصررتَ على أن تنجب مني ابنًا، ابنًا كتمتُ أنا أنفاسه بيديَّ، تمامًا كما فعلتُ بأخي، ولكن أقسم لك إن هذه المرة لم أكن أنتوي قتل صغيرنا، لقد جُن جنونك حين سمعتَ بكاءه وهاجمتني بوحشية، بعد أن استفقتُ من مهاجمتك لي، نهضتُ

سريعًا وانتشلته من على الأريكة، ثم ركضتُ مع ناهد لشقتها، ظل يبكي بلا توقف في أثناء نزولنا على السلم، ترجيته أن يصمت، ولكنه صرخ بلا هوادة، خفتُ أن تهتاج وتنقضَّ عليَّ ثانية، فوضعتُ يدي على فمه فقط لأكتم بكاءه، حتى أترك الشقة والسلم وأصل لشقة ناهد، أقسم لك إنني لم أود سوى إسكاته، ولكني لم أحسب أن يدي بهذه القوة وهذا الثِّقل، اكتشفتُ وفاته بعدما ضَمَّدَت لي ناهد جراحي وهدَّأَت من روعي، وجدته باردًا لا يتنفس، فعرفتُ جرمي ولم أفكر في شيء سواك، كيف ستتقبل تلك الصدمة وأنت تعاني بما يكفي؟! فبِلا تخطيط، وجدتُ نفسي آخذه وأرحل عن شقة ناهد بمفردي، أهيم في الشوارع وهو ميتٌ على صدري. لا أعلم كيف رتبتُ الأمر، ولكن ساقتني قدماي لمشفى أبي، تسللتُ للحضَّانة وبدلتُ رضيعنا الميت بآخر يشبهه بعض الشيء، جميعهم مُتشابهون في الأسابيع الأولى على أي حال، وحين عدتُ إليك وطلبت منك أن تحمل ابنك وتمعن به النظر، رأيتُ أنك لم تلاحظ فرقًا.

صمتت لثانية، تنهدت، ثم قالت بصوت خفيض وبنبرة مرتعشة:

- لهذا أقول لك إنك لم تقتل ابننا، بل أنا التي قتلته، وإن كنت تود الانتحار، فلتقتلني أولًا، كلانا تلطخت يداه بالدماء.

ليت تيمور تمكن من فتح الباب وقتلي قبل أن أسمع هذه القصة البشعة!

تمنيت من كل قلبي أن تكون اختلقت هذه الحكاية لتخفف عن تيمور ذنبه، ولكنها لم تكن تكذب، جيهان ليست كاذبة.

ساد الصمت، لا أدري ما كنت أفعل لو كنت مكان تيمور.
قالت له وهي تبكي مرة أخرى:
- لا تنظر إليَّ هكذا، تكلم حتى وإن كنت تود تعنيفي ومعاقبتي على جريمتي، ولكن لا تصمت هكذا.
- أعاقبكِ! ومن أنا لأعاقبكِ؟! انظري لما فعلَته يداي، أنا قاتلٌ، قاتل يستحق الشنق!
شعرت بحركة، أظنها تعانقه؛ لأنها قالت بصوت مكتوم وكأن رأسها على كتفه أو صدره:
- لستَ قاتلًا، أنت تيمي حبيبي، أنت الرجل الذي فك شفرتي وآمن بي واحتواني، وكان لي دارًا وأهلًا وأمانًا... أنصت إليَّ، سأُصلح الوضع تمامًا كما أصلحتني أنت.
- أصلحتكِ؟ انظري لحالكِ، لقد تحولتِ من شابة مضطربة إلى قاتلة!
- كلا، كلا، ما حدث لكلينا لهو خارج عن إرادتنا، أقسم لك إنني...
- أنتِ قتلتِ وحيدنا وكذبتِ عليَّ لأربعة أعوام، واستبدلتِه بغيره حتى تنتهي المأساة بأن أقتل البديل كما قتلتِ ابننا.
- لا، لا، لا تنظر للأمر من هذه الزاوية، أين ذهب تفاؤلك يا تيمي؟
- اخرسي!
- سأصلح الأمر، أعدك.
- فات الأوان.
- ليس بعد، لن أدعهم يأخذونك مني مهما كان الثمن يا تيمور، ابقَ بالمنزل واسترح، لديَّ الحل.

سمعتها تنهض، تأخذ البندقية وتصعد السلالم، تمشي في الصالة، تخرج من الباب وترحل.

بقيتُ في مكاني، لا أدري كم دقيقة مرت وأنا أنصت إلى بكاء تيمور على السلم وعويله وصريخه.

سمعته ينهض ويدير المقبض.

ابتعدتُ عن الباب، ركضت صوب الخزانة الضخمة الفارغة واختبأتُ فيها، وتركتُ فجوة بسيطة حتى أرى ما يدور.

دخل تيمور من الباب يبكي ويلعن نفسه ويطلب الغفران من ربه.

لامَ نفسه على أن صوت إطلاق الرصاص في فيلم جيمس بوند أرَّقه، وعلى أنه جلس معي اليوم قبل أن ينام وقص عليَّ مجزرة ديسكو الكينج بتفاصيلها؛ مما أيقظ الذعر في بدنه مرة أخرى، ولعن أنه تناول الطوابع من دون تفكير وهو مسؤول عن مجالسة طفلين.

رأيته يضع مكونات فوق بعضها، ففاحت رائحة سُكرية ثقيلة وسخيفة وهو يخلط المواد في أنبوب معملي صغير، ثم جلس على الأرض يسند ظهره إلى الحائط المقابل للخزانة التي أختبئ فيها، ثم شرب الأنبوب.

مع مرور الوقت، تشنج وأخرج رغاوي من فمه وصرخ ألمًا وتصبب عرقًا وسقط على الأرض فاقدًا الوعي.

فتحت الخزانة، وهممتُ أن أهرب، ولكني فشلتُ للمرة الثانية.

سمعت صوت طلقتين قادمتين من الحديقة، ثم باب الفيلَّا يُفتح وجيهان تدخل وهي تنادي بصوت رائق ينطق بجنون صادم:

- تيمور، تعالَ لأخبرك عما فعلته، يجب أن نوحد قصتنا أمام الشرطة لنتخلص من هذا المأزق.

نزلت السلالم وهي تقول بمرح:

- سنخبر الشرطة أن رجلًا غريبًا قفز من سور الفيلَّا وقتل علي ومجدي، سنقول إن هناك سفاحًا طليقًا أطلق الرصاص على كل الأطفال الذين يلعبون في الشارع.

رأيتها تستغرب أن تيمور ليس على السلم.

دخلت المعمل وتركت بندقية الصيد أمام الخزانة التي أختبئ فيها، ثم رأت تيمور مُلقى على الأرض، فصرخت.

هرعت ناحيته، وألقت بنفسها نحوه حين رأته مُمددًا على الأرض.

انهارت باكية وهي تصرخ منادية باسمه حين رأت قارورة السم الفارغة بجواره، فأخذت تتفقد حرارته ونبضه وأنفاسه وتقول:

- لا، لماذا؟! أخبرتك أني سأصلح الأمر، لا تتركني بعد، لقد قتلتُ الأطفال في الشارع، وأطلقتُ الرصاص على علي ومجدي، سيصدقون أن هناك سفاحًا.

- وهل جرائم أبي ألهمتكِ بذلك؟

التفتت فوجدتني أقف خلفها على بُعد خطوتين، ممسكًا ببندقيتها وموجهًا فوهتها صوبها.

بقيت في مكانها من دون حراك، رأيتُ صدمتها، صدمة أنني موجود، صدمة أنني سمعتها، صدمة أنني أحمل سلاحها.

- آرام، اترك البندقية.

- ستخلقين شخصية سفاح مزيف، كي تنفي الجريمة عن زوجكِ المدمن المختل؟

- أنت لا تفهم ماذا حدث.

- شهدتُ جريمته وجريمتكِ يا جيجي، قتلتِ ابنكِ، وأنهيتِ حياة أطفال أبرياء في الشارع، وأطلقتِ الرصاص على جثتَي ابن ناهد وهذا الطفل المسكين الذي حرمتِ أمه منه في الحضَّانة!

راقبت صدرها يعلو ويهبط ذعرًا، ولسانها يبحث في جوفها عن كلمة تدافع بها عن نفسها، ولكن عجزت عن ذلك. بقيت صامتة ودموعها تهرب منها.

- كيف لم أدرك أنكِ بهذه البشاعة، كيف لم أنتبه إلى أنكِ وحش لعين، أنكِ ألعن من أمي وأبي مجتمعين، كيف لم ألحظ أنكِ ألعن من أم سامر يا جيهان؟!

- آرام حبيبي، اهدأ، أنت لا تدري عمَّ تتحدث، أنت لا تعرف معنى أن تقتل، أتظنني عشتُ حياة طبيعية بعد ما فعلت بابني، أتظنني سأعيش حياة طبيعية بعد أن قتلت هؤلاء الأطفال؟! لن تتحمل أن تعيش بذنب إزهاق روح.

- أنتِ مخطئة، قتلتُ أم سامر وهأنذا بكامل قواي العقلية، أعيش أفضل حياة يمكن أن يعيشها مراهق ملعون مثلي، لا تقلقي عليَّ، سأتخطى قتلكِ!

ضغطتُ الزناد وأطلقت عليها رصاصتين: واحدة في صدرها، والأخرى في رأسها، فتلطخت ثيابي بدمائها، ثم سقطت جثة هامدة فوق زوجها.

سحبتُ طرف قميصها ومسحت به بصماتي عن الزناد ومشط البندقية، وأنا أفكر في الطريق الذي سأسلكه من الشوارع الخلفية بعيدًا عن زحام الشوارع الرئيسية، حيث يكثر الشهود على خروجي من الفيلَّا في هذا التوقيت، ثم وضعت البندقية بجوار تيمور الذي لم أكن أعرف أنه شهد على فعلتي!

٩

21st Century Schizoid Man(*)

نظرت إلى تيمور الذي يهتز في مكانه بملامح متصلبة، لا أعلم إن كان سببها التجربة المريعة التي مر بها اليوم، أم هذا عرَضٌ جانبي للسم الذي أنقذوه من الموت به بأعجوبة.

سألته:

- لماذا لم تخبر الشرطة أنني قتلت جيهان؟

- لا أريد أن أضيع مستقبلك، ما زلت صغيرًا.

- قتلتْ ثمانية أطفال من أجل تبرئة سمعتك، وأنت تكافئ قاتلها بالبراءة؟!

- لقد برأت سمعتها بأن ألصقت جرائمها بي، كي تظل طاهرة وموهوبة ومرحة ومسكينة أمام الجميع.

- لماذا؟

- لأنني أحمق تجاهل كل الإشارات الكونية وتزوجها، تجاهلتُ

(*) «فصامي القرن الحادي والعشرين»: أغنية روك لفرقة كينج كريمسون.

أنها عنيفة وسريعة الغضب وقليلة العقل، تجاهلت أنها تكره الأطفال، تجاهلت ضربها المستمر لعلي، تجاهلت قلة اهتمامها به، تجاهلت سبها للساعة التي أنجبته فيها، تجاهلت أنها كانت تغار إذا أمضيتُ مع ابننا وقتًا أكثر منها. دم علي والطفل الذي سرقته جيهان من الحضَّانة في رقبتي، فقد اخترت زوجة وفيَّة تحبني، ولكنها أم مريعة.

سالت دموعه، ولكن ظلت عضلات وجهه جامدة لا تعطي أي تعبيرات.

نظرت ليسا إليَّ نظرة موحية، فتذكرتُ ما أتينا من أجله.

سألتُ تيمور:

- هل ستشِي بي للشرطة؟
- ألهذا تسللت إلى غرفتي في منتصف الليل؟
- أهناك شيء أهم من حريتي يدفعني لتلك المخاطرة؟
- لو كنت أريد حبسك، لقلت الحقيقة هذا الصباح.
- لن تغير رأيك، لن يقنعك محاميك بأن تلفق لي التهم كلها؟
- لن أسلمك إلى الشرطة إذا وعدتني أنك لن تؤذي أي شخص آخر، حتى وإن كنت تظن أنك بذلك تقدم خدمة للمجتمع أو تنفذ عدالة السماء.

تبادلت النظرات مع ليسا، لم أتوقع أن يكون هذا شرطه الوحيد.

فكرت قليلًا، ثم قلتُ له وأنا أدس يدي في جيبي الجينز:

- أعدك!

هز رأسه وفرك عينيه، ثم مد يده صوبي ليصافحني، وهو يقول:

- وأنا أيضًا أعدك.

وقفتُ أمامه أصافحه، كانت لحظة ممتازة كي أُخرج يدي من جيبي وفيها حقنة ممتلئة بالسيستول الذي سرقته من معمله وسممت به أم سامر، وقد بقيت معي هذه الجرعة الأخيرة فغرستها في عنقه.

تفاجأ، شهق شهقة عميقة، ولكنه لم يقاوم، لم يستنجد، بل أكاد أقسم إنه ابتسم لي بامتنان على قتله.

أفرغت الحقنة في شريانه السباتي، ثم أعدتها فارغة إلى جيبي وتركته يسقط بهدوء على الفراش، أطرافه ترتخي، وأنفاسه تخفت.

ربتت ليسا على كتفي باستحسان، ثم أمسكت يدي وقفزت معي من الشرفة.

لم تُسقط الجيلاتي في أثناء قفزها، ولم تتوقف عن أكله ونحن نعبر حديقة المشفى، وهي تسألني:

- هل قتلته لأنك لن تفي بوعدك وتتوقف عن القتل، أم لأنك تخاف أن يتراجع ويشِي بك للشرطة؟

- قتلته لأنه أب سيئ يا ليسا.

استحسنتْ إجابتي وهزت رأسها، فسألتها حتى لا يطول الصمت بيننا:

- صحيح، ما معنى اسمكِ؟

- أنت تعرف معنى اسمي جيدًا يا آرام، خالتك هيدي كانت تقرأ تراجيديا هرقل بصوت عالٍ، وكأنها في الكُتاب، وقالت اسم

ليسا، رددته عدة مرات كأنها تتذوقه، أنت سألتها عن الاسم لأنه راقك، فأخبرتك أنه اسم روح الجنون والهوس والغضب والسعار عند الإغريق.

استوقفتني تلك المعلومة وجعلتني أعيد التفكير في كثير من التفاصيل.

وقفت في مكاني فوقفت مثلي، ثم سألتها:

- لماذا ظهرتِ في حياتي الآن يا ليسا، لماذا ترافقيني كظلي؟

- لأنك في حاجة إليَّ، أنا وسيلتك للتأقلم مع ماضيك الذي ألقي على كاهلك فجأة حين وجدت مذكرات أبيك وأمك، ثم فضحَك حسام وسط زملائك ورفضت جيهان حبك. ظهرتُ اليوم فقط حتى تتمكن من استيعاب قتلك للأنثى الوحيدة التي شعرتَ بالعاطفة تجاهها، ظهرت لأنك فكرت أن تنهي حياتك يا آرام.

وقفت أتأمل شبيهة مادونا المرحة الجريئة التي تحبني من دون سبب ومن دون شرط، التي لا تبالي إن كنتُ قاتلًا صاحب رسالة، التي تحب موسيقاي، وستقودني إلى الجنون بهذا الجيلاتي الذي لا ينتهي.

مدت يدها صوبي، فأمسكتها وأكملت طريقنا وصولًا لممر المشفى الذي لم يكن فيه سوى ممرضتين وتمرجي وأفراد لا يزيد عددهم على أصابع اليد ينتظرون مرضاهم.

سألتني بنبرة مرحة أحبها:

- هل سمعت أغنية فصامي القرن الحادي والعشرين؟
- إلامَ ترمين؟
- هل تأملت كلماتها؟
- إنها تتحدث عن الفصام، عن الهلاوس، عن الأوهام التي نعيش فيها.
- أعجبتك؟
- كلا، لا أحب فرقة كينج كريمسون.

تركنا الممر، عبرنا بوابة المشفى، ثم ركبنا سيارتي.

الكل كان يحدق إلينا، كنت أظن السبب يرجع إلى ملابس ليسا الفاضحة، إلى زينتها البراقة والفجة التي لا تليق بمراهقة في مثل سنها، إلى شعرها الوردي، إلى أكلها للجيلاتي بنهَم.

ولكن بمرور السنوات، اكتشفت بأسوأ الطرق الممكنة أنني أكبر، وليسا عمرها لا يزيد على الثامنة عشرة، وهذا الجيلاتي اللعين الذي تأكله لا ينتهي ولا يسيح صيفًا وشتاءً.

وحين أسترجع الآن هذه اللحظة، أدرك أن الناس كانوا يحدقون إلينا ونحن نسير في المشفى، ليس لأنهم يستنكرون هيئة ليسا، بل لأنهم يستعجبون من أن شابًّا مثل الورد مثلي، يسير في الطرقات وهو يحادث نفسه!

أدرتُ المحرك وأنا أضع شريط مادونا الذي كنت أشاهد فيديوهاته على مراحل منفصلة في التلفاز، من خلال برنامج «العالم يغني»، حتى بدأت أشك في أنني على وشك أن أحب مادونا أكثر من ميك جاغر.

اشتغلت الموسيقى، فعرفتُ من المقدمة أنها أغنية «Think Of Me»، التي قدمت المذيعة حمدية حمدي الفيديو الخاص بها على القناة الثانية هذا الأحد.

أحببت بساطة مقدمة الفيديو كليب، مادونا بسترتها البرتقالية وهي تجلس القرفصاء على الرصيف أسفل الكوبري في انتظار حبيبها بلهفة، ونظراتها له وهي تشكو من قلة اهتمامه بها، وتهديدها له بأنها ستغزو عقله وتشغل باله حتى يعجز عن التفكير في غيرها لآخر العمر.

يبدو أن ليسا أحبت الأغنية أيضًا، وحفظتها من أول عرض لها على التلفاز مثلي، فقد تحمست وأخذت تطرقع أصابعها وتهز رأسها وترقص بكتفيها وهي تردد الكلمات مع مادونا:

لأنني سأرحل ثم ستفكر بي، أوه نعم
من الأفضل أن تفكر بي، فكر، فكر، فكر بي
أنت تعرف أنك تقودني إلى الجنون
من الأفضل أن تفكر بي، أوه نعم

غنيتُ معها وأخذتُ أراقب مرحها الجذاب بولع، فضحكتْ. خفَّضتُ صوت الراديو، ثم سألتها بابتسامة محبة:

- والآن، ماذا سنفعل؟

- بما أنك قتلت مدربة الدرامز الخاصة بك، فأرى أن تتعلم آلة جديدة، ما رأيك في الجيتار؟

- مثل روبرت بلانت؟

- لنتخلَّ عن الروك تمامًا، فلنتعلم موسيقى جديدة، وبما أننا نحب مادونا، فما رأيك بموسيقى البوب؟
- البوب! حسنًا، لا بأس، فلنجرب.
- إذن، فلنحضر قائمة أغانٍ جديدة.

شكر وعرفان

ميلاني برطميان

كريس ميكائيليان

رافي ميكائيليان

رضا محمد

هيبي صبري

أيمن الزرقاني

كاري ميريل

رايات وودوارد

شارون ميليك

ويتنى لاستر

كيلي إم ثمبسون

تونيا وايت

ستيفاني نيكول سبراوس

رينيه هولواي

ستيفن وارنوك

جاستين ماكري

أندريا ويليامز

ويليام جيمس

أوليفيا دانكلي

خوان ثريذيه

أوسيانا ستجوساوروسيا

كيتي سميث

جاري دي بالما

ستيفاني باترسون

سارة يحيى

سمير كرم

فاطمة أبو النصر

الكاتبة

وُلدت ميرنا المهدي في حي المعادي بالقاهرة، وتخرجت في مدرسة ليسيه الحرية في المعادي، ثم في كلية الألسن جامعة عين شمس. تخصصت في أدب وترجمة اللغتين الفرنسية والإسبانية، حازت عدة جوائز أدبية من سفارتَي كندا وفرنسا والمركز الثقافي الفرنسي، لتُركز بعدها في كتابة أدب الإثارة والتشويق.

صدرت لها عدة روايات: «قضية ست الحُسن: تحقيقات نوح الألفي - الكتاب الأول»، و«چاز وروك - قائمة أغاني السفاح المثالي»، و«صديقي السيكوباتي»، و«قضية لُوز مُر: تحقيقات نوح الألفي - الكتاب الثاني»، و«دليل جدتي لقتل الأوغاد» (القائمة الطويلة لجائزة كتارا الأدبية)، و«قضية عنب الثعلب: تحقيقات نوح الألفي - الكتاب الثالث»، و«قنبلة للاستخدام الشخصي».

للتواصل مع الكاتبة

Email: mirnaelmahdy.1@gmail.com

Facebook: www.facebook.com/MirnaElMahdyWriter

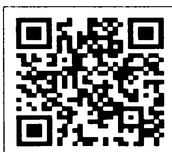
X: @Mirna_El_Mahdy

Instagram: @mirnaelmahdy

Goodreads: ميرنا المهدي

صور هذا الكود بكاميرا هاتفك

للتواصل مباشرة مع الكاتبة:



قائمة أغاني
السفاح المثالي

دندنت أغنية إلفيس بريسلي ونزلت إلى المطبخ. تأملت ترتيبه وهي تضع يديها على خصرها بفخر. لا أطباق متسخة في الحوض، والأرض تبرق من فرط النظافة، والحوائط صارت تلمع، ورأس زوجها مدفون في حوض الزرع. أليس هذا حلم كل زوجة عاقلة؟!

أما هو فوضع سماعتَي الووكمان على أذنيه وقرع الدرامز على إيقاع أغنية فرقة ذا رولينج ستونز، وهو يراقب صديقته تخفي دليل إدانته.

ما الرابط بين زوجة تحب الچاز في الستينيات، ومراهق يعشق الروك في الثمانينيات؟ وهل هناك أغانٍ مشتركة في قائمتيهما الموسيقية؟

هذا ما ستكتشفه في الجزء الأول من سلسلة قائمة أغاني السفاح المثالي.



